الأطعمة في السيرة

الأطعمة في السيرة

صلى الله عليه وسلم

محمد نهاد الحداد

الجزء الأول

إدارة إحياء التراث الإسلامي
قطر

الاصطفا
في سيرة المصطفى ﷺ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

مكتبة الشيخ عبد الله الأنصاري العامة
الرقم العام : ٣٠٠٤
رقم التصنيف : ٢٩ ٢ خ ٢ أ

الأصطفا

في سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم

محمد نبهان الخباز
إمام وخطيب جامع الأفندي بحماه
والمدرس الديني العام

قال الله تعالى
(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)
"قرآن كريم"

ك ١٩
خ ٢ م
مكتبة الشيخ عبد الله الانصاري
الرقم العام :
رقم التصنيف :

الجزء الأول

إدارة إحياء التراث الإسلامي
بدولة قطر

٦٩٦

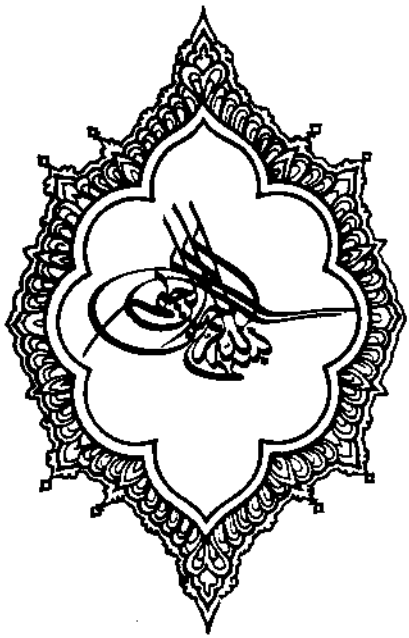

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

أقدم كتابي هذا، الاصطفا في سيرة **المصطفى ﷺ** إلى سيدي وقرة عيني محمَّدٍ رسول الله.

إلى سيدي وحبيبي نبيّ اللهِ ومصطفاه، **الذي حمل** أضخم رسالةٍ عالميةٍ عَرَفَها الإنسانُ.

صاحبِ الحوضِ المورودِ، واللواء الممدودِ، **والشفاعةِ العظمى** يوم الدّين.

منْ أَلَّفْتُ هذِهِ السِّيرةَ العطرةَ من أجلهِ ولجنابهِ الشريف، عسى أن يشملني بشفاعتهِ بإذن الله تعالى، ويمنحني حبَّهُ وعطفَهُ وحنانَهُ، وأحظى بقربهِ، يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنون، إلا مَنْ أتى اللهَ بقلبٍ سليم، وإني لأطمع أن أحشرَ في زمرته، يومَ يقومُ النَّاسُ لربِّ العالمين.

المؤلف

حقيقة في خدمة المسلم

إن المسلم الذي لا يعيش الرسول الصادق الأمين ﷺ في ضميره وسويداء قلبه، ولا تتبعه بصيرته في عمله وتفكيره، لا يعني عنه أبداً أن يحرك لسانه بألف صلاة في اليوم والليلة ولا يحسب هذا المسلمُ من المحبين المخلصين لله ولرسوله ﷺ. فهو ﷺ المرآة الصافية النقية التي يتحلّى المؤمن بالنظر إليها، ليرى نفسه وأعماله ويتأكد مما هو عليه، حينما ينظر في هذه المرآة المحمدية، فتظهر له حقيقته، وصحة ما يدّعي من الانتساب إلى هذه الشخصية الفذة من العالم البشري سيدنا محمدٍ سيد الوجود وإمام كل والدٍ ومولود عليه الصلاة والسلام.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين الهادي لنهج رب العالمين، نسألك اللهم الهداية والتوفيق والحمد لك الذي سلكت بنا مسلك الخير والسداد، واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له، شهادة ندخرها ليوم المعاد، واشهد ان سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله الداعي الى الحق والرشاد، اللهم صل عليه وعلى آله واصحابه وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين وبعد.

فمنذ سنوات ونحن نتطلع إلى ما يرشدنا سلوك نهج الرسول ﷺ، والاطلاع على سيرته والاقتداء به، والسير على طريق الرشاد أسوة به، وكان الطموح لدينا يسلك طريقه للاطلاع على أسباب السيرة النبوية وتحدثا بنعمة الله فقد وفقنا لابراز عدد من كتب السيرة منها سيرة الرسول للشيخ محمد عزة دروزة ومنها خاتم النبيين لأبي زهرة، ومنها السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ومنها سيرة ولد آدم للشيخ عبد الحميد الخطيب، ومنها حدائق الانوار لابن الدبيع الشيباني ومنها امتاع الاسماع للمقريزي، ومنها سفر السعادة للفيروز آبادى، وقد وقفنا على تأليف حادث بعنوان (الاصطفى في سيرة المصطفى) لأحد العلماء المتواضعين وهو الشيخ محمد نبهان الخباز من مدينة حماة بلاد الشام، وقد اطلعني على تأليفه المخطوط بالعنوان الآنف الذكر وبعد دراسته ألفيته صالحا للنشر مفيدا في موضوعه سهل العبارة يعتمد على مراجع قيمة بجمعه وتأليفه، واستخرت الله تعالى في طبع هذه السيرة للاستفادة منها وهي ليست المؤلف الوحيد لصاحبها وإنما هي إحدى مؤلفاته العديدة وفي كافة علوم الدين التي تزيد على خمسة وثلاثين مؤلفا.

ورغبة في نشر سيرة الرسول ﷺ بادرنا في طبعه وإخراجه للمرة الأولى.

نسأل الله تعالى أن يحقق لنا الآمال الصالحة وأن يرزقنا الاخلاص بالاعمال والاقوال وأن يضاعف الاجر والثواب للمؤلف ولمن قام وبذل سعيه في تحقيقه ومراجعته ونشره إنه سميع مجيب. اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين سبحانك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

خادم العلم

عبد الله بن ابراهيم الانصاري

مدير ادارة احياء التراث الاسلامي

دولة قطر

غرة ربيع الأول ١٤٠٦ هـ

الموافق ١٣/١١/١٩٨٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ــ المقدمة

الحمد لله مالك الملك ذي الجلال والإكرام، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للأنام، والذي خاطبه مولاه بقوله: ﴿وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين﴾ (١) وجعله هادياً مهدياً لأقوم دينٍ، وأوفى تشريع ومنتهى الآداب والفضائل، وأعلى تهذيبٍ وأخلاقٍ (٢)، مثنياً عليه في تنزيله بقوله: ﴿وإنكَ لعلى خُلقٍ عظيمٍ﴾ (٣) وخصَّصه بالشفاعة العظمى والحوض المورود، وعزّزه ونصره وقال له: ﴿فإنكَ بأعيننا﴾ (٤).

اللهمَّ صلِّ عليه وعلى آله الطيبين، وصحابته أجمعين، وسلم تسليماً كثيراً، وبعد: فقد كتب الكاتبون، وسجّل المؤرخون، وشرح أقطاب السيرة قديماً وحديثاً، وفلاسفة الكون، عن سيرة سيدنا محمد رسول الله ﷺ، منهم من أطنب فأفاض، ومنهم من أوجز فأفاد، كتبوا كثيراً وحق لهم أن يكتبوا، لأن سيرته عليه الصلاة والسلام، عطرٌ تطيب به الأرجاء، وبلسم يشفي من العلل والأوباء، ونور يشع أمام العيون، ويهتدي على شعاعه الضالون، وحبل متين يتمسك به المؤمنون، وتيّار من كهرباء العدل الإلهي، ينير حوالك الظلم، ويكشف ما ادلهم من المشاكل للأمم؛ فهو للإنسانية هدى وضياء، وللأبدان عافية وشفاء، ومنارة للسالكين، ومشرق للعارفين، خاصة عند

---

(١) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء. المحقق.

(٢) لو قال (وفي أعلى درجات الأخلاق) بدل هذه العبارة لكان أفضل. المحقق.

(٣) الآية ٤ من سورة القلم. المحقق.

(٤) جزء من الآية ٤٨ من سورة الطور. المحقق.

حدوث البلاء، وتلاطم الفتن والأهواء، كأيامنا المكفهرة السوداء، المشحونة بالمؤامرات الدولية، والأوبئة الصهيونية، والغيوم المتلبدة الاستعمارية، ومطاولة الأقوياء على الضعفاء، وعلى الحياة العامة البشرية، التي يحاول الإنسان فيها أن يمسك قلبه الذي بدأ يتهاوى، مثقلاً بهموم الحياة، وخائفاً قلقاً من أزيز الطائرات، وطلقات المدافع، ولعلعة الرصاص، ومن القنابل الذرية، والصواريخ الموجهة العابرة للقارات التي تنقل الموت الزؤام، والخراب والدمار برؤوسها النووية وقنابلها الهيدروجينية، التي تنذر بكارثة كبرى، وشر مستطير للإنسانية جمعاء، لا تقاس إليها هيروشيما ولا نجازاكي[1].

فالإنسانية بحاجة قصوى لمصلح كبير يقود سفينة البشرية لشاطىء السلام والأمان.

فهي في حاجة لمصلح عظيم كسيدنا محمدٍ رسول الله حبيبه ومصطفاه، الذي قال عنه (برنارد شو): (لقد وضعتُ دائماً دين محمدٍ موضع الاعتبار السامي بسبب حيويته المدهشة، فهو الدين الوحيد الذي يلوح لي أنه حائز أهلية الهضم لأطوار الحياة المختلفة، بحيث يستطيع أن يكون جذّاباً لكل جيل من الناس... وإني لأعتقد بأن دين محمدٍ سيكون مقبولاً لدى أوروبا غداً، ولقد درسته باعتباره رجلاً مدهشاً، ومن الواجب أن يدعى منقذ الإنسانية، وإني أعتقد أنه لو تولّى رجلٌ مثله قيادة العالم الحديث لنجح في حل مشكلاته، بطريقة تجلب إلى العالم السلام والسعادة اللذين هو في أشد الحاجة إليهما).

ويقول المستشرق الإنجليزي (جب): (ليس هناك أية هيئة سوى الإسلام، يمكن أن تنجح مثله نجاحاً باهراً، في تأليف هذه الأجناس البشرية المتنافرة في جبهة واحدة، أساسها العدل والمساواة، وإذا وضعت منازعات دول الشرق والغرب العظمى موضع الدرس، فلا بدَّ من الالتجاء إلى الإسلام لحسم النزاع.

ويقول الفيلسوف (برنارد شو) أيضاً حينما رأى نار الحرب العالمية الثانية تأكل الأخضر واليابس:

---

(١) (نجازاكي) في الأصل (نزغاكي). المحقق.

(ما أحوج العالم اليوم إلى رجلٍ كمحمدٍ ﷺ يحلُّ مشاكله وهو يحتسي فنجاناً من القهوة).

وانطلاقاً من مفاهيم هؤلاء العباقرة، ومما هو كامن في الوجدان قلت: ما أحوجنا اليوم إلى مراجعة سيرة سيدنا محمد رسول الله، للتنهل من معينها الصافي، وسلسبيلها الفياض لنأسو جراحنا، ونرأب الصدع في صفوفنا، لأن سيرة حبيب الله ومصطفاه دواء لدائنا، وإنقاذ لمجتمعنا وأمتنا.

إننا نرى الأيام تمر، وتنقضي الأعوام، وتظهر شخصيات تنماع كما ينماع الملح في الماء، بعد مدة من ظهورها، غير أن شخصية محمد ﷺ ليست كالشخصيات فهي خالدة إلى الأبد. وكل الشخصيات صدف وهو جوهرها و ياقوتها. لذا أقدمت على تسجيل سيرته الناصعة اقتداء بمن سبقني في خدمتها، والذين رعوها بإخلاص وأمانة، مع أن البعض تشاغل بغزواته وسراياه وأغمض العين عن خصاله الحميدة؛ والبعض الآخر حقق ودقق في أمور تاريخية ونظم شعري، وتناسى ما كان عليه من أخلاق وآداب، فأردت أن ألحق بالركب وأذكر ما نحن بحاجة إليه، مع أني بأشد الشوق واللهفة لهذه المشاركة العاطفية، لأكون له ﷺ من جملة الخدام، ولأحظى من جنابه بنيل المرام، وإن كنت ضعيفاً ولست من فرسان هذا الميدان.

وكنت سابقاً قد كتبت عن شخصيات أصحابه ﷺ كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وبعض التابعين كعمر بن عبد العزيز، وشخصيات أخرى في المسلسل الإسلامي.

أسائل نفسي يقظة وأرى في المنام كيف تكتب عن هؤلاء ولم تكتب عن إمام أهل الدنيا والآخرة سيد الوجود محمد ﷺ ؟(١) فوطدت العزم، وشرعت في التنفيذ، متقصياً لأصح الأخبار، وأوثق الروايات وأهمها صحةً ودرايةً، لا طويلة مملّة ولا مختصرة مخلّة، مبتعداً عن الحشويات نابذاً للخرافات، ذاكراً ما يحتاج إليه القارىء من معرفة شخصية رسول الله ﷺ وما كان عليه من الصفات والشمائل.

(١) لم يذكر في الأصل ﷺ ؟. المحقق.

سائلاً الله عز وجل أن يلهمني الصواب، و يوفقني لما فيه المراد، ويجنبني كل زيغ وخطأ في الكتاب. ومنه وحده جل وعلا أطلب العون والتوفيق، وهو حسبي ونعم الوكيل، والحمد لله في البدء والختام.

المؤلف

٢ ــ نسب النبي ﷺ

من أعظم مفاخر العرب ومميزاتهم حرصهم الشديد على حفظ أنسابهم بالتسلسل، والاعتزاز بشرف آبائهم، فلا غرو إذا ما احتفظوا بسلسلة نسب الرسول الكريم من والده إلى جده إبراهيم جد كثير من الأنبياء والمرسلين.

وإن نسب حبيب الله ومصطفاه سيدنا محمد رسول الله ﷺ هو أشرف الأنساب وأعلاها قدراً ومكانةً، وأقواها صحةً وحجةً، وأصحها روايةً ودرايةً.

وروى الترمذي عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إن الله خلق الخلق فجعلني من خير فرقهم، ثم جعلهم فرقتين فجعلني خير الفرقتين ثم تخير القبائل، فجعلني من خير قبيلةٍ، ثم تخير البيوت، من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفساً، وخيرهم بيتاً»(١).

وعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه، قال(٢): قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريشٍ بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»(٣).

وعنه في رواية ثانية، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً، من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»(٤).

---

(١) قال السيوطي في جامعه الصغير: حديث صحيح.

(٢) في الأصل (قال) مرة واحدة. المحقق.

(٣) رواه السيوطي في جامعه الصغير عن الترمذي وقال حديث صحيح.

(٤) رواه الإمام مسلم في صحيحه والترمذي وأشار إليه السيوطي: أنه حديث صحيح.

إن نسبه ﷺ لا يختلف فيه النسّابون إلى معد بن عدنان، وإنما اختلفوا من عدنان إلى إسماعيل، لكنهم أجمعوا على أنه ينتهي إلى إسماعيل، لما جاء في الأحاديث الشريفة.

فهو ﷺ محمّدُ بن عبد الله بن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصيّ، بن كلاب، بن مرة، بن كعب، بن لؤي، بن غالب، بن فهر، بن مالك، بن النضر، بن كنانة، بن خزيمة، بن مدركة، بن إلياس، بن مضر، بن نزار، بن معدّ، بن عدنان.

وإلى شرف هذا النسب يشير صاحب الهمزية رحمه الله تعالى بقوله:

وبدا للوجود منك كريمٌ ... من كريمٍ آباؤهُ كرماءُ
نسب تحسب العلا مجلاهُ ... قلدتها نجومها الجوزاءُ
حبذا عقد سؤددٍ وفخارٍ ... أنتَ فيه اليتيمة العصماءُ

وقال العلامة الماوردي في كتاب أعلام النبوة: (وإذا اختبرتَ حال نسبه ﷺ، وعرفت طهارة مولده ﷺ علمت أنه سلالة آباء كرام، ليس فيهم مستزلٌ [1]، بل كلهم سادة قادة، وشرف النسب، وطهارة المولد، من شروط النبوة) [2].

وقال عمه أبو طالب:

إذا اجتمعت يوماً قريشٌ لمفخر ... فعبدُ مناف سرُّها وصميمُها
وإن حصلتْ أنساب عبد منافها ... ففي هاشمٍ أشرافُها وقديمُها
وإن فخرتْ يوماً فإن محمداً ... هو المصطفى من سرها وكريمها [3]

أقول: هذا هو النسب الناصع للصادق الأمين، عليه أزكى الصلاة وأتم التسليم، نسب الذي شرف الله تعالى به الوجود ببعثته الخيرة، واصطفاه من خلقه وأرسله رحمة للعالمين، واختاره هادياً مهدياً، فهو من صميم قريش، التي

(١) لعل الصواب مسترذل أي: محتقر وخسيس. المحقق.
(٢) أنظر كتاب إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون ج ١ ص ٤٥.
(٣) أنظر كتاب إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون ج ١ ص ٤٥.

لها القدح المعلّى في الشرف والمجد، وعلو المكانة والفخر بين سائر العرب الناطقة بالضاد ولا تجد في سلسلة آبائه إلا كريماً من كريم، وليس فيهم مسترذل ولا وضيع، بل كلهم سادةٌ قادةٌ[1]، وكل اجتماع بين آبائه وأمهاته كان شرعياً، حسب الأصول العربية، ولم ينل نسبه الطاهر شيء من سفاح الجاهلية كما أقرهُ العلماء الأعلام، بل طهّره الله عز وجل من ذلك، لئلا يترك مجالاً للشك أو الريبة والحمد لله، كما هو ثابت علماً وروايةً ودرايةً، أما ما يقوله المغرضون والمبطلون أمثال المستشرق اليهودي (مرجليوث): أن والده مجهول لأن لفظة عبد الله معناها على زعمه، الشخص المجهول، وهذا ما يكذبه الواقع المعلوم بالضرورة، ونسبه المحفوظ عند المسلمين في الصدور لا في السطور. ومرجليوث لا يعرف اللغة العربية، ولا يفرق بين المعرفة والنكرة، غير أن حقده الأسود حمله على ما قاله، فدليله واهٍ، وحجته باطلة مدحوضة علماً ونقلاً، ونسبه ﷺ محفوظ بحمد الله حتى تقوم الساعة ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المشركون.

٣ ــ عبد المطلب وأعماله

عبد المطلب بن هاشم اسمه الأصلي (شيبة) سمته أمه شيبة لوجود شعرات بيض في رأسه، وأمه سلمى بنت عمرو الخزرجية من يثرب! عاشَ مع أمه عند أخواله في المدينة المنورة بعد وفاة أبيه هاشم، وشبَّ بين غلمان المدينة بني النجار، فكان يشاركهم مرحهم وألعابهم، وكان في طفولته مهاباً قوي الشخصية، وكانت أمه سلمى تذكّرهُ دائماً بنسبه إلى أبيه هاشم زعيم قريش وكريمها المفضال؛ يُذكر أنه وقعت مجاعة شديدة في قريش، بسبب جدب شديد حصل لهم، فخرج هاشم إلى الشام فاشترى دقيقاً وكعكاً، وقدم به مكة في الموسم، فهشم الخبز والكعك، ونحر جُزُراً[2]، وجعل ذلك ثريداً، وأطعم الناس حتى أشبعهم فسمي بذلك (هاشماً) وكان يقال له: (أبو البطحاء) و (سيد البطحاء)[3] وكان اسمه عمرو، ولم تزل مائدته منصوبة في السراء

(١) في الأصل (سادة قادة) بنصب الكلمتين. والصواب رفعها. المحقق.

(٢) الجزر: جمع مفرده الجزور من الإبل ويقع على الذكر والأنثى.

(٣) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٨. ٥٨٠ ـ

والـضـراء، وكـان مـوسـراً، يـؤدي الحـقّ، ويـؤمـن الخـائـف؛ وهـو أول مـن سـنّ الـرحـلـتين لـقـريـش، رحـلـة الـشـتـاء، ورحلة الصيف، فكان يرحل في الشتاء إلى اليمن وإلى الحبشة، وفي الصيف إلى الشام، ونزل ذلك في القرآن بقوله: (لإيلاف قريش، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا ربَّ هذا البيت، الذي أطعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوف). وقال الشاعر في ذلك:

عـمـرو الـذي هـشـم الـثـريـد لقومه ورجـال مـكـة مـسـنـتونَ عـجـاف
سُـنَّـتْ إلـيـه الـرحـلـتانِ كلاهما [1] سـفـر الـشـتـاء وبـعـده [2] الإصياف

ومات هاشم بغزة من أرض الشام ــ فلسطين ــ تاجراً [3].

كانت أم عبد المطلب سلمى، تذكره دائماً بأبيه هاشم.

سمع رجل من بني الحارث يوماً وهو في المدينة المنورة، مقالة عبد المطلب وهو يقول: أنا ابن هاشم، أنا ابن سيد البطحاء، فنقلها [4] لعم عبد المطلب واسمه المطلب بمكة، فأقسم المطلب ألا يعود إلى داره حتى يأتي بابن أخيه شيبة، وقد قدّم له الحارثي ناقته، فامتطاها المطلب، ورحل عليها إلى يثرب وهناك اجتمع بابن أخيه شيبة، واستأذن أمه وعاد به إلى مكة، وسأله الناس عن الغلام؟ فأجاب: عبدٌ لي، وهو يكتم أمره، ثم أخذه إلى بيته، وعهد به إلى زوجته خديجة بنت سعيد بن سهم، وزعم لها: أن شيبة من عبيده، دون أن يفضي لها بالحقيقة، زيادة في الكتمان، ثم خرج المطلب للسوق، واشترى حلةً زاهيةً لشيبة، ولما لبسها شيبة وخرج مع عمه، رآه الناس قالوا عن الغلام هذا عبد المطلب [5]، فذهبت هذه الكلمة اسماً له، وقد عرف بها في مكة. أصبح عبد المطلب يعيش في مكة بعيداً عن أمه، غير أن عمه المطلب وبني هاشم عوّضوه

---

(١) الأولى (كلتاهما) لكن وزن البيت يقتضي (كلاهما) وهو جائز أيضاً. المحقق.

(٢) في الأصل (ورحلة) بدل (وبعده). وتصرفنا هذا التصرف محافظة على رفع كلمة (الإصياف) لتوافق كلمة (عجاف). المحقق.

(٣) أنظر كتاب (محمد رسول الله) للعلامة محمد رضا ص ٥.

(٤) في الأصل نقلها. والصواب ما أثبتناه. المحقق.

(٥) أنظر كتاب (مكة أم القرى) لفؤاد علي رضا ص ١٨٥.

عما افتقده من عطف وحنان، وأصبح عبد المطلب يجمع بين فطنة أهل مكة ومهارتهم في المجال الاقتصادي، وتفوقهم في التجارة، وبين سجايا أهل يثرب (المدينة المنورة)، في دماثة الخلق، وهدوء الطبع وسماحة النفس.

وكان مجلس عبد المطلب معظم يومه، إلى جوار الكعبة مع بني هاشم حجّاب الكعبة وسدنتها؛ وكان هذا المجلس هو المدرسة التي تلقّن فيها عبد المطلب تعليمه وثقافته، فلقد كانت مكة تزخر بالحجاج والتجار القادمين إليها من جميع أرجاء العالم يومئذٍ.

وكان عبد المطلب يجيد القراءة والكتابة والحساب، وقد شبَّ على معالي الأمور، لذا كان ناضج العقل، راجح الفكر، فهو من أتم الناس عقلاً وأرجحهم بياناً، وأقواهم حجةً، وأفصحهم لساناً، وأوفرهم فهماً.

وكان عبد المطلب يحرّم الزنا، ويكره شرب الخمر، وينهى عن الاعتداء والظلم والقتل. وكانت قريش تشجع العرب على الحج إلى الكعبة، وإلى إنصاف المظلوم، ونشر العدل، وتعمل جاهدة على توفير الماء والطعام للحجاج والقادمين لمكة. وكانت السقاية والرفادة من أبرز المناصب التي تولاّها عبد المطلب، أما السقاية: فتعني سقاية الحاج، والرفادة: توفير الطعام لهم وكان يشق على عبد المطلب أحياناً تأمين الماء لضيوف الكعبة. وكانت العرب تذكر دائماً زمزم، منذ أن طمَّها [1] مضاض بن عمرو الجرهمي منذ قرون خلتْ تقدّر بثلاثمائة سنة، وتتمنّى لو أنها كانت لا تزال باقيةً؛ وكان عبد المطلب يفكّر فيها دائماً، ويتمنى أن يتعرف عليها، وقد يلحُّ به الرجاء أن لو هُدي إليها، حتى أنه كان يهتف به الهاتف أثناء نومه لراحته يحضّه على أن يحفر زمزم التي تفجرت تحت أقدام جده إسماعيل عليه السلام. إن مضاض بن عمرو الجرهمي قد اشتبك في حرب مع خزاعة، وكانت خزاعة من ألدّ أعدائه، وقد انتهت الحرب بينه وبين خزاعة بهزيمته، أدرك مضاض أن أعداءه لن يلبثوا أن يخرجوه من مكة، ورأى أن يحرمهم من مورد المياه الرئيسي في مكة، فأخفى في بئر زمزم

---

(١) يقال للشيء الذي يكثر حتى يعلو (قد طمّ) وجاء السيل فطمَّ كلّ شيء أي: علاه. لسان العرب. المحقق.

بعض نفائسه وذهبه ثم ردمها، وأخفى علاماتها، وساعدته الطبيعة على إحكام إخفائها، فتكاثرت الرمال عليها حتى اندثرت، وهرب مضاض إلى بلاد اليمن، واضطر أهل مكة إلى حفر الآبار، إذ أنهم حُرموا من المياه الجوفية ومن الأنهار والمياه المتدفقة.

لذا نهض كل بطنٍ من بطون مكة من قريش لحفر آبارٍ، كلٌّ في رباعه، فحفر بنو تميم بن مرة بئر (الجفر) وحفر عبد شمس بن عبدٍ مناف (الطُّوى) وحفر هاشم بن عبد مناف (بدر) وأباح للناس الاستفادة منها، وحفر هاشم أيضاً بئر (سجلة) وحفر أمية بن عبد شمسٍ بئر (الحفر) كما حفرت بنو عبد الدار بئر (أم أجراد) وحفرت بنو جمح بئر (السنبلة) وحفرت بنو سهم بئر (الغمر).

ومن أجل ذلك جدَّ واجتهد عبد المطلب في البحث عن زمزم، والعثور عليها. وفي ذات يوم يرى وهو نائمٌ في الحجر رؤيا، كما نقلها المؤرخ ابن هشام عن ابن إسحاق.

(قال عبد المطلب: إني لنائمٌ في الحجر ــ فناء الكعبة ــ إذ أتاني آتٍ فقال: احفر طيبة[1]، قلتُ: وما طيبة؟ قال: ثم ذهب عني).

(فلما كان الغد، رجعتُ إلى مضجعي، فنمتُ فيه، فجاءني فقال: احفر بَرَّة[2]، قال: فقلت: وما برة؟ قال: ثم ذهب عني).

فلما كان الغد، رجعتُ إلى مضجعي فنمتُ فيه، فجاءني فقال: احفر المضنونة[3] قلت: وما المضنونة؟ قال: ثم ذهب عني؛ فلما كان الغد، رجعتُ إلى مضجعي فنمتُ فيه، فجاءني فقال: احفر زمزم، قال: قلتُ: وما زمزم؟ قال: لا تنزف أبداً[4]، ولا تذم[5]، تسقي الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث

---

(١) قيل لزمزم طيبة، لأنها للطيبين والطيبات من ولد إبراهيم عليه السلام.
(٢) لأنها تفيض على الأبرار.
(٣) لأنها تضن على غير المؤمنين.
(٤) لا تفرغ ولا تنضب.
(٥) لا يقل ماؤها.

والدم، عند نقرة الغراب الأعصم، عند قرية النمل[1].

حددت الرؤيا هذه، لعبد المطلب المكان الذي إذا حفر فيه كشف عن بئر زمزم، العين التي تدفقت في عهد جده الأكبر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، والتي أصبحت مكة في أشد الحاجة لإحيائها من جديد.

وكان هذا المكان الذي حدّده الهاتف يقع بين الوثنين (إساف ونائلة) وبقي على عبد المطلب، أن يلبي نداء الهاتف.

يروي ابن هشام[2]: أن عبد المطلب، خرج للبحث عن مكان بئر زمزم، وأنه لم يصحب معه للقيام بهذا العمل الشاق، غير ابنه الحارث، وليس له يومئذ سواه[3].

خرج عبد المطلب وابنه الحارث، وقد حملا معولاً ومكتلاً من خوص، ومسحاة ــ مجرفة ــ وقصدا من فورهما إلى المكان الذي حدّده الهاتف، فوجدا قرية النمل، ووجدا الغراب ينقر عندها بين الوثنين أساف ونائلة، اللذين كانت قريش تنحر عندهما.

فشرعا في الحفر، وحدث ما لم يكن في الحسبان، فقد رآهما بعضُ القرشيين يحفران الأرض بين وثنيهم المقدسين (إساف ونائلة) وظنوا أنهما يريدان انتهاكَ حرمة هذين الوثنين، ولم يدركوا حقيقة الدافع لعبد المطلب وولده الحارث على الحفر، فقالوا لعبد المطلب: والله! لا نتركك تحفر بين وثنينا هذين، اللذين ننحر عندهما، فقال عبد المطلب لابنه الحارث: ذُدْ عني حتى أحفر، فوالله! لأمضينَّ لما أمرتُ به.

ولما رأوا إصراره على المضي فيما بدأ فيه، خلّوا بينه وبين الحفر، وكفُّوا عنه. ومضى عبد المطلب في الحفر، وإذا به يجد ما لم يكن يتوقعه، فقد عثر على

---

(١) أنظر سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٤٣.

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٤٣.

(٣) وقد صور الأديب الدكتور طه حسين في كتابه (على هامش السيرة) رؤيا عبد المطلب في صورة رائعة جداً.

غزالين[1] من ذهب، كما وجد أسيافاً وأدرعاً ثمينةً؛ وهذه النفائس كانت لمضاض الجرهمي، كان قد طمرها في بئر زمزم قبل هربه من وجه أعدائه إلى اليمن، حتى لا يعثروا عليها، وكان قد عجز أن يحملها معه إلى اليمن ــ صنعاء ــ منفاه، ثم تراكمت الرمال مع مرور السنين ــ كما أسلفنا ــ. ولكن عثور عبد المطلب على هذه النفائس قد خلق له إشكالاً لم يكن في الحسبان، فقد نازعه القرشيون فيما وجد، وقالوا له: لنا معك في هذا شراكة وحق، قال: لا، ولكن هلمَّ إلى أمرٍ نَصَف بيني وبينكم، نضرب عليها بالقداح قالوا: كيف تصنع؟ قال: أجعل للكعبةً قدحين، ولكم قدحين، ولي قدحين، فمن خرج قدحاه على شيء كان له، ومن تخلَّف قدحاه فلا شيء له فارتضوا رأيه؛ ثم أعطوا القداح صاحب القداح الذي يضرب بها عند هُبَل ــ اسم كبير الأصنام ــ في جوف الكعبة، فتخلَّف قدحا قريش، وخرجت الأسياف لعبد المطلب، والغزالتان للكعبة، فضرب عبد المطلب الأسياف باباً للكعبة، وضرب في الباب غزالتي الذهب حليةً للبيت الحرام، وأقام عبد المطلب في سقاية الحاجِّ بعد أن يسَّرتها زمزم له[2].

وأحسَّ عبد المطلب قلة حوله في قومه لقلَّة أولاده، فنذر إن وُلِد له عشرة بنين، ثم بلغوا معه أن يمنعوه من مثل ما لقي حين حفر زمزم، لينحرنَّ أحدهم لله عند الكعبة؛ وتوافى بنوه عشرة، أنس فيهم المقدرة على أن يمنعوه فدعاهم إلى الوفاء بنذره فأطاعوا؛ وفي سبيل هذا الوفاء، كتب كل واحدٍ من الأبناء اسمه على قِدْحٍ، وأخذها عبد المطلب، وذهب بها إلى صاحب القداح عند هُبَل في جوف الكعبة؛ وكانت العرب كلما اشتدت بها الْحَيْرَةُ في أمرٍ، لجأت إلى صاحب القداح، كي يستفتي لها كبير الآلهة الأصنام عن طريق القداح؛ وكان عبد الله بن عبد المطلب أصغر أبنائه وأحبهم إليه، فلما ضرب صاحب القداح، القداح التي عليها أسماء هؤلاء الأبناء، خرج القدح على عبد الله؛ فأخذ عبد المطلب ابنه بيده، وذهب به ينحره، حيث كانت العرب تنحر عند زمزم بين

---

(١) وهما الغزالان اللذان دفنتها (جرهم) في بئر زمزم حين خرجت من مكة. كما قال ابن هشام. المحقق.

(٢) أنظر كتاب (حياة محمد ﷺ) للعلامة محمد حسن هيكل ص ٩٨.

إساف ونائلة؛ إذ ذاك قامت قريشٌ **كلها من أنديتها، تُهيب** به أن لا يفعل، وأن يلتمس عن عدم ذبحه عند **هُبَل عذراً؛ وتردّد عبد المطلب** لدى إلحاحهم وسألهم ما عساه يفعل لترضّى الآلهة؟

قال المغيرة بن عبد الله المخزوميّ: **إن كان فداؤه بأموالنا** فديناه. وتشاور القوم، واستقرَّ رأيهم على الذهاب **إلى عرّافةٍ بيثرب، لها في** مثل هذه الأمور رأيٌ؛ وجاءوا العرافة، فاستمهلتهم **إلى الغد، ثم قالت لهم**: كم الدِّيَةُ[1] فيكم؟ قالوا: عشراً من الإبل، قالت: **فارجعوا إلى بلادكم**، ثم تقرَّبُوا[2] وقرّبُوا عشراً من الإبل، ثم اضربوا **عليه وعليها بالقداح، فإن** خرجت على صاحبكم، فزيدوا من الإبل، **حتى يرضى ربكم، وفعلوا**، وجعلت القداح تخرج على عبد الله، فيزيدون **في الإبل حتى بلغت مائةً**، عند ذلك خرجت القداح على الإبل، فقالت قريشٌ **لعبد المطلب، وكان أثناء** ذلك كله، واقفاً يدعو ربه: قد رضي ربك يا عبد **المطلب! قال عبد المطلب**: لا والله! حتى أضرب عليها ثلاث مرات، **وفي المرات الثلاث، خرجت** القداح على الإبل، فاطمأنَّ عبد المطلب إلى رضا ربه، **ونحرت الإبل، ثم تُركتْ**، لا يصدُّ عنها إنسان ولا سبع. يروي الطبري **في تاريخه استدلالاً على قصة** الفداء هذه، أن امرأةً من المسلمين نذرت إن فعلت **كذا، لتنحرنَّ ابنها، وفعلت** ذلك الأمر، ثم ذهبت إلى عبد الله بن عمر، **فلم يرَ في فُتياها شيئاً، فذهبت** إلى عبد الله بن العباس رضي الله عنهما، **فأفتاها بأن تنحر مائةً من الإبل**، كما كان الأمر في فداء عبد الله بن عبد المطلب، **فلما عرف ذلك مروان والي المدينة**، أنكره وقال: لا نذر في معصية[3].

مرَّ عبد المطلب خلال **حفر زمزم بتجربة خطيرة**، وقد استعاد الأحداث التي مر بها، فتذكَّر كيف **كان ولده الوحيد هو الحارث**، يعاني من الحفر، وهو لا يزال حَدَثاً، وتذكّر **موقف القرشيين منه، وكيف** تجرأوا عليه، فطلبوا أن

---

(١) في الأصل (الدية) بالنصب. **والصواب الرفع لأنها** مبتدأ مؤخر. المحقق.

(٢) في سيرة ابن هشام (ثم قربوا صاحبكم، **وقربوا عشراً** الخ). المحقق.

(٣) قال رسول الله ﷺ: «**لا نذر في معصية، وكفارته كفارة يمين**» رواه أحمد بن حنبل في مسنده عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

يشاركوه فيما عثر عليه من نفائس، شعر عبد المطلب بضعفه، وقلة أهله، وتحركت في نفسه رغبة جديدة هي الإكثار من النسل؛ تقدّم عبد المطلب إلى عمرو[1] بن عائذ المخزومي فخطب إليه ابنته فاطمة، فبنى بها، ورزقه الله منها ما شاء من الأولاد.

كبرت أسرة عبد المطلب منذ صار له من الأولاد الذكور عشرة: الحارث، والزبير، وحجل، وضرار، والمقوّم، وأبو لهب، والعباس، وحمزة، وأبو طالب، وعبد الله، ومن البنات[2]: صفية، وبرة، وعاتكة، وأم حكيم، وأحيحة، وأروى[3].

ولكن الأيام لم تصف لعبد المطلب، وحالكات الليالي تأتي بالمحن والمزعجات. فقد بلغه أن أبرهة سيغزُو مكة ويهدمُ بيتَها، وذلك أن أبرهة خرج على رأس الجيش الحبشي البالغ سبعين ألفاً، قاصداً مكة، وقد امتطى ظهر فيل كبير يدعى (محمود)، وسارت خلفه عدة أفيال على عادة الأحباش، ولم يكن طريق أبرهة إلى مكة سهلاً ميسوراً، فقد قابلته عقبات وصعوبات، كان أولها اعتراض رجلٍ من أشراف اليمن، يقال له (ذو نفر). فقد استنفر هذا قومه، ومن أجابه[4] من غيرهم من العرب، لمقاتلة أبرهة، وصدِّهِ[5] عما يريد، ومن هدم بيت الله؛ وكان ذُو نفر حليفاً لقبيلة قريش، ولكنه لم يستطع الصمود طويلاً، أمام جيش أبرهة الكثيف العدد، الزاخر بالسلاح والفيلة، فلحقت به الهزيمة، ووقع في أيدي الأحباش أسيراً، وأراد أبرهة أن يقتله، فاستعطفه ذو نفر وقال: أيها الملك! لا تقتلني فإنه عسى أن يكون بقائي معك، خيراً لك من قتلي؛ فعفا أبرهة عنه، وحبسه عنده في وثاق[6].

---

(١) في الأصل (عمر) بدل (عمرو) والتصحيح من ابن هشام. المحقق.

(٢) كان الأولى أن يقول (ومن البنات ست) لا (ستة). المحقق.

(٣) أنظر كتاب مكة أم القرى ص ٢١٤.

(٤) في الأصل (ومن أجاب من أجابهم). والصواب ما أثبتناه. المحقق.

(٥) ضبطها المؤلف بالفتح والصواب ما أثبتناه لأنها معطوفة على مجرور. المحقق.

(٦) كما جاء في سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٤٦.

بلغ جيش أبرهة تهامة اليمن، فخرج قوم من أهلها اشتهروا بالبأس والشجاعة، وهم بنُو خثعم، بقيادة زعيمهم (نفيل بن حبيب الخثعمي) وكان جيشه يتألف من جميع بطون خثعم وأشهرها (شهران وناهس)، وقد استبسل بنو خثعم في القتال، ولكن أبرهة نجح أخيراً في هزيمتهم، وأسر رئيسهم نفيل، وأراد قتله، وربما كان نفيل محباً للحياة؛ فقد استعطف أبرهة وطلب عفوه عنه، فقال: أيها الملك! لا تقتلني فإني دليلكَ بأرض العرب، وهاتان يداي لك على قبيلتي خثعم ــشهران وناعســ بالسمع والطاعة[1]، وعفا أبرهة عنه، وتقدم نفيلٌ ليدلّ الأحباش إلى الطريق، الذي يقودهم إلى مكة.

مضى الجيش الحبشي في طريقه، حتى بلغ مدينة الطائف، أجل مدن الحجاز وأخصبها، فخرجت إليه قبيلة ثقيف، بزعامة (مسعود بن معتب) يعلنون لأبرهة ولاءهم وميلهم إلى السلام، وغالوا في استعطاف أبرهة، فقالوا: أيها الملك! إنما نحن عبيدك، سامعون مطيعون، ليس عندنا لك خلاف، وليس بيتنا هذا البيت الذي تريد ــيعْنُونَ بيتَ اللاتــ إنما تريد البيت الذي بمكة، ونحن نبعث معك من يدلك عليه[2].

وكان هذا الدليل هو (أبو رغال) الذي قادهم إلى المغمس على مشارف مكة ــ هو وادي محسّر بين منى والمزدلفة ــ وهناك وافت المنية أبا رغال، وسخط العرب على أبي رغال هذا، فاعتادوا رجم قبره[3].

نزل أبرهة المغمس، وبعث بفريق من جنده، وقد استولى على كثير من أموال قريش ومتاعها، ومنها مائتا بعير لعبد المطلب بن هاشم زعيم قريش، وهمت قريش وكنانة وهذيل، ومن كان بالحرم من سائر الناس قتال الأحباش، فرأوا أنه لا طاقة لهم بهم.

ثم بعث أبرهة رسولاً يدعى (حناطة الحميري) وقال له: سل عن سيد هذا البلد، ثم قل له: إن الملك يقول لكم إني لم آتِ لحربكم، وإنما جئت لهدم

---

(١) أنظر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٤٦.

(٢) عن المصدر السابق ج ٢ ص ٤٧.

(٣) أنظر كتاب أم القرى مكة المكرمة ص ٢٢٣.

البيت، فإن لم تعرضوا[1] دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم، فإن لم يرد حربي، فأتني به ونقل حناطةُ الحديث إلى عبد المطلب، فأجاب عبد المطلب: والله، ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله، وبيت خليله إبراهيم؛ فطلب حناطة من عبد المطلب أن يصحبه للقاء أبرهة.

انطلق عبد المطلب مع حناطة، يصحبه بعض أبنائه حتى بلغ معسكر أبرهة، وقام ترجمان يجيد لغتي العرب والأحباش بالترجمة، فسأل الترجمان عبد المطلب عن حاجته، فأجاب: حاجتي إلى الملك أن يردَّ عليَّ إبلي ـــ مائتي بعير ـــ أصابها لي؛ وتعجب أبرهة من مقال عبد المطلب، وقال للترجمان: قل له: كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم زهدتُ فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير قد أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك، قد جئتُ لهدمه لا تكلمني فيه؟. فأجاب عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت رباً سيمنعه. فقال أبرهة: ما كان ليمتنع عني، فقال عبد المطلب: أنت وذاك. عرض عبد المطلب على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن مكة ولا يهدم البيت، فأبى أبرهة إلا أن يمضي في تنفيذ ما قدم من أجله. وعاد عبد المطلب وهو ينشد:

يا أهل مكة قد وافاكم ملك ... مع الفيول على أنيابها الزَّردُ
هذا النجاشيُّ قد سارت كتائبُه ... مع الليوث عليها البيضُ تتَّقِدُ
يريد كعبتكم والله مانعه ... كمنع تُبَّع لما جاءها حردُ

وأمر عبد المطلب قريشاً أن تلحق ببطون الأودية، ورؤوس الجبال، وقدَّم الإبل التي استردَّها من أبرهة هدايا للكعبة، ووقف بباب الكعبة وهو يقول[2]:

يا رب لا أرجو لهم سواكا ... يا رب فامنع منهم حماكا
إن عدو البيت من عاداكا ... فامنعهم أن يُخربوا قراكا

---

(١) بسيرة ابن هشام طبع دار الجيل بيروت جـ ١ ص ٤٣ (تتعرضوا) بتاءين. المحقق.
(٢) أنظر المسعودي: مروج الذهب ج ٢ ص ١٢٨.

أخفقت المفاوضات بين أبرهة وعبد المطلب، وأصبح السلام مستحيلاً، وبقي تحكيم السيف؛ واستعدَّ أبرهة لدخول مكة وهدم الكعبة؛ وبدأ الجيشُ الحبشيُّ الرحيلَ.

برك الفيلُ، فكان إذا دنا منه ساستُه لينهضوهُ نهضَ معهم، حتى إذا وجهوه إلى مكة برك من جديد، ويجدُّ ساسته بعد ذلك في إنهاضه فلا ينالون منه شيئاً، ويحثُّونه ويؤذونه ويضربونه ويبلغون به أقصى ما يهيج الفيل، فلا ينهض، حتى إذا أداروا رأسه نحو الشام، أو نحو اليمن، أو نحو الشرق نهض ومضى مهرولاً، فإذا أداروا رأسه نحو مكة برك، ولم يتقدم [1].

ثم جاءت خاتمة المأساة، ويروي المؤرخون القدامى: أن الله قد أرسل من البحر أمثال الخطاطيف، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها، حجراً في منقاره، وحجرين في رجليه، أمثال الحمص والعدس، لا تصيب أحداً منهم إلا هلك [2].

وخلَّد القرآن الكريم هذا الحدث التاريخي الكبير، فنزلت سورة كاملة فيه وهي قوله تعالى: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم، ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارةٍ من سجيل، فجعلهم كعصفٍ مأكول ﴾.

هلك معظم جند أبرهة، ونجَتْ القلةُ القليلةُ، وممن نجا أنيسُ سائس الفيل محمود وخادمه، وقد لجآ إلى مكة، وعاشا بها إلى أن شاخا وعميا، ورأتهما السيدة عائشة أم المؤمنين، يتسوّلان في شوارع مكة؛ أما أبرهة فد مسَّه حجرٌ فصرع، وظهر على جسمه بلاء عظيم، وأخذت أجزاء جسمه تتساقط حتى مات. وكانت نتائج هذا الغزو والاعتداء على بيت الله الحرام، أن زاد في مكانة مكة وأهلها وحرمها، وزال عن قلب عبد المطلب ما أهمّه وأزعجه وعادت لمكة الحياة الهادئة الوادعة، وأخذت العرب تتحدث في كل مكان

---

(١) أنظر كتاب (على هامش السيرة) لطه حسين ص ١٤٦.

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٥٣.

وتقول: الله قاتل عنهم وكفاهم مؤونة عدوهم، وقد تغنّى الشعراء بهذا الحادث العظيم.

كان إخفاق أبرهة حادثة تاريخية، وفاتحة خير على العرب عامةً وقريش خاصةً، حتى إنهم أصبحوا يؤرخون به حوادثهم؛ فقد مهدت السبيل، لقبول الدعوة الإسلامية، والقيام بنصرتها، ونشر دين التوحيد للحنيفية.

وقد ولد الحبيب الأعظم والرسول الأكرم سيدنا محمد ﷺ في عام الفيل، سنة (٥٧٠)م.

وهنا أذكر للسادة القراء زواج عبد الله بعد حادث الفيل.

٤ ــ زواج عبد الله بن عبد المطلب بآمنة

عبد الله بن عبد المطلب المولود سنة (٥٤٥)م في مكة المكرمة، كان شاباً وسيماً قوياً، وكان والده عبد المطلب يحبه كثيراً، وقد جاوز السبعين أو ناهزها، حين حاول أبرهة مهاجمة مكة، وهدم البيت العتيق، وكان عبد الله في الرابعة والعشرين من سنه فرأى والده عبد المطلب أنْ يزوّجه، فاختار له آمنة بنت وهب ابن عبد مناف بن زُهرة سيّد بني زهرة إذ ذاك خلقاً وشرفاً، وخرج به حتى أتى منازل بني زُهرة، ودخل وإياه عند وَهبٍ، وخطب إليه ابنته.

وفي اليوم الذي تزوَّج عبد الله فيه من آمنة، تزوَّج عبد المطلب من ابنة عمها هالة، فأولدها حمزة، عم النبي ﷺ وضريبه في سنه عليه الصلاة والسلام.

وأقام عبد الله مع آمنة في بيت أهلها ثلاثة أيام، على عادة العرب حين يتمُّ الزواج في بيت العروس؛ فلما انتقل وإياها إلى منازل بني عبد المطلب لم يُقم معها طويلاً، إذ خرج في تجارة إلى الشام، وتركها حاملاً، ومكث عبد الله في رحلته هذه الأشهر التي يقتضيها الذهاب إلى غزّة، والعود منها؛ ثم عرَّج على أخواله بني النجار بالمدينة المنورة يستريح عندهم من وعثاء السفر، ليقوم بعد ذلك في قافلة إلى مكة، لكنه مرض عند أخواله، فتركه رفاقه؛ حتى

إذا بلغوا مكة، أخبروا والده عبد المطلب بمرضه؛ ولم يلبث عبد المطلب حين سمع منهم، أن أوفد الحارث أكبر بنيه إلى المدينة المنورة ليعود بأخيه بعد إبلائه وشفائه.

علم الحارث حين بلغ المدينة المنورة، أن عبد الله مات، ودفن بها بعد شهر من مسير القافلة إلى مكة؛ فرجع أدراجه ينعي أخاه إلى أهله، و يثير من قلب أبيه عبد المطلب، ومن قلب آمنة هماً وشجناً، لفقد زوج كانت آمنة ترجو في حياته هناءةً وسعادةً، وكان عبد المطلب عليه حريصاً، حتى افتداه من آلهته فداء ــ كما مر سابقاً ــ لم تسمع العرب من قبلُ بمثله.

وترك عبد الله من بعده، خمسةً من الإبل، وقطيعاً من الغنم، وجارية هي (أم أيمن) حاضنة النبي ﷺ من بعد[1].

وتقدمت بآمنة أشهر الحمل، حتى وضعت كما تضع كل أنثى.

٥ ــ مولد حبيب الله ومصطفاه (ﷺ)

رأت آمنةُ في منامها، ليلة عرسها، كأن شعاعاً من نور، يشعُّ في كيانها، فيضيء الدنيا من حولها، وسمعت هاتفاً يبشرها بأعظم ولد. استيقظت وأخذت تفكر في رؤياها، وكأنها عرفت سرَّ الذي كان من أمر زوجها عبد الله، وأنه لم يفتد من الذبح عبثاً؛ لقد كانت مهلة يقضي الله فيها بأمره، ليودع آمنة هذا الجنين، ومن تلك اللحظة أنزل الله سكينةً على قلب آمنة، وهواتف البُشْرَى تلـمُّ بها حتى إذا أوشك حملُها أن يتمَّ، روَّعَتْ كما رُوِّعَ أهلُ مكة، وسكان أم القرى، بدعوى أبرهة، الذي يريد هدم البيت الحرام.

وقد يكون قد جال في خاطرها، أنها ستلد حملها بعيداً عن الكعبة، فخافت وعزَّ عليها ذلك، لكنها استردت ثقتها في أحلامها عندما رأتْ طيراً أبابيل، ترمي الأحياش بحجارة من سجيل، فجعلتهم كعصفٍ مأكول.

---

(١) أنظر كتاب (حياة محمد) ص ١٠٦.

أخذت أطياف الرؤى تؤنسها، وجاءها المخاضُ في وقت السحر فأرهف حسَّها بالترقب والتطلع، وشعرت برهبة التجربة التي طالما سمعت عن آلامها ومخاطرها، لكنها ما لبثت أن صرفت خاطرها كله، إلى ما يغمر الدنيا نوراً وهداية ومحبة، وصرفت حواسَّها وسمعها إلى هواتف البشرى.

وما كاد نور الفجر، يهلُّ على الأفق، حتى وضعت وليدها، كما تضع كل أنثى من البشر، وتألفت دنياها نوراً وأنساً، وهي ترنو إلى وليدها المبارك؛ وتذكر به الحبيب الذي أودعها إياه، ثم رحل؛ وكانت مكة حين ذاعت فيها بُشرى مولد ابن عبد الله، ما تزال تحتفل بما أتاح الله لها من نصر على أصحاب الفيل، من حيث لا تحتسب؛ فرأى القوم في ولادة سيد الوجود، ورسول كل والدٍ ومولود، آيةً أخرى، يوم أن اختير أبوه قرباناً لله رب الكعبة، ثم افتديَ بمائة رأسٍ من الإبل. أقول: ولا أكون مغالياً، إن الله اصطفى مع الزمان أم القرى مكة، وبنى عندها ما اصطفى لنفسه بيتاً، ثم اصطفى لنا مع الزمان ليلة الثاني عشر من شهر ربيع الأول موعد مولد المصطفى ﷺ، ليكون ربيعاً للإنسانية، ورسولاً للبشرية، هادياً مهدياً، رحمة العالمين.

يقول الإمام أبو نعيم الحافظ: فقد حملت به آمنةُ، ولم تجد له وحماً ولا ثقلاً، ولما حضرت ولادتها، تفتحت أبواب السماء، وحضرتها الحور العين لرؤية بدر محياه، ورأت رجالاً وقفوا في الهواء، وبأيديهم الأباريق الفضية، ورأت قطعةً من الطير غطّت حجرتها، مناقيرها من الزمرد، وأجنحتها من الياقوت، تنتظر إشراق سناه، ورأت ثلاثة أعلام: علماً بالمشرق، وعلماً بالمغرب، وعلماً على ظهر الكعبة، ولما أخذها المخاض، فوضعته ﷺ، جاء ساجداً، قد رفع، إصبعه إلى السماء كالمبتهل توحيداً، وأشرقت حجرتها بالنور[1].

ومن عجائب ولادته ﷺ، ارتجاج إيوان كسرى، وسقوط أربع عشرة شرفة من شرفاته، كما خمدت نار فارس المجوسية، وتنكست الأصنام، وغاضت بحيرة ساوة — أي يبست وزال ماؤها — وإلى ذلك، أشار صاحب الهمزية بقوله:

---

(١) أنظر كتاب (أم القرى مكة المكرمة) ص ٢٤٠ للعلامة فؤاد علي رضا.

وتداعى إيوان كسرى ولولا آية منك ما تداعى البناء
وغدا كلُّ بيتِ نارٍ وفيه كربة من خودها وبلاء
وعيون للفرس غارت فهل كا ن لنيرانهم بها إطفاء[1]

ولد ﷺ بدار التبابعة بمكة، وهي الآن مكتبة عامة علمية وقد زرتها وقرأت اللائحة عليها (مكتبة مكة) بجوار البيت الحرام شرقاً؛ وكان مولده على يد قابلته (الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف) رضي الله عنه، قالت الشفاء: لما ولدت آمنة رسول الله ﷺ وقع على يدي، وبعثت آمنة إلى جده عبد المطلب، تبشره بمولد حفيد له وكان عبد المطلب فرحاً بما حدث لأبرهة في عهده، وقد ازداد[2] سروراً بهذه البشرى، وذهب تواً للبيت الحرام وهو يحمد الله، وهرع راجعاً إلى آمنة، وحمل الغلام وأخذه وطاف به، ثم قام يدعو الله ويشكره على ما أعطاه، ثم عاد به إلى أمه، فدفعه إليها.

وذهب جمهور العلماء إلى[3] أنه ﷺ وُلد يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول بمكة المكرمة، «ويوافق رأي الجمهور إلى ما ذهب إسحاق إليه وغيره»[4] عام الفيل عام ٥٧٠م.

وفي يوم ولادته ﷺ، أمر جده عبد المطلب بجزور فنُحرتْ ودعا رجلاً من قريش، وطَعِمُوا[5]، فلما علموا منه أنه سماه محمَّداً، سألوه: لِمَ رغب عن أسماء آبائه؟ فقال: أردتُ أن يكون محموداً من السماء لله، وفي الأرض لخلقه.

وثبت أنه ﷺ قال: «أنا من نكاح لا من سفاح». وقال: «لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات». وفي رواية: «لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الحسيبة إلى الأرحام الطاهرة».

---

(١) أنظر كتاب (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون) ج ١ ص ١١٩.
(٢) (ازداد) في الأصل (زاده). والصواب ما أثبتناه. المحقق.
(٣) (إلى) في الأصل (على) والصواب ما أثبتناه. المحقق.
(٤) لعل صواب العبارة هو (ويوافق رأي الجمهور إلى ما ذهب إليه إسحاق وغيره). وهي جملة اعتراضية. المحقق.
(٥) في الأصل (وطُعموا) بضم الطاء. والصواب فتحها كما أثبتناه. المحقق.

وقد أشار صاحب الهمزية لذلك بقوله:

لم تـزل في ضـمـائـر الـكـون تختـا ... رُ لـلـك الأمـهـاتُ والآبـاء[1]

٦ ــ رضاعه

انتظرت آمنة مجيء المراضع من بني سعد، لتدفع به إلى إحداهنَّ، كعادة أشراف العرب من أهل مكة، ولا تزال هذه العادةُ متبعةً عندهم إذ يبعثون أبناءهم إلى البادية في اليوم الثامن من مولدهم، رغبة منهم، ليكون[2] أنجب للولد، وأقوى لنمو بدنه، وصفاء روحه، وكانوا يقولون: إن المربّى في المدن يكون كليل الذهن، فاتر العزيمة، بليد الحسّ. ومن قبائل البادية من لها في المراضع شهرة، ومن بينها قبيلة بني سعد. وفي مدة انتظار المراضع، دفعت آمنةُ بالطفل إلى ثويبة جارية عمه أبي لهب، فأرضعته زمناً، كما أرضعت ثويبة من بعده عمه حمزة، فكانا أخوين في الرضاع.

ومع أن ثويبة لم ترضعه إلا أياماً، فقد ظل يحفظ لها خير الودِّ، ويصلها ما عاشت، ولما ماتت ثويبة في السنة السابعة من هجرته، إلى المدينة، سأل ﷺ عن ابنها الذي كان أخاً له في الرضاع ليصله مكانها، فعلم أنه قد مات.

وجاءت المراضع، ووفدت من بني سعد مراضع إلى مكة يلتمسن الأطفال لإرضاعهم، وكنَّ يُعرِضنَ عن الأطفال اليتامى، لأنهن كنَّ يرتجين البرَّ من الآباء، أما الأيامى ــ الأرامل ــ فكان الرجاء فيهنَّ قليلاً، لذلك لم تقبل واحدة من أولئك المراضع على الطفل محمدٍ، وذهبتْ كل منهن إلى من ترجو من أهله وافر الخير.

على أن حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية التي أعرضت عن محمدٍ أول الأمر كما أعرض غيرها، لم تجد من يدفع[3] إليها طفلها؛ ذلك أنها كانت على جانب من ضعف الحال، صرف[4] الأمهات عنها؛ فلما أجمع القوم على الانطلاق عن

---

(١) أنظر كتاب (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون) ج ١ ص ٧٠.

(٢) كان الأفضل أن يقال: (رغبةً منهم في نجابة الولد، وقوة بدنه، وصفاء روحه). المحقق.

(٣) الأصح (تدفع) بالتاء لا بالياء. المحقق.

(٤) الأصح (فانصرف) لا (صرف). المحقق.

مكة، قالت حليمةُ لزوجها (الحارث بن عبد العزّى) والله! إني لأكره أن أرجع مع صواحبي ولم آخذ رضيعاً، والله! لأذهبنَّ إلى ذلك اليتيم، ولآخذنَّهُ؛ وأجابها زوجها: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركةً وخيراً؛ وأخذت حليمة السعدية محمداً، وانطلقت به مع قومها إلى البادية؛ وكانت تحدّث أنها وجدت فيه منذ أخذتْهُ كلّ بركة وخير؛ سَمِنَتْ أغنامها، وزاد لبنها، وبارك الله لها في كل ما عندها.

وأقام الطفل محمدٌ في الصحراء سنتين، ترضعه حليمة السعدية، وتحضنه ابنتها الشيماء؛ ويجد هو في هواء الصحراء وخشونة عيش البادية، ما يُسرع به إلى النموّ، ويزيد في وسامة خَلْقِهِ، وحسن تكوينه؛ فلما أتم السنتين، وآن فصاله وفطامه، ذهبت به حليمة إلى أمه؛ ثم عادت به إلى البادية، رغبةً من أمه، وفي رواية: حتى يغلظ، وخوفاً عليه من وباء مكة؛ وأقام الطفل بالصحراء سنتين أخريين، يمرح في جوّ باديتها الصحوِ الطلق، لا يعرف قيداً من قيود الروح، ولا من قيود المادة.

٧ ــ قصة شق الصدر الهامة

في هذه الفترة، وقبل أن يبلغ الثالثة من عمره، حصلت قصة هامة هي قصة شق صدره ﷺ، وكان الطفل محمد مع أخيه الطفل من الرضاع[١]، في بهمٍ لأهله خلف بيوتهم؛ إذ عاد أخوه الطفل السعدي يعدو ويقول لأبيه وأمه: ذلك أخي القرشيّ، قد أخذه رجلان عليهما ثيابٌ بيضٌ، فأضجعاه، فشقّا بطنه فهما يسوّطانه[٢]، تقول حليمة: فخرجت أنا وأبوه نحوه، فوجدناه قائماً ممتقعاً وجهه، فالتزمته، والتزمه أبوه، فقلنا له: مالك يا بني؟ قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاني وشقا بطني، فالتمسا فيه شيئاً لم أدرِ ما هو؟

---

(١) الأصح (مع أخيه من الرضاع، الطفل). المحقق.

(٢) في لسان العرب (يَسُوطانه) بدل (يسوّطانه). المحقق.

قالت حليمة: فرجعنا إلى خبائنا، وقال لي أبوه: يا حليمة! لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب ــأي من الجنّــ فألحقيه بأهله، قبل أن يظهر ذلك به، فاحتملناه، فقدمنا به على أمه بمكة، فقالت: ما أقدمك به يا ظئر ــأي يا مرضعــ وقد كنت حريصةً عليه، وعلى مكثه عندك؟ فقلت لها: قد بلغ الله بابني، وقضيتُ الذي عليَّ، وتخوَّفْتُ الأحداث عليه، فأديته عليك[1] كما تحبين، قالت ما هذا شأنك، فاصدقيني خبرك؟ قالت: فلم تدعني، حتى أخبرها[2] قالت: أفتخوفت عليه الشيطان؟ قلتُ: نعم، قالت: كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل، وإن لِبُنَيَّ لشأناً، أفلا أخبرك خبره؟ قلتُ: بلى، قالت: رأيت حين حملت به، أنه خرج مني نورٌ أضاء لي به قصور بُصرى ــمدينة من أرض الشامــ ثم حملتُ به، فوالله! ما رأيتُ من حملٍ قط، كان أخفَّ ولا أيسر منه، ووقع حين ولدتُه وإنه لواضع يديه بالأرض، رافع رأسه إلى السماء، دعيه وانطلقي راشدةً.

كان أول ما شُقَّ صدره ﷺ في السنة الثالثة من عمره وقيل: في الرابعة، وذلك لتطهيره، وإخراج حظّ الشيطان منه، وشق صدره في ليلة الإسراء كما رواه البخاري في صحيحه[3].

وإلى قصة إرضاعه ﷺ يشير صاحب الهمزية حيث يقول:

وبدَتْ في رضاعِهِ معجزاتٌ ... ليس فيها عن العيونِ خفاء
إذ أبَتْهُ ليتمهِ مرضعاتٌ ... قلنَ ما في اليتيم عنا غناء
فأتتْهُ من آلِ سعدٍ فتاةٌ ... قد أبَتْها لفقرها الرضعاء
أرضعتْهُ لبانَها فسقتْهَا ... وبنيها ألبانهنَّ الشّاء
أصبحت شولاً عجافاً وأمست ... ما بها شائل ولا عجفاء

---

(١) الصواب (إليك). المحقق.

(٢) الصواب (أخبرتها). المحقق.

(٣) ذكر قصة شق صدره عند حليمة ابن هشام، ومحمد حسين هيكل، وفؤاد علي رضا، والعلامة محمد رضا، والعلامة الشيخ محمد خضري بك، كلهم أثبتوها في مؤلفاتهم، وأنا أثبتها هنا خدمة لحبيب الله ومصطفاه.

أخصب العيشُ عندها بعد محل [1] إذا غدا للنبيّ منها غذاء
يا لها منّة لقد ضُوعف الأجـ ـرُ عليها من جنسها والجزاء
وإذا سخّر الإله أناساً لسعيدٍ فإنهم سعداء

٨ ــ الحضّ على قتله ﷺ صغيراً

يقول العلامة محمد رضا [2]: وكانت حليمة، كلما مر بها جماعة من اليهود وحدّثتهم بشأنه ﷺ ــ على حسب فطرتها ــ حضُّوا على قتله، وكلما عرضته على العرافين ــ الكهنة ــ في الأسواق، صاحوا بقتله، وكانوا يقولون: اقتلوا هذا الغلام، فليقتلنَّ أهل دينكم، وليكسرنَّ أصنامكم، وليظهرَنَّ أمره عليكم.

وعن حليمة رضي الله عنها، أنه مرَّ بها جماعةٌ من اليهود، فقالت: ألا تحدّثونني عن ابني هذا؟ حملته أمه كذا، ووضعته كذا، ورأت عند ولادته كذا، وذكرت لهم كلَّ ما سمعته من أمه، وكلَّ ما رأته هي بعد أن أخذته، وأسندت الجميع إلى نفسها، كأنها هي التي حملته ووضعته؛ فقال أولئك اليهود بعضُهم لبعضٍ اقتلوه؛ فقالوا: أو يتيمٌ هو؟ فقالت حليمة: لا، هذا أبوه، وأنا أمه، فقالوا: لو كان يتيماً قتلناه، لأن ذلك عندهم من علامات نبوته.

وعن حليمة رضي الله عنها، أنها نزلت به ﷺ بسوق عكاظ، وكان سوقاً للجاهلية، بين الطائف ونخلة ــ المحل المعروف ــ كانت العرب إذا قصدت الحج للطواف بالبيت، أقامت بهذا السوق شهر شوال، يتفاخرون ويتناشدون الأشعار، ويبيعون ويشترون، فلما وصلت به حليمة لسوق عكاظ، رآه كاهنٌ من الهَان فقال: يا أهل عكاظ! اقتلوا هذا الغلام، فإن له مُلْكاً، فمالت به، وحادت عن الطريق، فأنجاه الله ــ من شرهم ــ.

وقد رأت حليمة السعدية، من النبيّ ﷺ الخير والبركة وأسعدها الله بالإسلام، هي وزوجها وبنيها.

---

(١) (المحل): نقيض (الخصب). المحقق.

(٢) في كتابه (محمد رسول الله) ص ٢٢.

قابلت حليمة مرةً نفراً من نصارَى الحبشة، ورأوا معها الطفل محمداً، وقلّبوه، وطلبوا أخذه منها، لعلمهم بشأنه ومكانته، فأبتْ، ثم خرجت به إلى مكة خوفاً منهم؛ وسار الطفل معها وقد بلغ من العمر أربع سنوات إلى جانبها، فلما اقتربا من مكة، اختلطا بكثير من السائرين في الطريق، الذاهبين إلى السوق، أو الحج بالكعبة، وكان الليل قد أسدل ستوره، فلم تشعر حليمة وسط الناس إلا وهي وحدها، ولم تسمح لها ظلمة الليل بالعثور عليه، برغم بحثها الطويل، وندائها الحار المتكرر؛ وأسرعت حليمة تعدو إلى جده عبد المطلب، فأمكنه بما كان له من جاهٍ، أن يبعث في أثر محمد مهرة الباحثين.

وامتطى هو جواده، يشاركهم في البحث وهو يقول:

يـا رب! ردَّ لي ولـدي محـمـداً اردده ربي واصطنع عندي يداً [1]

و يروي ابن هشام: أن اللذين وجدا محمداً، هما ورقةُ بن نوفل، ورجل من قريش، في وادي تهامة، صبياً جالساً تحت شجرةٍ، يجذب غصناً من أغصانها؛ فأخذه جده عبد المطلب، فجعله على عنقه، وهو يطوف به بالكعبة، يعوّذُهُ و يدعو له، ثم أرسل به إلى أمه آمنة [2].

٩ ــ كفالة عبد المطلب لحفيده محمد ﷺ

كفل الجدُّ عبد المطلب حفيده محمداً، وأغدق عليه كلَّ حبّهِ، وأسبغ عليه جمَّ رعايته؛ كان يوضع لعبد المطلب، هذا الشيخ الوقور، سيد قريش، وسيد مكة كلها، فراش في ظلِّ الكعبة، فكان بنوهُ يجلسون حولَ ذلك الفراش، إجلالاً لأبيهم، واحتراماً لمكانته، فإذا جاء محمدٌ أدناه عبد المطلب منه وأجلسه على الفراش معه، وربَّتَ على ظهره، وأبدى من آياتِ عطفه ما يمنع أعمام محمدٍ من تأخيره إلى حيث يجلسون.

---

(١) أنظر كتاب (جد الرسول ﷺ لعلي حسني الخربوطلي).

(٢) أنظر كتاب (أم القرى مكة المكرمة) ص ٢٨٥.

١٠ ــ وفاة آمنة بالأبواء

وزاد في إعزاز الجدّ لحفيده، أن آمنة خرجت بابنها إلى المدينة المنورة في سنة (٥٧٥-٥٧٦م) لِتُرِيَ الغلامَ فيها أخوالَ جدّهِ من بني النجار، وأخذتْ معها أمَّ أيمن التي خلّفها عبد الله من بعده، فلما كانوا بها، أرَتِ الغلامَ البيتَ الذي مات أبوهُ فيه، والمكانَ الذي دفن به، فكان ذلك أوّل معنًى لليتم انطبع في نفس الصبيّ؛ ولعلَّ أمه حدّثته طويلاً عن هذا الأب المحبوب، الذي غادرها بعد مقامه معها أياماً معدودة، ليجيئه بين أخواله أجلُه؛ فقد كان النبيُّ ﷺ بعد هجرته إلى المدينة، يقصُّ على أصحابه حديث تلك الرحلة الأولى إلى المدينة مع أمه، حديث محبٍّ للمدينة، محزونٍ لمن تحوي القبورُ من أهله بها. ولما تمَّ مكثهم بيثرب شهراً، اعتزمت آمنة العودة، فركبتْ وركب من معها بعيريهما اللذين حملاهما من مكة؛ فلما كانوا في أثناء الطريق بين البلدين، مرضت آمنة بالأبواء[1]، وماتت ودفنت بها؛ وعادت أمُّ أيمن بالطفل إلى مكة، منتحباً وحيداً، يشعر بيتم ضاعفه عليه القدَرُ، فيزداد وحشةً وألماً؛ لقد كان يسمع منذ أيامٍ من أمه أنّاتِ الألم لفقد أبيه، وهو ما يزال جنيناً، وها هوذا قد رأى بعينيه أمَّه تذهب كما ذهب أبوه، وتدع جسمه الصغير يحملُ همَّ اليتم كاملاً.

زاد ذلك في إعزاز عبد المطلب إياه. مع ذلك بقيت ذكرى اليتم أليمةً عميقةً في نفسه، حتى وردت في القرآن الكريم؛ إذ يذكّر الله نَبِيَّهُ ﷺ بالنعمة عليه فيقول الله تعالى: ﴿ألم يجِدْكَ يتيماً فآوى، ووجدك ضالاً فهدى﴾[2].

ولعل جوى هذه الذكرى كان يخفّف عنه بعض ما أزعجه.

١١ ــ وفاة عبد المطلب

لا يخفى على القارىء الكريم، ما كان عليه عبد المطلب بن هاشم من

(١) الأبواء: قرية بين المدينة والجحفة، بينها و بين المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً.

(٢) سورة الضحى آية (٦-٧).

خصال حميدة، وأخلاق عالية، وآداب كريمة، يطعم الحاج و يسقيهم، و يبرّ أهل مكة جميعاً، إذا أصابهم شرٌّ أو لحق بهم أذى، وكان الشفوق المحب لحفيده محمدٍ، خاصة بعد أن أصبح كامل اليتم من الأبوين، ولن ننسى حدب عبد المطلب على محمدٍ، مرض هذا الشيخ عبد المطلب بعد أن ناهز على الثمانين [1] من عمره، ولم يفلته المرض أن مات، وترك محمداً في الثامنة من عمره؛ وقد حزن الطفل على جده، كما حزن لموت أمه، حزن حزناً عميقاً، حتى كان دائم البكاء، وهو يتبع نعشه إلى مقره الأخير مع سادات بني هاشم، وحتى إنه كان دائم الذكر لجده من بعد ذلك مع ما لقي من بعد، في كفالة عمه أبي طالب من عناية ورعاية وتقدير؛ والحق يقال: أن موت عبد المطلب كان على بني هاشم والقرشيين ضربة قاسية، لما كان عليه عبد المطلب من عزم وقوة ومكانة مرموقة، وعلى الأخص بعد انتصاره على أبرهة [2] وتقديم الإبل فداء لبيت الله [3] تعالى. وعمره عشر ومائة سنة. مات في سنة (٥٧٨)م ودفن بأعلى بالحجون بأعلى مكة قرب قبر جده قصي وأوصى قبل وفاته أبا طالب بالوصاية على محمد ﷺ.

١٢ ــ كفالة أبي طالب لابن أخيه محمد بن عبد الله ﷺ

أبو طالب واسمه عبد مناف وقيل عبد الكعبة شقيقٌ [4] لعبد الله من أم واحدة، لذا حدب على ابن أخيه محمدٍ وأحبه حباً شديداً كحب عبد المطلب له، أحبه حتى كان يقدّمه على أبنائه، لما كان يجده فيه من النجابة والذكاء والبر وطيب النفس مما [5] يزيده به تعلقاً، وكان أبو طالب أنبل بني هاشم وأكرمهم في قريشٍ مكانةً واحتراماً، ولا عجب أن عهد إليه عبد المطلب

---

(١) الصواب (ناهز الثمانين) بدون كلمة (على). انظر لسان العرب. المحقق.

(٢) عبد المطلب لم يحارب أبرهة بل انسحب من مواجهة وأخلى له الطريق إلى الكعبة. والذي أهلك أبرهة وجنده هو الله. المحقق.

(٣) (فداء لبيت الله). في الأصل: (فداء البيت لله). المحقق.

(٤) في الأصل (شقيقاً) بالنصب والصواب رفعه. المحقق.

(٥) في الأصل (ما) بدل (مما). المحقق.

بكفالة محمدٍ من بعده. يقول أبو طالب: لقد كنت كثيراً أسمع من محمدٍ كلاماً يعجبني، وذلك عند مضيّ بعض الليل، وكنا لا نسمي على الطعام والشراب، ولا نحمد بعده، وكان يقول في أول الطعام: بسم الله الأحد، فإذا فرغ من طعامه، قال: الحمد لله [1] فتعجبتُ منه، ثم لم أرَ منه كذبةً، ولا ضحكاً، ولا جاهلية، ولا وقف مع صبيان يلعبون [2].

١٣ ــ رحلة محمدٍ ﷺ الأولى إلى الشام مع عمه أبي طالب

لما بلغ محمد ﷺ اثنتي عشرة من عمره، خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام في ركبٍ للتجارة سنة ٥٨٢م، ولم يفكّر عمه في استصحابه، خوفاً عليه من وعثاء السفر، واجتياز الصحراء القاسية؛ لكن محمداً أبدى من صادق الرغبة في مصاحبة عمه، ما قضى على كل تردّدٍ في نفس أبي طالب، وصحب الغلام القافلة، حتى بلغ بُصْرَى في جنوب الشام ــ هي قاعدة حوران في وقتنا الحاضر ــ وكان ببصرى راهب يقال له (بحيرا) في صومعةٍ له، وكان ذا علمٍ من أهل النصرانية، ولم يزل في تلك الصومعة راهباً، إليه يصير علمهم عن كتاب يتوارثونه، كابراً عن كابر.

فلما نزلوا ذلك العام ببحيرا، وكانوا كثيراً ما يمرون به قبل ذلك، فلا يكلمهم ولا يعرض لهم، حتى كان ذلك العام، نزلوا به قريباً من صومعته، فصنع لهم طعاماً كثيراً، وذلك عن شيء رآه، وهو في صومعته.

فقد رأى بحيرا رسول الله محمداً، في الركب حين أقبلوا، وغمامة تظله من بين القوم، ثم أقبلوا؛ فنزلوا في ظل شجرة، قريباً منه، فنظر إلى الغمامة حتى أظلت الشجرة، وتهصرت أغصانها ــ أي مالت ــ على حبيب الله ومصطفاه: حتى استظلّ بها ﷺ.

فلما رأى ذلك بحيرا، نزل من صومعته، وقد أمر بذلك الطعام فصنع، ثم أرسل إليهم، فقال: إني صنعتُ لكم طعاماً يا معشر قريش، فأنا أحبُّ أن

(١) أنظر كتاب (محمد رسول الله) للعلامة محمد رضا ص ٣١.

(٢) أنظر تفسير الفخر الرازي ج ٦ ص ٥٦٨.

تحضروا كلكم، صغيركم وكبيركم، وعبدكم وحرّكم.

قال له رجلٌ منهم: والله! يا بحيرا إن لك لشأناً اليوم، ما كنت تصنعُ هذا بنا، وقد كنا نمر بكَ كثيراً، فما شأنك اليوم؟ قال له بحيرا: صدقت قد كان ما تقول، ولكنكم ضيف، وقد أحببتُ أن أكرمكم، وأصنع لكم طعاماً فتأكلون منه كلكم؛ فاجتمعوا، وتخلّفَ رسولُ الله ﷺ من بين القوم لحدثة سنّهِ في رجال القوم تحت الشجرة؛ فلما نظر بحيرا في القوم، ولم يَرَ الصفة التي يعرف ويجد عنده، قال: يا معشر قريش! لا يتخلّفَنَّ أحدٌ منكم عن طعامي، قالوا يا بحيرا: ما تخلّفَ عنك أحدٌ ينبغي له أن يأتيك إلا غلاماً وهو أحدث القوم سناً، فتخلف في رحالهم. فقال: لا تفعلوا ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم؛ ثم قام إليه رجلٌ من قريش فاحتضنه وأجلسه مع القوم؛ فلما رآه بحيرا جعل يلحظه لحظاً شديداً، و ينظر إلى أشياء من جسده، قد كان يجدها عنده من صفته، حتى إذا فرغ القومُ من طعامهم وتفرقوا، قام إليه بحيرا فقال: يا غلام! أسألكَ بحقّ اللاتِ والعزّى إلا ما أخبرتني عما أسألكَ عنه؟ وإنما قال بحيرا له ذلك، لأنه سمع قومه يحلفون بهما، فأبى رسولُ الله ﷺ أن يستحلفه بهما، فقال له بحيرا: فبالله إلا أخبرتني عما أسألكَ عنه؟ فقال له عليه الصلاة والسلام: سلني عما بدا لكَ، فجعل يسأله عن أشياء من حاله ومن نومه، وهيئته وأموره، فجعل رسول الله ﷺ يخبره بخبره، فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته، ثم كشف عن ظهره، فرأى خاتم النبوّةِ بين كتفيه، وكان مثل أثر المحجمة؛ فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب فقال له: ما هذا الغلام منكَ؟ قال أبو طالب: ابني، قال بحيرا: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوهُ حياً؟ قال: فإنه ابن اخي، قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات وأمه حبلى به، قال: صدقت، فارجع بابن أخيكَ إلى بلده، واحذر عليه اليهود، فوالله! لئن رأوه، وعرفوا منه ما عرفتُ ليبغنّهُ شراً، فإنه كائنٌ له شأنٌ عظيم، فأسرع به إلى بلده؛ فخرج به عمه أبو طالب سريعاً، حتى أقدمه مكة، حين فرغ من تجارته بالشام (١).

---

(١) أنظر القصة هذه في سيرة ابن هشام، وتاريخ الطبري، وطبقات ابن سعد: وسيرة محمد رسول الله ص ٣٢. ولا صحة لما زعمه وافتراه الدكتور اشبرنجر أن أبا طالب ردّ محمداً مع بحيرا إلى مكة.

في هذه الرحلة، وقعت عينا محمد الجميلتان على فسحة الصحراء، وتعلقتا بالنجوم اللامعة، في سمائها الصافية البديعة، وقد مرَّ بمدين، ووادي القُرى، وديار ثمود، واستمعت أذناه إلى أحاديث العرب وأهل البادية عن هذه المنازل وأخبارها الماضية والحاضرة، ورأى في بلاد الشام الحدائق الغناء اليانعة، وتجلَّت له جنات إلى جانب الصحراء المقفرة، والجبال الجرداء حول مكة، واستمع إلى أخبار الروم ومناوأتهم للفرس؛ ولئن كان ﷺ في الثانية عشرة من عمره، لقد كان له من عظمة الروح، وذكاء القلب، ورجحان العقل، ودقة الملاحظة، وقوة الذاكرة، وما إلى ذلك من صفات عالية، والتي ستؤهله [1] لحمل الدعوة إلى الله، والعقيدة الإسلامية بعده. وأقام محمد مع عمه أبي طالب قانعاً بنصيبه، يقوم من الأمر بما يقوم به مَنْ هم في مثل سنه؛ فإذا جاءت الأشهر الحُرم، ظلَّ بمكة مع أهله أو خرج وإياهم إلى الأسواق المجاورة لها، بسوق عُكاظ، أو مجنَّة، أو ذي المجاز، يستمع لإنشاد أصحاب المذهَّبات والمعلقات ويستمع إلى خطب الخطباء، وتفاخرهم في أنسابهم وكرمهم وفضلهم، وكان كل ذلك ينطبع في مخيلته، وليكون يوماً ما، على استعدادٍ كبير، لما ينتظره في المستقبل، وليكون هادياً مهدياً ونوراً للعالمين.

١٤ ــ من هو بحيرا الراهب؟

لا ريب أن بحيرا الذي مرَّ ذكره، وأكرم قريشاً عندما نزلوا حول صومعته، كان راهباً متعبّداً، وهو مسيحي في الشام في ذلك الوقت، وكان على مذهب أربوس ونسطور، وكان ينكر لاهوت المسيح، ويقول إن تسميته بإله غير جائز، بل يجب أن يدعى كلمة، وأن تدعى والدته مريم والدة الناسوت، الذي هو مظهر الكلمة، السامي، لا والدة الله؛ كان بحيرا قسّاً عالماً فلكياً منجماً، وقد اتخذ صومعته بقرب الطريق الموصل إلى الشام، وأقام هناك مدةً تمر عليه العربان والقوافل، فكان يأمرهم بعبادة الله الواحد، وينهاهم عن

---

(١) في الأصل: (ستأهله) الهمزة على ألف. والصواب على (واو). المحقق.

عبادة الأوثان؛ وله تلميذ اسمه مذهب، وقد مرَّ على الراهب سلمان الفارسي قبل إسلامه[1].

قال تلميذ بحيرا مذهب: إن بحيرا توفي قتيلاً، بدسيسة من بعض يهود أشرار ــ ومعنى بحيرا في السريانية: عالم متبحر[1].

وهنا أقول: إن اجتماع الطفل مع بحيرا وأبي طالب وقريش عند ضيافته لهم لم تدم إلا ساعة من الزمن، ثم عاد أبو طالب لمكة بابن أخيه. قلت هذا لأدحض افتراء (نورمان دنيال) عميد كلية الملكة في جامعة أكسفورد في كتابه (الإسلام والعرب) من سنة ١١٠٠-١٣٥٠م القائل فيه كذباً وزوراً: (الإسلام، والقرآن وما فيه: من تأليف الراهب بحيرا، أعطاه محمداً أثناء وجوده في بلاد الشام).

إن الإسلام من عند الله، والقرآن كلامه جل وعلا أنزل على رسوله محمد ﷺ؛ قال الله تعالى: (إن الدين عند الله الإسلام)[2].

وفي هذا ما يغني البصير عما قاله هذا الحاقد المفتري على الله ورسوله.

١٥ ــ رعيه ﷺ الغنم بمكة

قال سيدنا محمد ﷺ: (ما من نبيّ إلا قد رعى الغنم، قالوا: وأنتَ يا رسول الله؟ قال: وأنا).

وقال : (ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم. قال له أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ قال: وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط رواه البخاري عن أبي هريرة[3] رضي الله عنه ــ أي أجزاء الدراهم والدنانير يشتري بها

---

(١) أنظر وراجع (بحيرا) في دائرة المعارف العربية للبستاني. وأنظر أيضاً (كتاب محمد رسول الله ﷺ) ص ٣٥.

(٢) جزء من الآية ١٩ من سورة آل عمران. المحقق.

(٣) عبارة (رواه البخاري رضي الله عنه) ذكرها المؤلف بعد لفظ (إلا رعى الغنم). وقد أثبتناها عقب تمام الحديث. المحقق.

الحوائج ــ)[1]. (وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا مع النبي نجني الكبّاث ــ ثمر الأراك ــ فقال: عليكم بالأسود منه، فإنه أطيبه فإني كنتُ أجنيه، إذ كنتُ راعي الغنم، قلنا: وكنت ترعى الغنم يا رسول الله؟ قال: نعم، وما من نبي إلا قد رعاها). وقال: (ما بعث الله نُبياً إلا راعي غنم). وقال: (بُعث موسى وهو راعي غنم، وبعث دواد وهو راعي غنم، وبعثتُ وأنا أرعى غنم أهلي بأجياد). والحكمة من رعي الغنم التي هي أضعف البهائم، أن تسكن في قلب الراعي الرأفة واللطف، وليعتاد على الصبر وتحمل المشاق، فإذا ما انتقل من رعاية الأغنام، إلى رعاية الناس، يكون معتاداً قد وطّد نفسه على ذلك وهذّبها في ابتداء حياته، ليرعى الناس كما رعى الغنم، وليتمرّنوا برعيها على ما سيكلفون من القيام بأمر الأمة ولأن بمخالطتها يحصل الحلم والشفقة والصبر.

١٦ ــ نشأة محمد وكمال عقله ﷺ

شبَّ سيدنا محمد ﷺ وترعرع على حب المكارم والاتصاف بالفضائل، والله يحرسه ويرعاه، ويحفظه من أدناس الجاهلية والأصنام لما يريد جلَّ شأنه من كرامته ورسالته؛ فجعله أفضل قومه مروءةً، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم حسباً، وأعظمهم جواراً، وأرجحهم حلماً، وأصدقهم قولاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش، حتى عرف بين أهل مكة قاصيها ودانيها وهو في ريعان شبابه بالصادق الأمين، لأنه استوفى من مكارم الأخلاق كلَّ مكرمةٍ، لم ينلها إنسانٌ قبله ولا بعده، ولأنهم لم يشاهدوا نشأةً كعجيب نشأته، فقد ملك عليهم مشاعرهم بصبره وحلمه، ووفائه وزهده، وجوده ونجدته، وصدق لهجته، وكرم عشرته، وتواضعه وعلمه، وعفوه وثباته.

عاش بين قومه وهم فقراء، وكان حاله كحال بني عمه، وصبية قومه، يزيد عليهم اليتم بفقد الأبوين ــ كما مرَّ سابقاً ــ ولم يكن له مؤدبٌ ظاهر يعتني

---

(١) ذكر المؤلف بعد لفظة (الحوائج) ذكر عبارة (رواه البخاري). وقد حذفناها اكتفاء بذكرها عند نهاية الحديث. المحقق.

بتثقيفه، أو مربٍّ معروف [1]، يتولّى تهذيبه، إلا سلامة الفطرة، وسموّ الغريزة، وطهارة العقيدة، والاعتصام بالفضيلة فقد حدَّثَ عن نفسه فقال: (أدَّبني ربي فأحسن تأديبي).

١٧ ــ حسنُ صورته وكمال خلقته ﷺ

حسبك يا أخي القارىء عن حلية رسول الله ﷺ وعن حسن صورته، وكمال خلقته، ما جاء عن الحسن بن عليّ رضي الله عنهما أنه قال: (سألتُ هند بن أبي هالة رضي الله عنه عن حلية رسول الله ﷺ وكان وصَّافاً؟ فقال: كان رسول الله ﷺ فخماً مفخماً، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر، أطول من المربوع ــ بين الطول والقصر ــ وأقصر من المشذَّب ــ البائن الطول في نحافة ــ عظيم الهامة، رَجْل الشَّعر، إن انفرقت عقيقتُه ــ شعر الرأس ــ فرق، وإلا فلا يجاوز شعرة شحمةَ أذنيه إذا هو وفره، أزهر اللون، واسع الجبين، أزجّ الحواجب ــ المقوّس الطويل الوافر الشعر ــ سوابغ من غير قرن، بينهما عرقٌ يدرُّهُ الغضب، أقنى العرنين ــ احديداب في الأنف ــ له نور يعلوه، يحسبه من لم يتأمله أشم، كثُّ اللحية، أدعج ــ أي شديد سواد الحدقة ــ سهل الخدين، ضليع الفم، أشلب ــ رونق الأسنان وحسنها ــ مفلّج الأسنان، دقيق المسربة ــ خيط الشعر الذي بين الصدر والسرة ــ كأنَّ عنقَهُ جيد دميةٍ في صفاء الفضَّة، معتدل الخَلْقِ بادناً، متماسكاً، سواء البطن والصدر، بعيد ما بين المنكبين، ضخم الكراديس ــ رؤوس العظام ــ أنور المتجرّد، موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجري كالخط، عاري الثديين، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر، طويل الزندين، رحب الراحة، شثن [2] الكفين والقدمين، سائل الأطراف ــ طويل الأصابع ــ عبل الذراعين ــ غليظها ــ خُمصانَ الأخمصين ــ أي متجافي أخمص

---

(١) في الأصل (معروف) بالجر. والصواب رفعه لأنه صفة لمرفوع. المحقق.

(٢) أي: شَعْره بين السبوطة بين السّبوطة والجعودة. المحقق.

(٣) الشثن: الغليظ. المحقق.

القدم ــ مسيح القدمين، ينبو عنهما الماء، إذا زال زالَ تقلعاً[1]، ويخطو تكفؤاً[2]، ويمشي هوناً ــأي وقاراً ــ ذريع المشية ــواسع الخطو ــ إذا مشى كأنما ينحطُّ من صبب ــمن علو ــ ارتقاه، وإذا التفت التفت جميعاً، خافض الطرف، نظره إلى الأرض، أطولُ من نظره إلى السماء، جُلُّ نظره الملاحظة، يسوق أصحابه، و يبدأ مَنْ لقيَهُ بالسلام)[3].

١٨ ــ كمال منطقه ﷺ

كان سيدنا محمد ﷺ يعرف ألسنة العرب، ويعلم لغة مَنْ بَعُدَ منهم واقترب؛ ويخاطب كل طائفة بلسانها، ويجري مع كل قبيلةٍ في ميدان بيانها، فصاحتُه إليها المنتهى، و بلاغتُه أذهلَتْ أرباب النُّهى، وجوامع كلمه مأثورة، و بدائع حكمه مشهورة، وطلاوةُ قوله تجلّ عن الصفة، وحلاوة منطقه لا يذوقها إلا أهل المعرفة.

أنزل القرآن الكريم بلسانه تعظيماً لأمره، ورفعةً لشأنه، وقد نشأ في بني سعدٍ ــ كما مر سابقاً ــ ورتبتُه في قريشٍ عالية، فجمع ﷺ من الكلام، رونق الحضارة، وجزالة البداوة، وأمدَّه الوحي بعلومٍ ربانية، لا يدركها إلا العالمون.

كان ﷺ حلو المنطق، حسن الترتيل، كلامه فصل لا نزر ولا هذر[4]، بيّن واضح، يحفظه من جلس إليه، ويفهمه كل من سمع عليه، كأنما هو درٌ نظمت، لا فضول فيه ولا تقصير.

نزَّه الله تعالى منطقه عن التكلف، وتعقيد العبارة، ومن الفأفأة ــ ترديد الفاء في الكلام ــ (قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسردكم هذا، ولكن كان يتكلم بكلامٍ بيّنٍ فصل يحفظه من جلس إليه). وفي روايةٍ: (كان رسول الله ﷺ: يحدّثُ حديثاً، لوعدَّهُ العادُّ لأحصاه).

---

(١) التقلع: رفع الرجل بقوة.

(٢) التكفؤ: الميل إلى سنن المشي وقصده.

(٣) أنظر كتاب (محمد المثل الكامل) ص ١١ لمحمد أحمد جاد المولى.

(٤) في الأصل: (هدر) بالدال. والصواب (بالذال). المحقق.

قال أبوبكرٍ الصديق رضي الله عنه يوماً لرسول الله ﷺ : لقد طفتُ في العرب، وسمعتُ فصحاءهم، فما سمعتُ أفصحَ منكَ يا رسول الله.

ألقى الله تُعالى على كلام رسول الله ﷺ المحبة، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وهو مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زلت له قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، فـ ﷺ.

١٩ ــ كمال عقله ﷺ

اجتمع فيه ﷺ من خصال الكمال، ما لا يحيط به حدٌّ، ولا يحصره عدٌّ؛ ويظهر كمال عقله جلياً واضحاً، بتدبيره للعرب الذين هم كالوحوش الشاردة، في طباعها المتنافرة المتباعدة، وكيف ساسهم بحكمته، واحتمل جفاهم بثاقب فكره، وصبر على أذاهم، إلى أن انقادوا إليه، فالتفُّوا حوله، وقاتلوا دونه، واختاروه على أنفسهم وأهلهم وأولادهم، وهجروا في رضاه أوطانهم؛ مما يتحقق أنه أعقل العالمين ﷺ.

٢٠ ــ نجدته وشجاعته ﷺ

كان النبي سيدنا محمد ﷺ ذا شجاعةٍ ونجدةٍ وبسالةٍ وشدةٍ، وبأسٍ وشهامةٍ وحماسةٍ وصرامةٍ، وصولةٍ وإقدامٍ، يشتّت شمل الكماة، ويبطل حيلة الأبطال، حضر الوقائع، وشهد الملاحم، وتولى الكماة عنه وهو مستقر في مكانه، وفرّ المسلمون من حوله يوم حنين، وهو ثابتٌ لا يبرح، ومقبلٌ لا يدبر ولا يتزحزح، ما لقي كتيبةً إلا كان أول ضارب، ولا توانى القوم لحدوث صوتٍ إلا كان أسرع واثبٍ؛ لم يُرَ أثبتُ [1] منه جأشاً في الجهاد، ولا أقرب لجهة المشركين منه في وقت الجلاد.

فقد ثبت في جميع المواقف الصعبة، ولذلك قال سيدنا علي رضي الله عنه: (كنا إذا حمي البأس اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحدٌ أقرب منه إلى العدو).

---

(١) في الأصل (أثبتَ) بالنصب. والصواب رفعه لأنه نائب فاعل. المحقق.

وفي غزوة أحد،[1] كان يتقدم أمام جيشه نحو الأعداء على بغلته و يقول أمام الجموع:

أنـــا الـــنـــبـــيُّ لا كـــذب أنـــا ابـــن عـــبـــد الـمـطـلـب

ولم يكن كقواد هذا الزمان، يكونون أقرب إلى المنعة والأمن وأبعد عن مرمى القنابل والمهلكات؛ بل كان يتقدم الصفوف عليه الصلاة والسلام.

٢١ ــ عود إلى بدء

قدمت للسادة القراء بعضاً من شمائل الطفل محمدٍ ﷺ بعد أن عاد من رحلته الأولى من الشام لمكة؛ وسأتابع الكتابة عنه ﷺ وعما توقع[2] معه، وهو في بيت عمه أبي طالب، من الأمور والأحداث، وخاصة حرب الفجار التي تناولها المؤرخون بالبحث والتنقيب، وإليكم خلاصة ما توقّع[3].

٢٢ ــ حرب الفجّار
التي وقعت سنة (٥٨٠-٥٩٠)م

أيام الفجار عدّة، فالفجار الأول كان بين كنانة وهوازن، والثاني بين قريش وهوازن، والثالث بين كنانة وهوازن، والفجار الأخير بين قريش وكنانة كلها وهوازن؛ وهذه الحروب كانت قبل مبعث النبي ﷺ بخمس وعشرين سنة، وقد شهد النبي ﷺ الفجار الآخر، وهو ابن خمس عشرة سنة؛ وكان سببها أن النعمان بن المنذر أمير الحيرة[4]، بعث بلطيمة[5] له، إلى سوق عكاظ للتجارة، وأجارها له عروة الرجال[6] من بني

(١) الصواب (حنين) لا (أحد). المحقق.
(٢) لعل المؤلف يقصد (عما وقع) لا (توقع). المحقق.
(٣) لعل الصواب (ما وقع). المحقق.
(٤) الحيرة: بلدة تقع غرب الفرات، كان يقيم بها ملك العرب من قِبَل ملوك فارس، فتحها خالد بن الوليد رضي الله عنه في السنة الثانية عشرة من الهجرة.
(٥) في الأصل (بلطيحة) بالحاء بدل الميم. المحقق.
(٦) في طبقات ابن سعد جـ ١ ص ١٢٦ (وأجارها له الرّحال عروة بن عتبة بن جابر بن كلاب. المحقق.

هوازن، فنزلوا على ماء يقال له: أوارعة. فوثب البراض (خليع من بني كنانة) على عروة فقتله، وهرب إلى خيبر، فاستخفى بها، ولقي بشر بن أبي حازم الأسدي الشاعر، فأخبرهُ الخبر، وأمره أن يُعلم ذلك عبد الله بن جدعان، وهشام بن المغيرة، وحرب بن أمية، ونوفل بن معاوية الديلي، وبلعاء بن قيس، فوافَى عكاظاً[1]، فأخبرهم، فخرجوا موائلين منكشفين إلى الحرم؛ وبلغ قيساً الخبر، آخر ذلك اليوم، فقال أبو براء رئيس هوازن: ما كنا من قريش إلا في خدعة، فخرجوا في آثارهم، فأدركوهم، وقد دخلوا الحرم، فناداهم رجلٌ من بني عامر يقال له: الأدرم بن شعيب بأعلى صوته: إن ميعاد ما بيننا وبينكم هذه الليالي من قابلٍ، وإنا لا نأتلي في جمع.

ولم تقم تلك السنة سوق عكاظ، فكثت قريش وغيرها من كنانة وأسد بن خزيمة ومن لحق بهم من الأحابيشِ سنةً، يتأهبون لهذه الحرب، وتأهبت قيس عيلان[2]، ثم حضروا من قابلٍ، ورؤساء قريش: عبد الله بن جدعان، وهشام بن المغيرة، وحرب بن أمية، وأبو أحيحة سعيد بن العاص، وعتبة بن ربيعة، والعاص بن وائل، ومعمر بن حبيب الجمحي، وعكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، وخرجوا متساندين[3]، ويقال: بل أمرهم إلى عبد الله بن جدعان، وكان في قيس: أبو براء عامر بن مالك بن جعفر، وسبيع بن ربيعة بن معاوية النضري، ودُريد بن الصمَّة، ومسعود بن معتب، وأبو عروة بن مسعود، وعوف بن أبي حارثة المري، وعباس بن رعل السلمي؛ وهؤلاء هم الرؤساء والقادة.

ويقال: بل كان أمرهم جميعاً، إلى براء، وكانت الراية بيده، وهو الذي سوَّى صفوفهم فالتقوا؛ فكانت الدبرة ــ أي الهزيمة ــ أول النهار لقيس وكنانة على هوازن ومن ضَوَى إليهم؛ ثم صارت الدبرة آخر النهار لقريش وكنانة على قيس، فقتلوهم قتلاً ذريعاً، حتى نادى عتبة بن ربيعة يومئذٍ ــ وإنه لشاب ما

(١) عكاظ: سوق كانت تعقدها العرب كل عام، لتعرض فيها تجارتها، وما قاله فصحاؤها من قصائد الفخر وما أشبه ذلك.

(٢) في الأصل (غيلان) بالغين. والصواب بالعين. المحقق.

(٣) أي ليس لهم أمير واحد يجمعهم.

كملت له ثلاثون سنة ــ إلى الصلح، فاصطلحوا على أن يعدُّوا القتلى، وَوَدَتْ قريش ــ أي دفعت الدية ــ لقيس ما قتلت فضلاً عن قتلاهم، ووضعت الحرب أوزارها، فانصرفت قريش وقيس[1].

وكان رئيس بني هاشم في هذه الحرب: الزبير بن عبد المطلب ومعه إخوته أبو طالب وحمزة والعباس وابن أخيه النبي الكريم[2]. وهكذا انتهت هذه الحرب، التي كثيراً ما تشبه حروب العرب، تبدؤها صغيرات الأمور، حتى ألف الله بين قلوبهم، وأزاح عنهم هذه الضلالات بانتشار نور الإسلام على يد سيدنا محمد ﷺ القائل: «لقد حضرت الفجار مع عمومتي، ورمَيتُ فيهم بأسهم، وما أحب أني لم أكن فعلت» وقال: «كنتُ أنبل على أعمامي» يعني أناولهم النبل[3].

٢٣ ــ حلف الفضول

الحلف: أصله المعاقدة والمعاهدة، على التعاضد والتساعد والاتفاق، فما كان منه في الجاهلية على الفتن والقتال والغارات، فذلك ورد النهي عنه في الإسلام، وما كان منه في الجاهلية على نصر المظلوم وصلة الأرحام، فذلك الذي قال فيه رسول الله ﷺ: (وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة) يريد ﷺ المعاقدة على الخير، ونصرة الحق، وصلة الرحم.

كان حلف الفضول، منصرف قريشٍ من الفجار، وكان أشرف حلف، وأول من دعا إليه، الزبير بن عبد المطلب؛ فاجتمعت بنو هاشم وزهرة وتيم، في دار عبد الله بن جدعان، فصنع لهم طعاماً، فتعاقدوا وتعاهدوا بالله، لنكونَنَّ مع المظلوم حتى يؤدَّى إليه حقُّه، ما بلّ بحرٌ صوفةً، وفي التآسي في المعاش، وأن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه حتى تردَّ إليه مظلمته[4].

---

(١) أنظر كتاب (محمد رسول الله ﷺ) ص ٣٧.

(٢) أنظر كتاب (نور اليقين في سيرة سيد المرسلين) ص ١١.

(٣) أنظر المصدر السابق ص ٣٧.

(٤) أنظر كتاب (نور اليقين) ص ١٢ وكتاب (محمد رسول الله ﷺ) ص ٣٧.

وقد حضر النبي ﷺ هذا الحلف مع أعمامه، وقال بعد أن شرفه الله بالرسالة: «لقد شهدتُ مع عمومتي حلفاً في دار عبد الله بن جدعان، ما أحبُّ أن لي به حمر النعم ــأطايب الإبلــ ولو دعيتُ به في الإسلام لأجبت» وذلك، لأنه مبعوث بمكارم الأخلاق، وهذا منها؛ وقد أقرَّ دين الإسلام على كثير منها، يرشد إلى هذا قوله ﷺ: «بعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق» وقد دعا بهذا الحلف كثيرون فأنصفوا.

٢٤ ــ ابتعاد محمد رسول الله ﷺ عن عادات الجاهلية

كان سيدنا محمد ﷺ يكره كشف العورة قبل البعثة؛ وقد سمع وهو صغير من دارٍ من دور مكة غناء وصوت دفوف في حفلة زواج فنام، فما أيقظه إلا حرّ الشمس؛ وكان ﷺ يمتنع أن يحضر مع قومه العيد، الذي كانوا يقيمونه بصنمٍ يقال له: (بوانة) حتى غضب عليه عمه أبو طالب وعماته؛ ولم يذق شيئاً ذُبح على الأصنام، حتى أكرمه الله برسالته؛ ولم يدخل في يهودية أو نصرانية، واعتزل الأوثان ونهى عن الوأد[1]، وكان يحييها[2]، وإذا أحدٌ فعل ذلك، أخذ الموءودة من أبيها وتكفّلها؛ ولم يلعب بميسرٍ، ولم يقترب من أهله، ولم يشرب خمراً قط؛ روى أبو جعفر الطبري عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لما نشأتُ بغّضتْ إليَّ الأوثان، وبُغض إليَّ الشعر، وما هممتُ بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به إلا مرتين: كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك؛ ثم ما هممتُ بسوء حتى أكرمني الله برسالته؛ قلتُ ليلةً لغلامٍ كان يرعى الغنم معي: لو أبصرتَ لي غنمي حتى أدخل مكة، فأسمر بها كما يسمر الشباب؟ فخرجت لذلك حتى جئت أول دارٍ من مكة، سمعت عزفاً بالدفوف،

---

(١) الوأد: هو أن يعمد الرجل إلى ابنته فيقذفها في حفرة من الأرض ويهيل عليها التراب، ثم يدعها إلى أن تموت، والقبائل التي عرف عنها الوأد: كندة وربيعة وتميم، وبعض أفراد من القبائل.

(٢) هكذا في الأصل. ولعل المؤلف يقصد أنه كان ينقذ المؤودة من الموت. ويوضح ذلك قوله بعد (أخذ المؤودة من أبيها وتكفّلها). المحقق.

والمزامير لعرس بعضهم، فجلستُ أنظر، فضرب[1] على أذني فنمتُ، فما أيقظني إلا مسُّ الشمس، فرجعتُ ولم أقض شيئاً».

وكما ظهرت عليه في هذه الفترة دلائل بُعده عن السوء وعن الوثنيات وموبقات الجاهلية، ظهرت عليه دلائل سداد رأيه، ورجحان عقله، فقد روى المؤرخون عن[2] محمد بن عبد الله ﷺ، وسنّه خمس وثلاثون سنة: أن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبناء بيت الله، ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود فاختصموا[3] فيه كلُّ قبيلةٍ تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تجادلوا وتحالفوا[4] واستعدُّوا للقتال[5]... وانتهى الأمر باختيارهم أول داخل من باب هذا المسجد، ففعلوا؛ وكان أول داخل رسول الله ﷺ؛ فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا به حكماً؛ وهنا ظهر العقل والتدبير والحكمة البالغة، في حلّ هذه المسألة المعضلة على يد الحبيب الأعظم، والرسول الأكرم سيدنا محمد ﷺ وقد حلّها. لذا قال العلامة ابن هشام في سيرة[6] النبي ﷺ: (شبّ رسول الله ﷺ، والله يكلؤه ويحيطه من أقذار الجاهلية، لما يريد به من كرامته ورسالته، حتى بلغ أن كان رجلاً، أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم حسباً، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حلماً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأسدّهم عقلاً، وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال انزهاً وتكرماً حتى أطلق عليه (الأمين) ــ كما مر سابقاً ــ لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة.

وقال ابن هشام: وكان رسول الله ﷺ فيما ذكر لي، يحدّث عما كان الله يحفظه به في صغره، وأمر الجاهلية[7] أنه قال: «لقد رأيتُني في غلمان

---

(١) لعل الصواب (فضرب الله على أذني.. الخ). المحقق.

(٢) في الأصل (أنّ) بدل (عن). الحقق.

(٣) الصواب (اختصموا) بدون فاء. المحقق.

(٤) الصواب (وتحالفوا) بالخاء لا بالحاء. المحقق.

(٥) سأشرحها في حينها ومحلها مفصلة إن شاء الله تعالى.

(٦) أنظر كتاب (سيرة النبي ﷺ) لابن هشام ج ١ ص ١٩٧.

(٧) في سيرة ابن هشام (وأمر جاهليته) لا (الجاهلية). المحقق.

قريش ننقل حجارة، لبعض ما يلعب به الغلمان، كلُّنا قد تعرَّى، وأخذ إزاره فجعله على رقبته، يحمل عليه الحجارة؛ فإني لأقبل معهم كذلك وأدبر؛ إذ لكمني ــأي لكزني ــ لاكم ما أراه، لكمةً وجيعةً ثم قال: شدَّ عليك إزارك، قال: فأخذته وشددتُه عليَّ، ثم جعلتُ أحمل الحجارة على رقبتي، وإزاري عليَّ، من بين أصحابي».

هذه هي عناية الله التي حفظته من الجاهلية وسوءاتها.

٢٥ ــ الرحلة الثانية للرسول ﷺ إلى الشام كانت في سنة (٨٩٥)م

لما بلغ حبيب الله ومصطفاه، خمساً وعشرين سنةً، قال له عمه أبو طالب أنا رجلٌ لا مال لي، وقد اشتدَّ الزمان علينا، وهذه عير قومك، وقد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك في عيراتها، فلو جئتَها، فعرضت عليها نفسك، لأسرعت إليك؛ وكانت خديجة تستأجر الرجال في مالها ــ كما قال أبو طالب ــ يضاربون لها به، بشيء تجعله لهم.

وقد زاد في ثروتها أنها قد تزوجت مرتين في بني مخزوم، بما جعلها من أوفر أهل مكة غنى؛ وكانت تقوم على مالها بمعونة أبيها خُويلد، و بعض ذوي ثقتها؛ وقد ردَّتْ خطبة الذين خطبوها، من كبار قريش، لأنها كانت تعتقد أنهم ينظرون إلى مالها، واعتزمت أن تقف جهدها على تنمية ثروتها؛ ولما علم أبو طالب أنها تجهّز لخروج تجارتها إلى الشام، قال لابن أخيه: أنا رجل لا مال لي وقد اشتد الزمان علينا، وقد بلغني أن خديجة استأجرتْ فلاناً بِبَكْرَيْن، ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطته؛ فهل لكَ أكلمها؟ قال له سيدنا محمد ﷺ: ما أحببتَ.

فخرج أبو طالب إليها، فقال لها: هل لك يا خديجة أن تستأجري محمداً؟ فقد بلغنا أنك استأجرت فلاناً ببكرين، ولسنا نرضى لمحمد دون أربعة أبكار؛ وكان جواب خديجة: لو سألت ذلك لبعيدٍ بغيضٍ فعلنا، فكيف وقد سألتَهُ لحبيبٍ قريب؟

وعاد العمُّ إلى ابن أخيه، يذكر له الأمر و يقول له: هذا رزقٌ ساقه اللهُ إليك[1].

٢٦ ــ سيدنا محمد ﷺ في تجارة خديجة

خرج سيدنا محمد[2] ﷺ مع ميسرة غلام خديجة بعد أن أوصاه أعمامه به، وانطلقت القافلة في طريق الصحراء إلى الشام، مارة بوادي القرى ومدين وديار ثمود، وبتلك البقاع التي مر بها سيدنا محمد مع عمه أبي طالب وهو في الثانية عشرة من عمره، وأحيت هذه الرحلة في نفسه ذكريات الرحلة الأولى، كما زادته تأملاً وتفكيراً في كل ما رأى وسمع من قبل عن العبادات والعقائد بالشام أو بالأسواق المحيطة بمكة، فلما بلغ بُصرى اتصل بنصرانية الشام وتحدث عن[3] أهلها ورهبانها، وقد تحدَّث إليه راهب نسطوري وسمع منه، ولعله أو لعل غيره من الرهبان قد جادل محمداً في دين عيسى، هذا الدين الذي كان قد انقسم يومئذ شيعاً وأحزاباً. استطاع سيدنا محمد الأمين أن يتجر بأموال خديجة بأمانة وجدّ، واستطاع بمهارته وحسن معاملته أن يبيع و يربح ربحاً كثيراً، وبحسن معاملته وأخلاقه وحلو شمائله وجمال عواطفه أن يكسب محبة ميسرة وإجلاله؛ فلما آن لهم أن يعودوا ابتاع لخديجة من تجارة الشام كلَّ ما رغبت إليه أن يأتيها به.

فلما بلغت القافلة مرَّ الظَّهران في طريق عودتها، قال ميسرة: يا محمد! أسرعْ إلى خديجة، فأخبرها بما صنع الله لها على وجهك، فإنها تعرف ذلك لك، وانطلق محمد ﷺ حتى دخل مكة في ساعة الظَّهيرة؛ وكانت خديجة في علّيّة لها، ــ طابق علوي ــ فرأتْهُ على بعيره، ونزلت حين دخل دارها واستقبلته، واستمعت إليه يقصُّ بعبارته البليغة الساحرة، خبر رحلته وربح تجارته، وما جاء به من صناعة الشام، وهي تنصتُ مغتبطةً مأخوذةً، وأقبل

---

(١) أنظر كتاب (حياة محمد) للدكتور محمد حسين هيكل ص ١١٩.

(٢) في الأصل (محمدنا) بزيادة (نا). المحقق.

(٣) الصواب (مع) لا (عن). المحقق.

ميسرة غلامُها من بعد، فروى لها عن محمدٍ ورقَّة شمائله، وجمال نفسه، كما قصَّ عليها أنه حينما خرج من مكة معه، رأى غمامة تظله في الذهاب والإياب، كما رأت السيدة خديجة وهي في علّيتها: رسول الله ﷺ وهو راكب على بعيره وملكان يظللان عليه؛ فدخل إليها وأخبرها بما ربحوا. مما زادها علماً به، فوق ما كانت عليه [1] تعرف، من فضله على شباب مكة، ولم يكُ إلا ردُّ الطرف حتى انقلبت غبطتُها حُبّاً جعلها وهي في سنّ الأربعين من عمرها، وهي التي ردَّتْ من قبلُ أعظم قريش شرفاً ونسباً، تودُّ أن تتزوَّج من هذا الشاب الذي نفذتْ نظراتُه، ونفذت كلماتُه إلى أعماق قلبها؛ وتحدَّثت في ذلك إلى أختها على قول، أو إلى صديقتها نُفيسة بنت (مُنْيَةَ) على قولٍ آخر. وذهبت نفيسة إلى محمد، فقالت له: ما يمنعك أن تتزوج؟ قال: ما بيدي ما أتزوج به، قالت: فإن كُفيتَ ذلك، ودُعيتَ إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب؟ قال: فمن هي؟ أجابت نفيسةُ بكلمة واحدة: خديجة، قال محمد: كيف لي بذلك؟ وكان قد أنس هو أيضاً إلى خديجة، وإن لم تحدِّثْهُ نفسه بزواجٍ منها، لما كان يعلم من ردِّها أشراف قريشٍ وأغنياءها؛ فلما قالت له نفيسة جواباً عن سؤاله: عليَّ ذلك، سارع إلى إعلان قبوله؛ ولم تبطىء خديجة أن حدَّدت الساعة التي يحضر فيها أعمامُه، ليجدوا أهلها عندها، فيتمُّ الزواج؛ وزوَّجها عمها عمرو بن أسدٍ، لأن خويلداً كان قد مات قبل حرب الفِجَار، وهذا هو الصحيح، وما رُوِيَ غير هذا فباطل، حيث قيل: إن أباها كان حاضراً. فلا صحة لذلك.

٢٧ ــ زواج سيدنا محمد بخديجة

تمت الخطوبة، واتُّخذَ الموعدُ لإجراء عقدِ القرانِ، وحضر عمُّ خديجة كما حضر محمد وعمومتُه، فزوَّجه أحدهم، فقال عمرو بن أسدٍ: هذا البضعُ لا يُقْرَعُ أنفُه.

وتزوجها رسول الله ﷺ وهو ابن خمس وعشرين سنة، وخديجة يومئذٍ بنت أربعين سنةً، وذلك بعد عودته من الشام بشهرين كما مرَّ.

---

(١) كلمة (عليه) لا مكان لها في الجملة. والصواب (فوق ما كانت تعرف.. الخ). المحقق.

وقد حضر حفلة القران رؤساء مضر، وحضر أبو بكر الصديق رضي الله عنه وخطب أبو طالب خطبة العقد فقال: (الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضئضىء معدّ ــمعدنهــ وعنصر مضر ــأي أصلهــ وجعلنا حضنة بيته، وسواس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوجاً، وحرماً آمناً، وجعلنا الحكام على الناس؛ ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزنُ به رجلٌ شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً، فإن كان في المال قل، فإن المال ظلٌّ زائل، وأمرٌ حائل،وعارية مستردَّة، وهو بعد هذا، له نبأ عظيم وخطر جليل، ومحمد من قد عرفتم قرابته، وقد خطب [1] خديجة بنت خويلد وقد بذل لها، من الصداق ما آجله وعاجله [2] (كذا)، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم، وخطر جسيم) فلما أتم أبو طالب الخطبة، تكلّم ورقةُ بن نوفل فقال:

الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرتَ، وفضّلنا على ما عددتَ، فنحن سادة العرب وقادتُها، وأنتم أهل ذلك كله، لا تنكر العشيرة فضلكم، ولا يردّ أحدٌ من الناس فخركم وشرفكم، وقد رغبنا في الاتصال بحبلكم وشرفكم، فاشهدوا عليَّ معاشر قريش بأني قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله على كذا ثم سكت. فقال أبو طالب: قد أحببت أن يشركك عمها، فقال عمها: اشهدوا عليَّ يا معشر قريش أني قد أنكحتُ محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد؛ فقبل النبي ﷺ النكاح، وشهد على ذلك صناديدُ قريشٍ.

وأولم ﷺ، فنحر جزوراً، وقيل جزورَين، وأطعم الناس وأمرت خديجة جواريها أن يرقصن ويضربنَ الدفوفَ، وفرح أبو طالب فرحاً شديداً، وقال: (الحمد لله الذي أذهب عنا الكرب، ودفع عنا الغموم) وهي أول وليمة أولمها الرسولُ ﷺ.

---

(١) وفي رواية: وقد خطب إليكم رغبة في كريمتكم... الخ.

(٢) وقد أصدقها اثنتي عشر أوقية ونصفاً من الذهب وهي أربعون درهماً شرعياً. وقيل (كان صداقها عشرين بكرة من الإبل) أنظر كتاب محمد رسول الله ﷺ ص ٤١.

٢٨ ــ خديجة بنت خويلد رضي الله عنها

السيدة خديجة بنت خويلد بن أسد، بن عبد العزّى بن قصي، بن كلاب، بن مرة، بن كعب، بن لؤي؛ وكانت فائقةً بالجمال والأدب وهي غنية، تستأجر رجالاً من قريش في تجارتها، وهي ذات شرف وحسب وقد زادت تجارتها وكثر مالها فيما تقوم به، من مضاربة مع من تتفق معه للقيام بالعمل؛ كما زاد في ثروتها أنها قد تزوجت مرتين في بني مخزوم، بما جعلها في أوفر أهل مكة غنى، بمعونة والدها خُويلد، وبعض ذوي ثقتها.

تزوجت أولاً: عتيق بن عائذ[١] بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، ثم هلك عنها وخلّف منها (هند بنت عتيق).

وتزوّجها بعده[٢]، أبو هالة النباش بن زرارة، وخلف منها (هنداً وهالة) ثم مات بعد فترة قليلة.

ثم بعد مرور عدة سنوات أقبل كبار قريش لخطبتها فلم تقبل أحداً منهم، لأنها كانت تعتقد أنهم ينظرون إلى مالها، واعتزمت أن تقف جهدها على تنمية ثروتها، عن طريق التجارة.

وعاشت زوجة صالحةً للرسول ﷺ، وهي تواسيه في حالات الكرب والشدة بأخلاقها المرضية، وآدابها العالية، كما تواسيه بمالها ينفقه حيث يريد في سبيل دعوته، وما يقوم به طاعةً لربه، ومكثت تساعده وتؤنسه خمساً وعشرين سنة.

---

(١) في كتاب الزرقاني على المواهب جـ ١ ص ٢٠٠ المطبعة الأزهرية المصرية ما نصه: (عَتيق بن عابد) بالموحدة والدال المهملة كما في الإكمال وتبعه التبصير، وقال اليعمري: أنه الصواب. ووقع في جامع ابن الأثير أنه بتحية وذال (عايذ) وهو مردود فإنه: عتيق بن عابد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وقد صرح علامة النساب الزبير بن بكار بأن من كان من ولد عمر بن مخزوم فهو (عابد). ومن كان من ولد أخيه عمران بن مخزوم فهو (عائذ). أ هـ. المحقق.

(٢) بالمصدر السابق أن الذي تزوجها أولا هو (أبو هالة) وبعد أن هلك أبو هالة تزوجها (عتيق). (وهالة وهند) ابنا خديجة من أبي هالة فهما ذكران. أما (هند) فهي ابنة خديجة من عتيق بن عابد فهي أنثى. المحقق.

وأنجبَتْ منه جُلَّ أولاده، عدا ولده إبراهيم، فإنه من زوجته [1] مارية القبطية.

ولخديجة رضي الله عنها مواقف عظيمة في خدمة الإسلام وسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام؛ فقد آمنتْ به، وصدَّقت بما جاءه من الله، وآزرته على أمره؛ فكانت أول من آمن بالله وبرسوله، وقد خفّف الله بها عن نبيه ﷺ؛ لا يسمع ﷺ شيئاً مما يكرهه من ردٍّ عليه وتكذيب فيما يدعو إليه من الحق، إلا فرَّج الله عنه بها إذا رجع إليها، تثبّتُهُ وتخفّفُ عليه، وتصدقه في كل ما يقول، وما يدعو إليه وتهوِّنُ عليه أمر الناس.

قال ابن إسحاق: حدثني هشام بن عروة، عن أبيه عروة بن الزبير عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، قال: قال رسول الله ﷺ: (أمرتُ أن أبشّر خديجة ببيتٍ من قصبٍ، لا صخب فيه [2] ولا نصب) القصب هنا: معناه اللؤلؤ المجوَّف.

قال ابن هشام: حدثني من أثق به، أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ فقال: أقرىء خديجة السلامَ من ربها، فقال رسولُ الله ﷺ: «يا خديجةُ! هذا جبريلُ، يقرئك السلام من ربِّكِ، فقالت خديجة: الله السلام، ومنه السلام، وعلى جبريل السلام».

رضي اللهُ تبارك وتعالى عن خديجة، وأسكنها فسيح جناته.

٢٩ ــ الرسول الكريم ﷺ في منزل خديجة

تزوَّجَ سيدنا محمد ﷺ من خديجة بعد أن أصدقها عشرين بكرة، وقيل غير ذلك، بل أكثر، كما مر في حفلة عقد القرآن، على مرأى زعماء قريش من أهله وأهلها؛ وقد انتقل إلى بيتها، ليبدأ صفحةً جديدةً من صفحات

---

(١) إنه ﷺ تسرى بمارية القبطية فكانت سرية لا زوجة. هذا والأفضل أن يقال (زوجه) لا (زوجته). المحقق.

(٢) أنظر كتاب سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٥٩.

الحياة، صفحة الزوجية والأبوة، وليبادلها من جانبه حبّ الشباب وهو في الخامسة والعشرين من عمره، ولم يعرف نزوات الشباب ولا طيشه، ولا جاهليته.

وأقام ﷺ مع زوجه ذات الحسب والنسب والجمال والغنى والشرف، وقد أغناه الله تعالى بزواج خديجة. وكان تام الصفات، كامل الآداب، واسع التفكير، قليل الكلام كثير الإنصات، ميّالاً للجدّ من القول؛ وكان يمزح ولا يقول إلا حقاً، وكان يضحك أحياناً حتى تبدو نواجذه، وكان يكظم غيظه، ولا يريد أن يظهر غضبه، لما جُبل عليه من سعة الصدر، وصدق اللهجة، والوفاء للناس، وإلى جانب ذلك، ثبات العزيمة، وقوة الإرادة، وشدة البأس ومضاء التصميم مضاء لا يعرف التردد؛ فمن رآه بديهةً هابه، ومن خالطه أحبّهُ، وقد عاش مع زوجه خديجة، عيشة مرضية، كلها وفاء ومحبة، ومودة صادقة، ووفاء كامل.

٣٠ ــ تجديد بناء الكعبة

سنة (٦٠٥)م

الكعبة: هي بيت الله تبارك وتعالى، وهو بناء مربّع الشكل في وسط المسجد الحرام؛ وجاء في كتب اللغة: كل بناء مربع الشكل هو كعبة.

باب الكعبة مرتفع على[1] الأرض نحو قامة.

وقد بنى الكعبة سيدنا إبراهيم خليل الله ورسوله، عليه السلام، وهو من أولي العزم، أرسله الله تبارك وتعالى إلى الكلدانيين، في جنوب مدينة بابل في القطر العراقي؛ وكانوا يعبدون النجوم والأوثان من دون الله الرحيم الرحمن، فقاوموه وتآمروا على حرقه؛ وقد حفظه الله تعالى من نارهم، قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿قالوا: حرّقوهُ وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين، قلنا يا نارُ كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾[2]. ثم ترك السيد إبراهيم قومه حين عصوه، وهاجر إلى

---

(١) الأفضل (عن) لا (على). المحقق.

(٢) من سورة الأنبياء الآيتان (٦٨-٦٩).

مدين، وهناك أمره الله تعالى بالهجرة بولده إسماعيل وأمه هاجر إلى بلاد العرب؛ وإسماعيل أكبر ولد إبراهيم عليه السلام، كان اسمه أشمويل[1]، وأمه هاجر من القبط، من قرية أمام الفَرَمَى قريب من فسطاط مصر، وهاجر إبراهيم إلى مكة ومعه إسماعيل وهو ابن سَنتين وأمه هاجر. ثم تركها[2] وانصرف إلى الشام.

وإسماعيل عليه السلام أول من تكلّم بالعربية، وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وكان كلام الناس قبل ذلك اللغة العبرانية، ولما بلغ إسماعيل عشرين سنة، توفيت أمه هاجر، وهي ابنة تسعين سنة، فدفنها إسماعيل في الحجر؛ وأوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام، أن يبني البيتَ، فبناه معه. وتوفي إسماعيل بعد أبيه، فدفن داخل الحجر مما يلي الكعبة مع أمه هاجر، كما جاء في كتب المؤرخين المعتبرة.

فلما أمر الله خليله إبراهيم بالهجرة بولده إسماعيل وأمه، قصدوا مكة، ثم أمره الله ببناء الكعبة.

قال السيد الإمام التقي الفاسي: بناء الخليل إبراهيم عليه السلام الكعبة ثابت بالكتاب والسنة، قال الله تعالى: ﴿وإذ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ من البيت، وإسماعيلُ، ربّنا تقبّلْ منّا إنكَ أنتَ السميعُ العليم﴾[3].

وروى المؤرخ الكبير في تاريخه، عن ابن إسحاق: أن الخليل عليه الصلاة والسلام، لما بنى البيتَ، جعل طوله في السماء تسعة أذرع، وجعل طوله في الأرض من قبل وجه البيت الشريف من الحجر الأسود إلى الركن الشامي اثنين وثلاثين ذراعاً، وجعل عرضه في الأرض من قبل الميزاب من الركن الشامي إلى الركن الغربي الذي يسمى الآن الركن العراقي اثنين وعشرين ذراعاً، وجعل طوله في الأرض من جانب ظهر البيت الشريف من الركن

---

(١) أنظر كتاب محمد رسول الله ص ٤٣.

(٢) الصواب (تركهما) لعود الضمير على هاجر وابنها إسماعيل. المحقق.

(٣) من سورة البقرة آية (١٢٧).

الغربي المذكور إلى الركن اليماني أحداً [1] وثلاثين ذراعاً، وجعل عرضه في الأرض من الركن اليماني إلى الحجر الأسود عشرين ذراعاً، وجعل الباب لاصقاً بالأرض غير مرتفع عنها، ولا مبوَّب، حتى جعل لها تُبَّعُ الحميري باباً، وغلقاً بعد ذلك [2].

ومقام إبراهيم عليه السلام بإزاء وسط البيت الذي فيه الباب.

قال ياقوت الحموي في كتابه (معجم البلدان): إن خصائص الكعبة كثيرة، وفضائلها لا تحصى، ولا يسع كتابنا إحصاء الفضائل، وليست أمة في الأرض إلا وهي تعظّم ذلك البيت، وتعترف بقدمه وفضله، وأنه من بناء إبراهيم عليه السلام، حتى اليهود والنصارى والمجوس والصابئة، وقد بقيت الكعبة على هيئتها، من عمارة إبراهيم عليه السلام إلى أن بلغ النبي ﷺ خمساً وثلاثين سنةً من عمره؛ فخافت قريش أن تهدَّم لتصدُّع جدرانها، بسيل دخلها بعد حريقٍ أصابها، وكانت رضماً [3] فوق القامة، وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جُدَّة فتحطمتْ، فخرج الوليدُ بنُ المغيرة في نفرٍ من قريش، فابتاعوا خشبها، وأعدُّوه لتسقيفها، وكان بمكة نجار يدعى باقوم، مولى سعيد بن العاص [4]، وصانع المنبر الشريف، فأمروه أن يلي بناء الكعبة.

وكان رسول الله ﷺ ينقل الحجارة معهم، فلما بلغ البناء موضع الحجر الأسود، اختلفوا فيمن يضع الحجر موضعه، وأرادت كل قبيلةٍ رفعه إلى موضعه، دون الأخرى، حتى تواعدوا للقتال، ثم تشاوروا وجعلوا بينهم حكماً، هو أول من يدخل من باب الصفا؛ فلما رأوا أول من دخل منه، محمد ﷺ قالوا: هذا الأمين، رضينا بحكمه وقصوا عليه قصتهم، وسمع هو ﷺ لهم، ورأى العدوة تبدو في عيونهم ففكّر قليلاً، ثم قال: هَلُمَّ إليَّ ثوباً، فأتي به، فنشره وأخذ الحجر الأسود فوضعه بيده فيه، ثم

---

(١) الصواب: (واحداً) لا (أحداً). المحقق.

(٢) أخبار مكة المكرمة للعلامة الأزرقي ج ١ ص ٦٤.

(٣) الرضم: أنه تنضّد الحجارة بعضها على بعض من غير ملاطٍ ــ طين ــ.

(٤) الصواب: (العاص) بدون ياء. المحقق.

قال: ليأخذ كبيرُ كلِّ قبيلةٍ بطرف من أطراف هذا الثوب، فحملوه جميعاً إلى ما يحاذي موضع الحجر من البناء بكل رغبةٍ، ثم تناوله سيدنا محمد ﷺ من الثوب ووضعه في موضعه وبذلك انحسم الخلاف، وانفضَّ الشر، وقضى رسول الله ﷺ على ما قام من فتنة كادت تشعل نار حرب أهلية بين قبائل مكة، قضى عليها رسولُ الله ﷺ بعقله الثاقب وحكمته البالغة، وسمو نفسه ونزاهته وأتمت قريش بناء الكعبة بعد عملية وضع الحجر الأسود، وجعلت ارتفاع جدرانها ثماني عشرة ذراعاً، ورفعوا بابها عن الأرض، ليُدخلوا من شاءوا، ويمنعوا من شاءوا، وجعلوا في داخلها ست دعائم في صفّين، وجعلوا في ركنها الشامي من داخلها درجاً يُصعد به إلى سطحها، ووُضع هبلُ في داخل الكعبة، كما وضعت في داخلها النفائس التي تعرَّضَتْ من قبل بنائها وسقفها، لمطامع اللصوص.

وجاء في كتاب تهذيب الأسماء، أن أول امرأة عربية كست الكعبة الحرير هي: نتيلة أم العباس، وسببه أن العباس ضاع وهو صغير فنذرت إن وجدته أن تكسوها فوجدته ففعلتْ.

٣١ ــ ردُّ شبهةٍ في تسميته الأمين ﷺ

جاء في كتاب المعارف البريطانية في ترجمة حياته ﷺ: أن تسميته بالأمين، مأخوذة من اسم أمه (آمنة) وإن كان العرب لا يجعلون علاقة بينهما في هذه التسمية [١].

هذا ما زعمه كاتب الترجمة، فهو يريد أن يقول: إن العرب لم يسموه أميناً لأمانته وصدقه، بل لأن اسم والدته آمنة، فلا فخر له ولا فضل. والحقيقة التاريخية الثابتة هي أنه ﷺ سمي أميناً لأمانته ونزاهته؛ ولذا استخدمته السيدة خديجة في تجارتها مع غلامها ميسرة إلى الشام، فربحت ربحاً طائلاً، ثم تزوجته لثقتها به ولأمانته، ثانياً: كانت قريش تستأمنه على الودائع والمجوهرات والنفائس، ثالثاً: يقول العلامة عمر بن الوردي في تاريخه [٢]: كانت

(١) أنظر كتاب (محمد رسول الله) ص ٤٥.

(٢) (المختصر في أخبار البشر) ج ١ ص ١٥٩.

الكعبة قصيرة البنيان فهدمتها قريش، ثم بنوها، حتى بلغ البنيان الحجر الأسود، فاختصموا فيه، وأرادت كل قبيلة رفعه إلى موضعه؛ ثم اتفقوا على تحكيم أول داخل من باب الحرم، فكان ﷺ أول داخل فقالوا: هذا الأمين، وعمره إذا ذاك خمس وثلاثون سنة، فحكموه، فأمرهم بوضع الحجر الأسود في وسط عباءة، ثم أمر كل قبيلة أن يأخذوا بطرف من العباءة، حتى انتهوا به إلى موضع الركن، فأخذه ﷺ ووضعه في موضعه، ثم أتموا البناء.

يؤخذ منه: أن رؤساء قريش القائمين بالبناء قالوا: (هذا الأمين) لأنه مشهور بذلك قبل بعثته ﷺ، وهذا يدحض قول المترجم، لدائرة المعارف البريطانية أن تسميته بالأمين، مأخوذة من اسم أمه آمنة. وجاء في تاريخ الطبري[1]، قوله: (وكانت قريش تسمي رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحي: الأمين).

وهذا يدحض قول المترجم أيضاً.

وقال المسيو (سيرللو) في كتابه تاريخ العرب ج١ ص ٥٨ قوله: (ولما بلغ محمد من العمر خمساً وعشرين سنة استحقّ بحسن سيرته، واستقامة سلوكه مع الناس، أن يلقب (بالأمين).

وقال موير[2]: إنه لقّب بالأمين، بإجماع أهل بلده لشرف أخلاقه.

٣٢ ــ معيشة النبي ﷺ قبل البعثة

لم يرث سيدنا محمد ﷺ من والده عبد الله شيئاً، بل ولد عليه الصلاة والسلام يتيماً، واسترضع في بني سعدٍ، ولما بلغ ﷺ مبلغاً يمكنه معه أن يعمل عملاً؛ كان يرعى الغنم مع إخوته من الرضاع في البادية. وكذلك لما رجع إلى مكة كان يرعاها لأهلها على قراريط كما شرح

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٢٠١.

(٢) أنظر كتاب تاريخ حياة محمد ص ٢٠.

ذلك البخاري في صحيحه؛ ووجود الأنبياء في حال التجرد عن الدنيا ومفاتنها ومشاغلها أمر لا بدَّ منه، لأنهم لو وجدوا أغنياء لألهتهم الدنيا، وشغلُوا بها عن السعادة الأبدية، ولذلك ترى جميع الشرائع الإلهية متفقة على استحسان الزهد فيها، والتباعد عنها؛ وحال الأنبياء السالفين، أعظم شاهدٍ على ذلك، فكان عيسى عليه السلام أزهد الناس في الدنيا، وكذلك كان موسى وإبراهيم ونوح، عليهم السلام، وكانت حالتهم في صغرهم ليست متَّسعةً، بل كلهم سواء؛ تلك حكمة بالغة أظهرها الله تعالى على أنبيائه وأصفيائه، ليكونوا نموذجاً لمتَّبعيهم في الامتناع عن التكالب على الدنيا، والتهافت عليها؛ وذلك سبب البلايا والمحن، وكذلك رعاية الغنم، فما من نبي إلا رعاها، كما أخبر الصادقُ المصدوق في حديث رواه البخاري في صحيحه، وهذه أيضاً من بالغ الحِكَم، فإن الإنسان إذا استرعي الغنم وهي أضعف البهائم سكن قلبُهُ الرأفةُ واللطفُ تعطفاً، فإذا انتقل من ذلك إلى رعاية الناس كان لما هُذِّبَ أو لا من الحدة الطبيعية، والظلم الغريزي، فيكون في أعدل الأحوال [1].

ولما شبَّ ﷺ كان يتاجر، وكان شريكُه: السائب[2] بن أبي السائب، وذهب بالتجارة للسيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها إلى الشام على جُعلٍ يأخذه.

ولما تشرَّفَتْ السيدةُ خديجة بزواجه، وكانت ذات يسارٍ، عمل في مالها وكان يأكل من كسب يده وما يقوم به من أعمال.

وحقَّق اللهُ ما امتنَّ به عليه بقوله جل شأنه: ﴿ألم يجدك يتيماً فآوى، ووجدك ضالاً فهدى، ووجدك عائلاً فأغنى﴾[3] والإغناء قبل النُبوة، والهداية بالنبوة، هداه للكتاب المبين القرآن الكريم، والإيمان به، ودين إبراهيم عليه السلام؛ ولم يكن ﷺ يدري ذلك قبل، قال الله تعالى: ﴿وكذلكَ

---

(١) في العبارة بعض الركاكة. والصواب حذف كلمة (فيكون) ليستقيم المعنى. المحقق.

(٢) في الأصل (السائبُ) بالرفع والصواب نصبها. أو رفعها ونصب ما قبلها. أما رفعهما معاً فلا. المحقق.

(٣) من سورة الضحى الآيات (٦، ٧، ٨).

أوحينا إليكَ روحاً من أمرنا ما كنتَ تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشآء من عبادنا، وإنكَ لتهدي إلى صراطٍ مستقيم، صراط اللهِ الذي له ما في السموات وما في الأرضِ، ألا إلى اللهِ تصيرُ الأمور﴾ (١).

قال ابن كثير في تفسيره ج ٤ ص ١٢٢ قوله تعالى: ﴿روحاً من أمرنا﴾ أي القرآن. وقال الخطيب الشربيني في تفسيره ج ٣ ص ٤٤٧: ﴿روحاً من أمرنا﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: نبوة، وقال الحسن: رحمة، وقال السري: وحياً، وقال الكلبي: كتاباً، وقال الربيع: جبريل، وقال مالك بن دينار: القرآن.

٣٣ ــ سيرته ﷺ قبل البعثة في قومه

كان سيدنا محمد ﷺ أحسن قومه خلقاً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال، كان مثالاً صالحاً، ومناراً للاهتداء بآدابه حتى كان أفضل قومه مروءة، وأسدّهم رأياً، وأكرمهم مخالطةً وخيرهم جواراً، وأعظمهم حلماً، وأصدقهم حديثاً، وقد سمته قريشٌ ــ كما مر سابقاً ــ (بالأمين) لما جمع الله تعالى فيه من الأمور الصالحة الحميدة، والفعال السديدة؛ من الحلم والشكر والعدل والتواضع والعفة والجود والشجاعة والحياء والمعرفة، حتى شهد له بذلك ألدُّ أعدائه وخصومه النضر بن الحارث من بني عبد الدار حيث يقول (٢): قد كان محمد فيكم غلاماً حَدَثاً، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم، قلتم: ساحر؛ لا والله! ما هو بساحرٍ؛ قال ذلك في معرض الاتفاق على ما يقولونه للعرب، الذين يحضرون الموسم. حتى يكونوا متفقين، على قول مقبول يقولونه.

---

(١) من سورة الشورى الآيتان (٥٢ و٥٣).

(٢) أنظر نور اليقين للخضري بك ص ١٧.

ولما سأل هرقل ملكُ الروم أبا سفيان قائلاً: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، فقال هرقل: ما كان ليدع الكذب على الناس، ويكذب على الله، ورد ذلك في أول صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى.

وقد حفظه الله تبارك وتعالى في صغره من كل أعمال الجاهلية، التي جاء شرعه الشريف بضدّها[1]، ومحقها، وقد بُغّضت إليه الأوثان بغضاً شديداً، حتى إنه ما كان يحضر لها احتفالاً أو عيداً مما يقوم به عبادها قال ﷺ: «لما نشأت بُغِّضَتْ إليّ الأوثان، وبُغِّضَ إليَّ الشعر، ولم أهمَّ بشيء مما كانت الجاهليةُ تفعله إلا مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك، ثم ما هممتُ بسوء بعدهما. حتى أكرمني الله برسالته».

وكان ﷺ لا يأكل مما ذبح على النصب[2] أو ذبح لغير الله، وقد حرَّم شرب الخمر على نفسه مع شيوعه في قومه شيوعاً عظيماً، أبته نفسه الشريفة، وكان يكره الناس بشربه[3] قبل بعثته ﷺ. هذه سيرته في قومه قبل بعثته، وهذه أخلاقه العالية، وآدابه السامية التي جلاّهُ الله تعالى بها، كما جلاَّ أنبياءهُ، ليكونوا على تمام الاستعداد، لتلقيّ وحيه وشرعه، فهم معصومون من الأدناس قبل النبوة وبعدها.

أما قبل النبوة فليتأهلوا للأمر العظيم الذي سيسند إليهم.

وأما بعدها فليكونوا قدوة لأممهم وشعوبهم عليهم الصلاة وأتم التسليم.

٣٤ ــ ما أكرمه الله تعالى به قبل النبوة

أول منحةٍ من الله تبارك وتعالى ما حصل من البركات على آل حليمة الذين كان مسترضعاً فيهم، فقد كانوا قبل حلوله في بيوتهم مجدبين ممحلين،

---

(١) أنظر كتاب الشفا للقاضي عياض.

(٢) النصب: هي حجارة منحوتة بيد الإنسان تنصب لإراقة دماء الذبائح التي تقرب للأوثان التي تعبد من دون الله سخافة وجهلاً.

(٣) لو قال (يُكرِّه الناس في شربها) لكان أفضل. المحقق.

فلما صار بينهم، صارت غنمهم تؤوب من مرعاها، وإن أضراعها لتسيل لبناً غزيراً ــ أي حليبها[1] ــ ويرحم الله البوصيري حيث يقول في همزيته:

وإذا سخّر الإله أناساً لسعيد فإنهم سعداء

ثانياً: ما أعقب من شق صدره الشريف، وإخراج حظّ الشيطان منه، وليس هذا بالعجيب على قدرة الله تعالى القادر المقتدر؛ فمن استبعد ذلك كان قليل النظر، لا يعرف من قوة الله تعالى شيئاً، لأن خرق العادات للأنبياء ليس بالأمر المستحدث ولا المستغرب؛ ومن الكرامات الإلهية لعبده وحبيبه ورسوله: أن سخر الغمامة له في سفره إلى الشام حتى كانت تظله في اليوم الصائف، ولا يشترك معه أحدٌ في القافلة كما روي ذلك عن ميسرة غلام خديجة الذي كان مشاركاً له في سفره وهذا ما حبّبه إلى قلب السيدة خديجة رضي الله عنها، حتى خطبته لنفسها، وتيقنت أن له في المستقبل شأناً؛ ولذا كانت أسرع الناس إيماناً به لما جاءته الرسالة، ولم تنتظر آيةً أخرى، زيادة على ما علمته ولمسته بنفسها من مكارم أخلاقه ﷺ وما سمعته من خوارق العادات؛ ومن منن الله تبارك وتعالى عليه ما كان يسمعه من السلام عليه من الأحجار والأشجار.

جاء في كتاب (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون)[2] عن سمرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلّم عليَّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن».

وجاء في رواية: هو الحجر المعروف بزقاق الحجر، وسمي الشارع بذلك. وذكر أنه ﷺ اتكأ عليه بمرفقه، وهو الذي يقال له: زقاق المرفق، وهو غير الذي به أثر أصابعه[3] ﷺ.

قال الإمام الفقيه والمحدث السبكي رحمه الله تعالى في تائيته:

---

(١) ما مقصد المؤلف من هذه الكلمة التفسيرية؟ إن كان يقصد أنها تفسير لكلمة (أضراعها) فغير صحيح لأن (أضراع) جمع (ضرع) وهو الثدي. المحقق.

(٢) ج ١ ص ٣٦١ عند قوله: (باب سلام الحجر والشجر عليه ﷺ قبل مبعثه).

(٣) (الحجر الذي به أثر أصابعه ﷺ) لا ندري مدى صحة هذا. المحقق.

وما جزتَ بالأحجار إلا وسلّمتْ عليكَ بنطقٍ شاهدٍ قبلَ بعثةِ

وقال مؤلف سيرة الأمين المأمون:

لم يبقَ من حجرٍ صلبٍ ولا شجرٍ إلا وسلّم بل هنّاهُ ما وُهِبَا

وقال صاحب الهمزية رحمه الله تعالى:

والحجاراتُ أفصحتْ بالذي أخرس عنه لأحمدَ الفصحاء

أي الحجارات التي لا روح فيها، نطقت بكلام فصيح لا تلعثم فيه وشهدت برسالته ﷺ، ولم تنطق كفار قريش وهم الفصحاء بالشهادة له. وجاء في حديث السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: «قال رسول الله ﷺ: لما أوحي إليَّ جعلتُ أمرُّ بحجرٍ إلا قال: السلام عليك يا رسول الله».

وقال الإمام البوصيري في بردته:

جاءت لدعوته الأشجار ساجدةً تمشي إليه على ساقٍ بلا قدم

وكان صلى الله عليه وسلم إذا خرج لقضاء حاجته أبعد حتى لا يراه أحد، وقد يفضي إلى الشعاب وبطون الأودية، فلا يمر بحجرٍ ولا شجرٍ إلا سمع: الصلاة والسلام عليك يا رسول الله، وكان يلتفت عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحداً؛ وقد حدَّث بذلك عن نفسه، وليس في ذلك كبير إشكال، فقد سخّر الله الجمادات للأنبياء قبله، فعصا موسى عليه السلام التقمت ما صنع السحرة لفرعون، بعد أن تحولت حية تسعى، ثم رجعت كما كانت؛ ولما ضرب بها الحجر نبع منه الماء اثنتي عشرة عيناً، لكل سبطٍ من أسباط بني إسرائيل عين، وكذلك غيره من الأنبياء، سخّر الله لهم ما شاء من أنواع الجمادات، لتدلّ العقلاء على عظيم قدرهم، وخطارة شأنهم [1].

٣٥ ــ احترام سيدنا محمد ﷺ نفسه

كان سيدنا محمد ﷺ بريئاً من التصنع والرياء، مستقلّ الرأي، لا يدعي ما ليس فيه، ولم يكن متكبراً، ولا ذليلاً ضرعاً، يخاطب

(١) أنظر كتاب (نور اليقين في سيرة سيد المرسلين) لمحمد خضري بك ص ١٩.

الناس على قدر عقولهم، و يوجّه قياصرة الروم وأكاسرة العجم بالحق المبين، و يرشدهم إلى ما يجب أن يكونوا عليه في هذه الحياة، وما يجب أن يُعدُّوهُ للآخرة؛ وما أحرانا أن نهتدي بهديه ونتأدب بآدابه، ونتخلق بأخلاقه.

كان ﷺ يعرف لنفسه قدرها: ماضي العزم، لا يؤخر عمل اليوم إلى غدٍ؛ ما عبث قط، ولا ظهر شيء من اللهو واللعب في قوله أو فعله؛ بل كان الأمرُ عنده أمر فناء أو بقاء، ولم يكن من شأنه التلاعب بالأقوال، والقضايا الجدلية المؤدية إلى العبث بالحقائق؛ بل كان يكره أن يحوط نفسه بمظاهر كاذبة، ولم يكن طامعاً لملكٍ من وراء ذلك، إلا إنقاذ الناس من الظلمات إلى النور، ومن العماية والجهالة، إلى نور المعرفة واليقين، والإيمان بخالق الكون، ولتربية البشر على الطهر والعفاف بمجتمع نظيف ويكون هو ﷺ نبراساً للجميع، ونوراً يهتدي به السالكون، وعلماً مرفوعاً أمام العالمين للاقتداء به، والاتّصاف بمزاياه العالية، وآدابه السامية.

٣٦ ــ فضائل محمد الاجتماعية ــ جوده وسخاؤه

كان ﷺ يعجّل بالإحسان والصدقة والمعروف، ولذا كان أشرح الخلق صدراً، وأطيبهم نفساً؛ فإن للصدقة والبذل تأثيراً عجيباً في شرح الصدر.

وكان عالي الهمم، وافر الفضل والكرم، مطبوعاً على السخاء، سهل الإنفاق، يعين على النوائب، ويحمل الكلّ، ويكسب المعدوم، يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، لا يدّخر شيئاً من يومه لغده وما سئل عن شيء فقال: لا؛ جاء في صحيح الإمام البخاري: أنه ﷺ أُتيَ بمالٍ من البحرين فقال: انثروه ــ وكان أكثر مالٍ أُتيَ به ــ فخرج ﷺ إلى المسجد، ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة، جاء فجلس إليه، فما كان يرى أحداً إلا أعطاه، وما قام ﷺ وثَمَّ منها درهم.

وأتتْهُ امرأة ببردة، فقالت: يا رسول الله! أكسوكَ هذه، فأخذها ﷺ محتاجاً إليها، فلبسها، فرآها عليه رجلٌ من الصحابة، فقال: يا رسول الله! ما أحسن هذه، فاكْسُنيها، فقال: نعم، فلما قام ﷺ محتاج إليها، وأنه لا يُسأل

عن شيء، فيمنعه، قال الصحابي: أردتُها لأكفِّنَ بها وقد لامست جسد النبي ﷺ.

وحُمِلَ إليه تسعون ألف درهم، فوضعها على حصير، ثم قام إليها، فقسَّمها، فما ردَّ سائلاً حتى فرغ منها؛ وجاء رجلٌ فسأله فقال: ما عندي شيء، ولكن ابتَعْ عليَّ، فإذا جاءنا شيء قضيناه، فقال عمر: يا رسول الله! ما كلفكَ اللهُ ما لا تقدر عليه، فكره النبيُّ ﷺ ذلك، فقال رجلٌ: أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالاً. فتبسم النبيُّ ﷺ وظهر السرورُ في وجهه.

ولما قفل من حنين، جاءت الأعراب يسألونه حتى اضطرُّوه إلى شجرة فخطفتْ رداءه، فوقف رسولُ الله ﷺ وقال: أعطوني ردائي، لو كان لي عدد هذه العِضاه نعماً، لقسمتُها بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً.

قال صفوان بن أمية: لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لمن أبغض الناس إليَّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحبّ الناس إليَّ، إني أشهد ما طابت بهذا إلا نفس نبيٍّ، وإنما أعطاه ﷺ العطاء الكثير؛ لأنه علم أن داءه لا يبرح [1] إلا بهذا الدواء، فعالجه به حتى برىء من داء الكفر وأسلم. وقد شكت إليه ابنته فاطمة ما تلقى من خدمة البيت، وطلبت منه خادماً يكفيها مئونة بيتها، فأمرها أن تستعين بالتسبيح والتكبير والتحميد، وقال: لا أعطيكِ وأدعُ أهل الصفة تُطوَى بطونُهم من الجوع.

وجاء رجل إلى النبي ﷺ يسأله، فقال عليه الصلاة والسلام: اجلس سيرزقك الله، ثم جاء آخرُ فقال لهم: اجلسُوا فجاء رجلٌ بأربع آواق فأعطاها إياه وقال يا رسول الله: إن هذه صدقة، فدعا الأول، فأعطاه أوقية، ثم دعا الثاني، فأعطاه أوقيةً، ثم دعا الثالث فأعطاه أوقية، وبقيت معه ﷺ أوقية واحدة، فعرض بها للقوم، فما قام أحد إلا واكتفى. وكان جوده ﷺ كله لله، وفي ابتغاء مرضاته تعالى فإنه كان يبذل المال تارة لفقير أو محتاج، وتارة ينفقه في سبيل الله وتارة

(١) الصواب (لا يبرأ). المحقق.

يتألّفُ به قلوباً للإسلام؛ وكان يؤثر على نفسه وأولاده، فيعطي عطاء يعجز عنه الملوك مثل كسرى وقيصر، ويعيش في نفسه عيش الفقراء، فيأتي عليه الشهر والشهران، لا يوقد في بيته نار، وربما ربط الحجر على بطنه الشريف من شدة الجوع [1].

ويوم حفر الخندق ربط على بطنه حجرين كما شهد جابر بن عبد الله حيث قال ربط كل منا حجراً على بطنه من شدة الجوع، وربط رسول الله ﷺ حجرين، وكان يواصل الصيام إذا لم يجد الطعام.

وكان عليه الصلاة والسلام يعطي عطاء من لا يخشى الفقر.

أعطى صفوان غنماً، ملأت وادياً بين جبلين، فعاد صفوان بها إلى قومه وقال لهم: أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، وقد أسلمت العشيرة كلها؛ وقال صفوان: أشهد أنه ما طابت بهذا إلا نفس نبي فأسلم هو وأفراد عشيرته كلهم.

ويوم حنين قسّم ﷺ الأموال والإبل، وقد أعطى أبا سفيان أربعين أوقية من الفضة ومائة من الإبل.

وأعطى يزيد [2] ومعاوية ولدي أبي سفيان مائةً من الإبل.

وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل، ثم سأله مائة أخرى فأعطاه وأعطى النضر بن الحارث بن كلدة مائة من الإبل.

وأعطى أسيد بن حارثة الثقفي، والحارث بن هشام وصفوان، بن أمية، وقيس بن عدي، وسهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، والأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن حصن، ومالك بن عوف مثل ما أعطى للنضر كل واحدٍ مائة من الإبل.

وأعطى العباس بن مرداس أربعين من الإبل، ثم مائة أخرى. وكان مجموع ما أعطاه ﷺ أربعة عشر ألفاً وثمان مائة وخمسين رأساً من الإبل.

---

(١) أنظر إلى هذه الآثار المحمدية في كتاب (محمد المثل الكامل) لمحمد أحمد جاد المولى ص ٢٣.

(٢) في الأصل (يزيداً) منونة. والصواب بدون ألف لأنه ممنوع من الصرف للعملية ووزن الفعل. المحقق.

فكان ﷺ أكرم الناس كفاً، وأجودهم عطاء، وكان أجود الناس في شهر رمضان[1]، شهر القرآن، وشهر المغفرة والرضوان؛ جاء في الصحيحين عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «كان النبيُّ ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان، حين يلقاه جبريل، فيدارسه القرآن، وكان جبريلُ يلقاه كلَّ ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن، فلرسولُ الله ﷺ حين يلقاه جبريلُ أجود بالخير من الريح المرسلة». فكان ﷺ يؤثر الناس على نفسه وأهله وأولاده.

روى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن ترك ديناً فعليَّ، ومن ترك مالاً فلورثته».

تلك بعض شذرات من فضائل كرمه وجوده، التي لا يحصى لها عدٌّ، ولا يدرك لها أمد.

فصلَّى الله على سيدنا محمد، وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وأعطاه ــ كما أعطى ــ الله الوسيلة والفضيلة والمقام المحمود، وحشرنا[2] «من وفقنا لهذا» مع حبيبه ومصطفاه آمين.

٣٧ ــ شهادات عالية في رسول الله ومجتباه ﷺ

لقد جهد كلُّ منافسٍ ومعاندٍ، وكل زنديق وجاحد، أن يزري بحبيب الله سيدنا محمدٍ ﷺ في قولٍ أو فعل، أو عمل ﷺ يظفر بهفوةٍ في جدٍّ أو هزل، فلم يجد إليها سبيلاً، والحمد لله.

أي فضلٍ أعظم من فضلٍ، تشهد به الحسدة والأعداء، حيث لم يجدوا فيه مغمزاً لثالب أو قادح، ولا مطعناً لجارحٍ أو فاضح.

شهد الأنام بفضله حتى العدا ... والفضل ما شهدت به الأعداء

---

(١) كان ﷺ أجود الناس في رمضان وغير رمضان، إلا أنه كان أجود ما يكون في رمضان. المحقق.

(٢) في الأصل (وحشرناه) بزيادة هاء في آخره. والصواب ما أثبتناه. المحقق.

وحقيقٌ بمن بلغ من الفضائل غاياتها، واستكمل لغايات الأمور أدواتها، أن يكون لزعامة العالم مؤهلاً، وللقيام بمصالح الخلق مؤمَّلاً، وقد صدق الله ربُّ العالمين حيث يقول:

﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾(١).

١ ــ شهد للنبي ﷺ ألدُّ أعدائه وخصومه قديماً (النضر بن الحارث) من بني عبد الدار حيث قال: (قد كان محمدٌ فيكم غلاماً حدثاً، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم، قلتم: ساحر، لا والله! ما هو بساحرٍ)(٢).

٢ ــ قال الحسين رضي الله عنه: سألت أبي عن سيرة النبي ﷺ في جلسائه، فقال: «كان النبيُّ ﷺ دائمَ البشرِ، سهل الخلقِ ليّنَ الجانب، ليس بفظٍّ، ولا غليظٍ، ولا صخّابٍ، ولا فحاشٍ، ولا عيّابٍ، ولا مدّاحٍ، يتغافل عما لا يشتهي، ولا ييئس منه راجيه، قد ترك نفسه من ثلاث: كان لا يذمُّ أحداً، ولا يعيبه، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما رجَا ثوابَهُ، وإذا تكلم أطرق جلساؤه، كأنما على رؤوسهم الطير، فإذا سكتَ تكلموا، لا يتنازعون عنده؛ مَنْ تكلَّم عنده، أنصتوا له حتى يفرغ حديثهم عنده حديثُ أولهم، يضحك مما يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة من منطقه، ولا يقطع على أحد حديثه، حتى يجوز فيقطعه بنهي أو قيام» هذه شهادة سيدنا علي في صفة رسول الله ﷺ.

٣ ــ وقال المسور بن مخرمة، قلتُ لأبي جهل: وكان خالي، ومعروف بعداوته للنبي ﷺ، يا خال! هل كنتم تتهمون محمداً بالكذب قبل أنه يقول مقالته؟ فقال: والله! يا ابن أختي لقد كان محمدٌ وهو شاب يدعى فينا (الأمين) فلما خطَّه الشيبُ لم يكن ليكذب؛ قلت: يا خال! فَلِمَ لا تتبعونه؟ فقال: يا ابن أختي: تنازعنا نحن وبني هاشم الشرفَ، فأطعموا

---

(١) الآية رقم (١٠٧) من سورة الأنبياء. المحقق.

(٢) أنظر كتاب (نور اليقين) للخضري بك ص ١٧.

وأطعمنا، وسقوا وسقينا، وأجاروا وأجرنا فلما تجاثينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي فمن أين نأتيهم بهذه؟

وهكذا يشهد ألدُّ أعدائه قديماً والفضل ما شهدت به الأعداء.

٤ ــ وقال حديثاً المسيو الدكتور (أدوارد مونته): إن الرسول الأكرم، تمثالٌ للشعور والإدراك، وعقلُه منوَّرٌ بكمال اليقين، وضياء الإيمان؛ إن ذلك الرسول ﷺ قد هيَّج معاصريه بعين هذا الهيجان، وجهرهم بهذه الصفات؛ إن محمداً ﷺ قد سما بما أجراه من إصلاحات، بالوحي الإلهي، إن دين محمدٍ متمايل لإلهام القواعد العقلية، إن أساسات عقائد الإسلام يتلخّص بكلمتين: (الله واحد) و (محمد رسوله) الحق والحقيقة إذا تأملنا بالدقة، أساسات الإسلام، وجدناها راجعة إلى توحيد الله؛ ورسالة محمد منتهية إلى اعتقاد الحشر والنشر؛ الحق والحقيقة إن هاتين الكلمتين تلقَّاهما المتمسكون بالدين، مستندين إلى العقل والمنطق، وإنها زبدة العقيدة القرآنية، إن ما في إفادة القرآن من البساطة والصفوة والسلامة، كانت سائغةً وخادمةً لانتشار الإسلام وإعلائها [1]، إن التعليمات المبلَّغة من قبل الرسول، والشاملة لترقيات العالم، مقتبسة من القرآن الذي هو المنبع والملجأ للمسلمين، إن اللسان الذي يقرر بكمال التقديس والإقناع من بين الكتب المنزلة، ليس إلا لسان القرآن.

فيا هذا إن ديناً كان مخزناً لكيتْ وكيتْ من الأسرار، وكان بشاشاً ضحاكاً في وجوه الناظرين القارئين، ومنفتحاً لتدقيق كل إنسان، لا شك أنه حائز لقدرة معجزةٍ جالبةٍ لنوع الإنسان، نعم. إن الإسلامية [2] حائزة لتلك القوة والقدرة [3].

اقرأ يا أخي بتدبر وإمعان هذه الشهادة من الدكتور (منته) عن الإسلام

---

(١) لعل الصواب (وإعلائه). المحقق.

(٢) الأرجح (إن الشريعة الإسلامية). المحقق.

(٣) أنظر كتاب (إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز) ج ٦ ص ١٣٤.

والرسول عليه الصلاة والسلام، والقرآن الكريم؛ إنها تكفيكَ في معرفة النبي ﷺ ودينه القويم وشريعته الخالدة.

٥ ــ وقال (وليم موير): لم يشهد التاريخ مصلحاً، أيقظ النفوس، وأحيا الأخلاق، ورفع شأن الفضيلة في زمنٍ قصير، كما فعل محمد ﷺ [١].

٦ ــ وقال الكاتب الكبير (برنارد شو): (لو أن محمداً بعث في هذا العصر الحديث، لنجح نجاحاً تاماً، في حلّ المشكلات العالمية، وقاد العالم إلى السعادة والسلام) [٢].

ولدينا شهادات كثيرة في سيد المرسلين وحبيب رب العالمين، و يكفيه فخراً أن الله تبارك وتعالى خاطبه في كتابه العزيز بقوله: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[٣].

وصدق الصادق المصدوق حينما قال: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجلٍ بنى بنياناً فأحسنه، وأجمله، إلا موضع لبنةٍ من زاو يةٍ من زواياه، فجعل الناس يطوفون به و يعجبون له، و يقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين» متفق عليه واللفظ لمسلم.

٣٨ ــ الباحثون عن دين إبراهيم خليل الله عليه السلام

في الجاهلية قبل أن يبعث رسول الله ﷺ، قد استنكر جماعة من العرب عبادة الأصنام، وأدركوا أنها حجارة صماء، لا تنفع أحداً ولا تضره.

حدث أنه بينما كانت قريش مجتمعة يوماً في عيدٍ لهم عند صنمٍ من أصنامهم يعتكفون عنده، و يدورون حوله، و يطلبون منه قضاء حاجاتهم وكان ذلك عيداً لهم كل سنة إذ خلص منهم أربعة وهم كل من:

---

(١) أنظر كتاب (لماذا أومن بالقرآن) للأستاذ الكبير هلال علي هلال ص ١٤٩.

(٢) أنظر نفس المصدر السابق ص ٢٢٧.

(٣) الآية رقم (١٠٧) من سورة الأنبياء. المحقق.

١ ــ ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزّى.

٢ ــ وعبيد الله بن جحش بن رئاب.

٣ ــ وعثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزّى.

٤ ــ وزيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزّى.

إن هؤلاء الأربعة تحدَّثُوا عن دينٍ صحيح، وأخذوا يبحثون عنه، وتحادثوا فيما بينهم عن انتشار عبادة الأصنام التي لم يقبلها العقل الصحيح.

١ ــ فأما ورقة بن نوفل، وهو ابن عم خديجة، فاستحكم في النصرانية، واتبع الكتب في أهلها حتى علم علماً من أهل الكتاب.

٢ ــ وأما عبيد الله بن جحش، فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة، ومعه امرأته أم حبيبة ابنة أبي سفيان مسلمةً، ثم تنصَّر وفارق الإسلام، حتى هلك نصرانياً، وخلف رسول الله ﷺ بعده، على امرأته أم حبيبة[1].

٣ ــ وأما عثمان بن الحويرث، فقدم على قيصر ملك الروم، فتنصَّر وحسنتْ منزلته عنده.

٤ ــ وأما زيد بن عمرو بن نفيل، فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه، فاعتزل الأوثان وعبادة الأصنام.

وقد أسلم ابن لزيد بن عمرو، واسمه سعيد بن زيد وكان من أكابر الصحابة وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة على لسان سيدنا محمد ﷺ. وقد سئل النبي ﷺ عن زيد بن عمرو فقال عنه: «يبعث أمة وحده يوم القيامة».

وكان يتعبد في الجاهلية، ويطلب دين إبراهيم الخليل عليه السلام، ويوحّد الله تعالى ويقول: (إلهي إله إبراهيم، وديني دين إبراهيم) وكان يعيب على قريش ذبائحهم، ويقول: (الشاة خلقها الله، وأنزل لها من السماء ماء، وأنبت لها من الأرض، ثم تذبحونها على غير اسم الله). إنكاراً لذلك وإعظاماً

---

(١) أنظر كتاب (محمد رسول الله) ص ٦٥.

له؛ وكان لا يأكل مما ذبح على النصب، واجتمع به رسول الله ﷺ بأسفل وادي بلدح[1]، قبل البعثة وكان زيد يحيي المؤودة.

قال له رسول الله ﷺ: يا زيد! مالي أرى قومك قد شنفوا لكَ؟ ــ أي أبغضوك ــ قال: والله يا محمد! إن ذلك لغير نائلةِ ترةٍ لي فيهم، ولكن خرجتُ أبتغي هذا الدين حتى أقدم على أحبار خيبر، فوجدتهم يعبدون الله ويشركون به، فقلت: ما هذا الدين الذي أبتغي، فخرجت فقال لي شيخ منهم: إنك لتسأل عن دينٍ ما نعلم أحداً يعبد الله به إلا شيخاً بالحيرة.

قال: فخرجتُ حتى أقدم عليه، فلما رآني قال: ممن أنتَ؟
قلتُ: أنا من أهل بيت الله، من أهل الشوك والقرظ.
قال: إن الذي تطلب قد ظهر ببلادك، قد بُعِث نبيٌّ قد طلع نجمُه، وجميع من رأيتَهم في ضلال.

قال: فلم أحسّ بشيء.
فلما مات زيد بن عمرو قال النبيُّ ﷺ به: «إنه يبعث يوم القيامة أمةً وحده».

وكان زيد بن عمرو إذا دخل الكعبة قال: لبيكَ حقاً حقاً، تعبداً ورقاً، عذتُ بما عاذ به إبراهيم.

توفي قبل مبعث النبي ﷺ فرثاه ورقة بن نوفل:

رشدت وأنعمت ابن عمرو وإنما ... تجنبت تنوراً من النار حاميا
بدينك رباً ليس رب كمثله ... وتركك أوثان الطواغي كماهيا
وقد يدرك الإنسانَ رحمةَ[2] ربه ... ولو كان تحت الأرض ستين ودايا[3]

---

(١) هو وادي قبل مكة من جهة الغرب.

(٢) في الأصل (رحمةَ) بالنصب. والصواب بالرفع لأنها فاعل (يدرك) والإنسان مفعول به مقدم. المحقق.

(٣) أنظر المصدر السابق ص ٦٨.

٣٩ ــ رد شبهة واهية عن حبيب الله ومصطفاه ﷺ في عالمية الاسلام

يقول المستر (كانون سل) في كتابه (حياة محمد):

(قال زيد وأصحابه: إنهم رغبوا في اتباع دين إبراهيم، و يظن أن محمداً أخذ منهم هذه الفكرة، ثم قال: بقي زيد حنيفاً، وعاب على أهل مكة عبادة الأصنام، فأثار ذلك غضبهم، فأرغم إلى ترك مكة، والإقامة في جبل حراء، و بعد أن أمضى هنالك زمناً يفكر توفي ودفن بأسفل الجبل، وقد كان له تأثير عظيم في محمد الذي كان يجلُّ شأنه، و يقدره قدره؛ ولا ريب أن هؤلاء الرجال وأمثالهم من ذوي العقول الراجحة، كانوا كثيراً ما يتشاورون و يتحادثون فيما وصلت إليه حالة العرب الاجتماعية من الانحطاط، و يأسفون لانتشار الوثنية، وضعف مركزهم السياسي، ولم ينجح عثمان بن الحويرث في تأسيس سلطة مركزية، لاعتماده على دولةٍ أجنبية، ومع ذلك كانت الحاجة تدعو إلى وجود سلطة مركزية، والاعتراف بالكعبة، وجعلها قوةً دينيةً للعرب جميعاً، فكيف الوصول إلى ذلك؟ وكيف يمكن إبطال عبادة الأصنام؟ إلى أن قال (كانون سل): وهنا سنحت الفرصة لظهور نبيّ، وقد كان استعداد لظهوره[1] قريباً، وما لبث أن ظهر نبيٌّ، قويُّ الشخصية، ذو فطنة سياسية فائقة، برسالةٍ محدودة للأمة العربية) اهـ.

أقول رداً على هذا الكاتب الذي قال: و يظن أن محمداً أخذ منهم هذه الفكرة... إن ظنه هذا لا يمت إلى الحقيقة التاريخية بصلة، وهو ظن والظنُّ أكذب الحديث، والحقيقة الناصعة أن النبي ﷺ ما كان يجتمع بأحدٍ، ويحادثه في شؤون العرب الدينية أو السياسية.

ثانياً أن زيد بن عمرو كان مضطهداً، ولم يجتمع بالنبي ﷺ سوى مرة في وادي بلدح، ولم يحصل غير ما ذكرته في حينه ولم يبعث ﷺ ليناقشه في أمر الدين، غير أنه سأله عن عداء قومه له.

---

(١) لعل الصواب (وقد كان الاستعداد لظهوره قريبا). المحقق.

ثالثاً: إن هذه المسألة، ليست مسألة اقتباس فكرة، فالقرآن الكريم وما حواه من فصاحة وبلاغة، وحكم وأمثال، وذكر أحوال الماضين من أبناء الرسل والأنبياء، والأمم السالفة، وأبناء المستقبل، وعلاقة الإنسان بخالقه، وعلاقته بغيره، والتشريع العظيم للأمم والشعوب لا يكون ذلك مصدره، اجتماع زيد بن عمرو ولا غيره برسول الله ﷺ مصادفة في وادٍ أو في طريق.

رابعاً: إننا فوق ذلك لا نعلم من تاريخ وسيرة رسول الله ﷺ أنه كان يتذاكر مع رجال، أو كانوا يعلمونه من صغره إلى أن صار نبياً، بل الثابت أنه كان أمياً لا يدري ما الكتابة والقراءة، ولا الدين وأصوله حتى أُوحيَ إليه.

ثم يقول في ختام ظنه وشبهته الواهية: (وما لبث أن ظهر نبيٌّ قوي الشخصية، ذو فطنةٍ سياسية فائقة برسالة محدودة للأمة العربية) لا وألف لا، ليست هذه الرسالة محدودة للأمة العربية، بل هي عامة للبشرية جميعاً، والأقوال الواردة عن الله في قرآنه، شاهدة على صحة ما نقول، لا كما تقول أنتَ؛ وإليك الحجة البالغة على تحطيم ظنك، وأن الشريعة الإسلامية عامة، وليست خاصة بالعرب.

١ ــ قال الله تعالى: ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين، ولتعلمنَّ نبأه بعد حين﴾[1].

٢ ــ وقال جل شأنه: ﴿إن هو إلا ذكر وقرآن مبين، لينذر من كان حياً، ويحقّ القول على الكافرين﴾[2].

٣ ــ وقال عز من قائل: ﴿تبارك الذي نزّل الفرقان[3] على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾[4].

---

(١) من سورة ص آية (٨٧-٨٨).

(٢) من سورة ياسين آية (٦٩-٧٠).

(٣) في الأصل (القرآن) بدل (الفرقان). المحقق.

(٤) من سورة الفرقان آية (١).

٤ ــ وقال جلَّ وعلا: ﴿وما أرسلناك إلا كافةً للناس بشيراً ونذيراً، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ (١).

٥ ــ وقال عز وجلَّ: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ (٢).

وإننا نكتفي بما ذكرنا من الآيات، فالآيات كثيرة، وكلها تشهد على عالمية الدعوة الإسلامية، وشمولها للبشرية جميعاً.

وما ظنك هذا وافتراؤك إلا كما افترى (نورمان دانيال) حيث قال: في كتابه الإسلام والعرب: (الإسلام والقرآن وما فيه من تأليف الراهب بحيرا، أعطاه محمداً أثناء وجوده في بلاد الشام).

أليس هذا الهراء والتضليل ناشيء عن حقد أسود، على الإسلام ورسوله؟ وهل يقوله عاقل نزيه؟

وقد شرحنا رحلة سيدنا محمدٍ ﷺ إلى الشام مع عمه، وضيافة هذا الحبر بحيرا للوفد، ثم رجوعه ﷺ إلى مكة بناء على نصيحة بحيرا، وكان عمره ﷺ تسع سنين كما هو مذكور في كتاب الكامل (٣). ثم هل التمس محمدٌ من بحيرا علماً؟ وهو صغير السن وهل أعطاه شيئاً أمام رجال القافلة التجارية؟ لا، اللهم هذا بهتان عظيم.

وبهذا: نحتج ونقيم الأدلة على كذب هؤلاء الحاقدين الذين يكتبون مضللين للشعوب، مخالفين للحق والحقيقة، و يكذبون فيما يدعون، وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً، والحمد لله رب العالمين.

٤٠ ــ عبادة الأصنام والأوثان

قال العلامة ابن سيدة: الصنم ينحت من خشب، و يصاغ من فضةٍ ونحاس، والجمع أصنام؛ وقيل: هو ما كان له جسمٌ أو صورة، فإن لم يكن له

---

(١) من سورة سبأ آية (٢٨).

(٢) من سورة الأعراف آية (١٥٨).

(٣) أنظر كتاب الكامل ج ١ ص ٢٣.

جسمٌ أو صورة فهو وثنٌ، قال ابن الأثير: الفرق بين الوثن والصنم، أن الوثن كل ماله جثّة معمولة من جواهر الأرض، أو من الخشب والحجارة، على صورة الآدمي تعمل وتنصب فتعبد، والصنم الصورة بلا جثة.

ومنهم من لم يفرق بينهما، وأطلقهما على المعنيين، قال: وقد يطلق الوثن على غير الصورة (١).

الوثنية ببلاد العرب ترجع إلى عهدٍ بعيد جداً، قيل: إن إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، لما سكن مكة، وولد له بها أولاد كثيرة، حتى ملأوا مكة، ونفوا من كان بها من العماليق، ضاقت عليهم مكة، ووقعت بينهم الحروب والعداوات، وأخرج بعضُهم بعضاً، فتفسَّحُوا في البلاد والتماس المعاش (٢).

وكان الذي حدا بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعنٌ، إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم، تعظيماً للحرم، وصبابةً بمكة؛ فحيثما حلُّوا وضعوه وطافوا به، كطوافهم بالكعبة تيمناً منهم، وصبابةً بالحرم، وحباً له، وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة، ويحجُّونَ و يعتمرون على إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. ثم أدَّى بهم إلى أن عبدوا ما استحبُّوا، ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره؛ فعبدُوا الأوثان، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم، واستخرجوا ما كان يعبدُ قومُ نوح عليه السلام منها على إرث ما بقي فيهم من ذكرها، وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتنسَّكون بها، من تعظيم البيت والطواف به، والحج والعمرة، مع إدخالهم فيه، ما ليس منه.

وكان أول من غيَّر دين إسماعيل عليه السلام، فنصب الأوثانَ، وسَيَّبَ السائبةَ، ووصل الوصيلة، وبحر البحيرةَ، هو عمرو بن ربيعة، هو لحيّ بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي، وهو أبو خزاعة؛ وكانت أم عمرو بن لحي فهيرة بنت عمرو بن الحارث.

---

(١) راجع لسان العرب لابن منظور.

(٢) أنظر كتاب الأصنام لأبي المنذر هشام.

وكان الحارث هو الذي يلي أمر الكعبة؛ فلما بلغ عمرو بن لحي نازعه في الولاية، وقاتل جرهماً ببني إسماعيل، فظفر بهم، وأجلاهم عن الكعبة، ونفاهم من بلاد مكة، وتولّى حجابة البيت بعدهم.

ثم إنه مرض مرضاً شديداً، فقيل له: إن بالبلقاء من الشام حمَّة، ــ هي الحمَّة في منحدرات الجولان وهي في يد إسرائيل الآن ــ[1] إن أتيتها برئتَ فأتاها، فاستحمَّ بها، فبرىء ووجد أهلها يعبدون الأصنام، فقال: ما هذه؟ فقالوا: نستسقي بها المطر، ونستنصر بها على العدوّ، فسألهم أن يعطوه منها، ففعلوا، فقدم بها مكة، ونصبها حول الكعبة؛ وقيل: أعطوه صنماً، يقال له (هُبَل) فقدم به مكة، فوضعه عند الكعبة، فكان أول صنمٍ وُضع بمكة[2].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قال النبي ﷺ: رفعت لي النار، فرأيتُ عمراً ــ عمرو بن لحي ــ رجلاً قصيراً أحمر أزرق، يجرُّ قصب في النار» وعمرو هذا هو أول من بحر البحيرة، ووصل الوصيلة،

وسيَّبَ السائبة، وحمى الحامي، وغيَّر دينَ إبراهيم، ودعا العرب إلى عبادة الأوثان.

وقد جاء في القرآن الكريم ذكر الأصنام الخمسة التي كان يعبدها قومُ نوح عليه السلام، قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿قال نوحٌ ربِّ إنهم عَصَوْني، واتَّبَعُوا من لم يَزِدْهُ مالُه وولدُهُ إلا خساراً، ومكَرُوا مكْراً كُبّاراً، وقالوا: لا تَذَرُنَّ آلهتكم، ولا تَذَرُنَّ وَدّاً ولا سُواعاً، ولا يَغُوثَ وَ يَعُوقَ ونَسراً، وقد أضَلُّوا كثيراً، ولا تَزِدِ الظالمينَ إلا ضَلالاً﴾[3].

ويقال: إن هذه الأصنام وجدها (عمرو بن لحي) في ساحل جدَّة، وفرَّقها، فأخذتها العربُ آلهة[4].

---

(١) الحمة: فيها عين حارة يستشفى بها من الأمراض.

(٢) أنظر كتاب (محمد رسول الله) ص ٦٢.

(٣) الآيات ٢١ إلى ٢٤ من سورة نوح. المحقق.

(٤) أنظر كتاب (محمد رسول الله) ص ٦٢.

عَبدُوا الحجارةَ يا لسقم نفوسهم هل في الحجارةِ مَنْ يجيبُ السائلا

ومن الأصنام المشهورة القديمة، (إساف ونائلة) عبدتهما خزاعةُ وقريش ومن حجَّ البيتَ بعد من العرب، وكانوا ينحرون و يذبحون عندهما.

و (مناة) كان منصوباً على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد، بين مكة والمدينة وكانت العربُ جميعاً تعظّمه، وتذبح حوله، ولم يكن أحدٌ أشدَّ إعظاماً له من الأوس والخزرج؛ وقد ورد ذكرُ (مناة) في القرآن الكريم، قال اللهُ تعالى: (ومناةَ الثالثةَ الأخرى)[1]، وكانت لهذيل وخزاعة، وقد هدمها سيدنا علي أبو الحسن رضي الله عنه، عند فتح مكة، بأمر رسول الله ﷺ.

(والفُلس)[2] وهو صنمٌ لطيء، هدمه أيضاً سيدنا علي رضي الله عنه، بأمر رسول الله ﷺ.

و (اللات) تأنيث اسم الله، وهي أحدث من مناة، وكانت صخرة مربعةً، وكانت قريشٌ كلُّها تعظّمها، وهي بالطائف، ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم فقال: ﴿ أفرأيتمُ اللاتَ والعُزَّى﴾[3]، ولم تزل كذلك، حتى أسلمت ثقيف؛ فبعث رسولُ الله ﷺ المغيرة بنَ شعبة فهدمها، وحرقها بالنار.

والطاغية هي اللات، كانوا يقولون لها: الرَّبَّة، وجاء في قاموس الإسلام ــ كتاب أجنبي ــ: أن (هيرودوت) لم يشر إلى الكعبة، لكنه ذكر اللات، وقال: إنها من أعظم آلهة العرب، وهذا دليل قوي على وجود ذلك الصنم، المسمى باللات، وقد كان من معبودات ذلك الزمن، وقد أراد الكاتب تحقير العرب، وإخفاء لبيت[4] الله الكعبة، وذلك للتضليل أيضاً.

---

(١) الآية ٢٠ من سورة النجم. المحقق.

(٢) جاء في تفسير ابن كثير في تفسير قوله تعالى﴿ أفرأيتم اللات والعزى. ومناة.. الآيات من سورة النجم﴾جاء فيه أن اسم صنم طيء الذي هدمه علي رضي الله عنه (قيس) لا (فلس) كما ذكر المؤلف. المحقق.

(٣) الآية ١٩ من سورة النجم. المحقق.

(٤) الصواب (وإخفاء بيت الله). المحقق.

ومن أصنامهم (العُزَّى) ــ تأنيث اسم العزيز[1] ــ ويقال: إنها أحدث من اللات ومناة، كانت بوادي نخلة الشامية، وكانت أعظم الأصنان عند قريش، وكانوا يزورونها، ويهدون لها القرابين ويذبحونها عندها تقرباً لها.

قال ابن حبيب: العزَّى شجرة كانت بنخلة، عندها وثنٌ تعبدهُ غطفانُ ولم تزل العزَّى كذلك، حتى بعث الله نبيَّه محمداً ﷺ فعابها وغيرها من الأصنام، ونهاهم عن عبادتها، ونزل القرآن فيها فاشتدَّ ذلك على قريش؛ ومرض أبو أحيحة سعيد بن العاص[2] بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، مرضه الذي مات فيه؛ فدخل عليه أبو لهب فوجده يبكي، فقال له: ما يبكيك يا أبا أحيحة؟ أمن الموت تبكي ولا بدَّ منه؟ فقال: لا، ولكني أخاف ألا تعبد (العُزَّى) بعدي، فقال له أبو لهب: ما عُبدتْ في حياتكَ لأجلكَ، ولا تترك عبادتُها بعدكَ لموتك، فقال أبو أحيحة: الآن علمتُ أن لي خليفةً، وأعجبه شدة نصبه في عبادتها[3].

وتدلُّ هذه القصة، على شدة التمسك بعبادة الأصنام؛ وكان بعضُهم يعبد الملائكة، وكانوا يقولون: الملائكة بنات الله، قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليُسَمُّونَ الملائكةَ تسمية الأنثى﴾[4].

فلما افتتح النبي ﷺ مكة، بعث خالد بن الوليد رضي الله عنه فهدم (العزَّى)؛ وكانت لقريشٍ أصنام حول الكعبة وفي جوفها، وكان أعظمها عندهم (هُبَل).

قيل إنه كان من عقيقٍ أحمر، على صورة الإنسان مكسور اليد اليمنى، أدركتْهُ قريش كذلك، فجعلوا له يداً من ذهبٍ، وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر[5]، وكان يقال له (هُبل خزيمة) وعنده ضرب عبد

---

(١) تأنيث (العزيز) هو (العزيزة). والعُزَّى) تأنيث (الأعزّ) لا (العزيز). المحقق.

(٢) في الأصل (العاصي) بالياء. المحقق.

(٣) راجع معجم البلدان مادة (عزَّى) وكتاب الأصنام لابن الكلبي ص ٤٣.

(٤) من سورة النجم آية (٢٧).

(٥) أنظر كتاب (محمد رسول الله) ص ٦٤.

الكليم: (وسوف أقيم لهم نبياً مثلك من بين إخوتهم، وأجعل كلامي في فمه، يكلمهم بكل شيء آمره به، ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به باسمي، فأنا الذي أنتقم منه، فأما النبي الذي يجترىء عليَّ بالكبرياء، و يتكلم باسمي بما لم آمرهُ به، أو باسم آلهةٍ أخرى، فليقتل، وإذا أحببتَ أن تميّزَ بين النبي الصادق والكاذب، فهذه علامتك، إن ما قاله ذلك النبي باسم الرب ولم يحدث فهو كاذب، يريد تعظيم نفسه، ولذلك لا تخشاه)[1].

و يقول اليهود: (إن هذه البشارة ليوشع بن نون، خليفة موسى عليه السلام، مع أنهم كانوا ينتظرون في مدة المسيح نبياً آخر غير المسيح، فإنهم أرسلوا ليوحنّا المعمدان (يحيى) يسألونه عن نفسه فقالوا له: أنتَ إيليا؟ فقال: لا، فقالوا: أنت المسيح؟ فقال: لا، فقالوا: أنتَ النبي؟ فقال: لا، فقالوا: ما بالك إذاً تعمد إذا كنتَ لستَ إيليا، ولا المسيح، ولا النبي؟ فهذه تدل على أن التوراة تبشر بإيليا والمسيح ونبي لم يأتِ حتى زمن المسيح[2]، ثم إن التوراة تقول في صفة النبي: إنه مثل موسى، وقد نصت في آخر سفر التثنية، على أنه لم يقم في بني إسرائيل نبيٌّ مثل موسى).

وورد في هذه البشارة أن النبيّ الذي يفتري على الله يقتلُ، و يشبه ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى في سورة الحاقة: ﴿ولو تقوّل علينا بعض الأقاو يل، لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين﴾[3].

والرسول الكريم ﷺ، مكث بين أعدائه الألداء من مشركين ويهود ثلاثاً وعشرين سنةً، يدعوهم فيها إلى الله، ومع ذلك عصمه الله منهم، وأنزل عليه تطميناً لخاطره في سورة المائدة: ﴿والله يعصمكَ من الناس﴾[4]. أكان يعجز الله، وهو القادر على كل شيء، أن يعاقب من

---

(١) أنظر الإصحاح الثامن من سفر التثنية.

(٢) أنظر الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا، وأنظر كتاب (نور اليقين في سيرة سيد المرسلين) ص ٢٠.

(٣) الآيات (٤٤و٤٥و٤٦) والوتين: عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه.

(٤) جزء من الآية (٦٧).

ينسب إليه ما لم يقله، وهو الذي قال في سورة الشورى: ﴿أم يقولون افترى على الله كذباً، فإن يشأ اللهُ يختمُ على قلبك، ويمحُ اللهُ الباطلَ، ويحق الحقَّ بكلماته، إنه عليمٌ بذات الصدور﴾؟[1].

وقد أخبرتنا هذه البشارة عن العلامة التي تعرف بها صدق النبي من كذبه، وهي الإخبار بما سيأتي؛ وقد أخبر سيدنا محمد ﷺ عن أشياء كثيرة، فحدثت كما أخبر عنها، ومنها ما لا ينفع معه الحدس والتخمين، كالإخبار بأن الروم سيغلبون بعد أن قهرهم الفرس قهراً شديداً، حتى كادوا يحتلُّون القسطنطينية، عاصمة ملكهم؛ فالإخبار إذاً بأن الروم سيردون ما فقد منهم بعد بضع سنين، لا يكون إلا من عند الله؛ ولذلك استغرب به جداً بعض المشركين من قريش، وراهن على ذلك أبا بكرٍ الصديق رضي الله عنه؛ وقد حقق الله الخبر، فاستحقَّ الصديقُ الرهنَ، وهذا قليل من كثير.

وروى القاضي عياض في كتابه الشفاء: أن عطاء بن يسار سأل عبد الله بن عمرو بن العاص عن صفة رسول الله ﷺ فقال: أجل والله! إنه لموصوف في التوراة، ببعض صفته في القرآن: (يا أيها النبي إنا أرسلناكَ شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأميين، أنتَ عبدي ورسولي، سميتُكَ المتوكل، ليس بفظٍّ ولا غليظٍ، ولا صخابٍ ــ شديد الصوت ــ في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه اللهُ حتى يقيمَ به الملَّة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صمّاً، وقلوباً غلفاً)[2].

وروى مثله عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه، وهو الذي كان رئيس اليهود فلم تُغْمِهِ الرياسةُ حتى يترك الدين القويم؛ وكذلك كعب الأحبار.

وفي رواية زيادة: (ولا قوَّال للخنا، أسدِّدُهُ لكل جميل، وأهب له كل خُلُقٍ كريم، وأجعل السكينة لباسه، والبرَّ شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة مقولَهُ، والصدقَ والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خُلُقَهُ، والعدل سيرته، والحقَّ

---

(١) الآية (٢٤).

(٢) أنظر كتاب (نور اليقين) ص ٢٢.

طريقة، والقدى إمامه والإسلام [illegible] (١) الحسنة، فعمي به بعد الضلالة، وأعلم به بعد الجهالة، وأرشد به بعد الغواية، وأسمى به بعد الفكرة، وأكثر به بعد القلة، وأغنى به بعد العيلة، وأجمع به بعد الفرقة، وألف به بين قلوب مختلفة وأهواء متشتتة وألسنة متفرقة، ومثل أمره في التوراة للناس).

وقد أخبر [illegible] من (٢) صفته في التوراة بالرسول وهو الصادق الأمين: (عبدي أحمد المختار، مولده مكة، ومهاجره بالمدينة، وملكه بالشام: طيبة، وأمته الحامدون).

واليهود يعرفون سيدنا محمداً [illegible] كما [illegible] ولكنهم يجحدون حسداً من أنفسهم، وبغياً من عند أنفسهم.

جاء في كتاب الثقافة الإسلامية (٣) (صرح جميع المؤرخ الإنكليزي الأشهر في ج ٥ من كتابه: أن الأحبار والرهبان حقروا وبذلوا بعد ظهور الإسلام نصوصاً كثيرة في التوراة والإنجيل، كما ذكر القرآن.

وجاء في سيرة ابن هشام (٤) [illegible] من كتاب عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه، قالوا: [illegible] دعانا إلى الإسلام ونحن رجاله الله وهداه، لما كنا نسمع من رجال يهود، وكانوا أهل كتاب، وكنا أهل أوثان، وكانوا يرون أن عندهم علماً ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شجار، فإذا بلغ بنا بعضهم ما يكرهون قالوا لنا: إن تقارب زمان نبي يبعث الآن، نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم، فلما بعث الله رسوله [illegible]، أجبناه حين دعانا إلى الله تعالى، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، فبادرناهم إليه، فآمنا به، وكفروا به، فينا وفيهم نزل

---

(١) هكذا في الأصل (وأحمداً) مع أنه علم على وزن الفعل فمنع من الصرف والعطف.

(٢) الصواب (عن) لا (من). المحقق.

(٣) للأستاذ محمد لطفي جمعة ص ٥٠٨.

(٤) انظر سيرته ج ١ ص ٢٣١.

هؤلاء الآيات من سورة البقرة[1]، قال الله تعالى: ﴿ولما جاءهم كتابٌ من عندِ الله مُصَدِّقٌ لما معهم، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنةُ الله على الكافرين﴾.

وهكذا يظهر للسادة القراء أن اليهود كانوا يعرفون صفة سيدنا محمد ﷺ عندهم في التوراة، ولكن الحسد دفعهم لإنكاره، وجحود رسالته، كما يظهر تحريفهم للحقائق الثابتة.

يبين لنا الأب عبد الواحد داود الآشوري مطران الموصل في كتابه (الإنجيل والصلب) نحواً من هذا التحريف فقال عند عبارة الإنجيل: (الحمد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرة) لم تكن هكذا من الأول، بل كانت: (الحمد لله في الأعالي، وعلى الأرض إسلام، وللناس أحمد).

(فانظر للتحريف الظاهر في محمدٍ ودينه) اهـ.

٢ ــ [تبشير الإنجيل]

بشر السيد عيسى عليه السلام قومه في الإنجيل بالفارقليط: ومعناه قريب من محمدٍ أو أحمد، ويصدقه في القرآن قول الله تبارك وتعالى في سورة الصف: ﴿وإذ قال عيسى ابنُ مريم يا بني إسرائيل إني رسولُ اللهِ إليكم مصدّقاً لما بين يديَّ من التوراة ومبشراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمُه أحمدُ﴾[2].

وقد وصف السيد المسيح عليه السلام هذا الفارقليط بأوصاف لا تنطبق إلا على نبينا سيدنا محمد ﷺ فقال: (إنه يوبخ العالم على خطيئته، وإنه يعلمهم جميع الحق، لأنه ليس ينطق من عنده، بل يتكلّم بكل ما يسمع)[3].

وهذا ما ورد في القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿وما ينطقُ عن الهوى، إن هو إلا وحْيٌ يُوحى﴾[4].

---

(١) أنظر سورة البقرة آية (٨٩).

(٢) جزء من الآية رقم (٦) من سورة الصف.

(٣) أنظر (نور اليقين) ص ٢٢ و ٢٣.

(٤) من سورة النجم الآيات (٣-٤).

وقد ورد في إنجيل (برنابا) الذي ظهر منذ زمنٍ قريبٍ، وأخفته حجبُ الجهالة: (ذكر اسم الرسول سيدنا محمدٍ صراحة)[1].

وقال ابن هشام في سيرته[2]: قال السيد عيسى ابن مريم عليه السلام: (مَنْ أبغضني فقد أبغض الربَّ، ولولا أني صنعتُ بحضرتهم صنائع لم يصنعها أحد قبلي، ما كانت لهم خطيئة، ولكن من الآن بطرُوا وظنُّوا أنهم يَعُزُّونَني ــيغلبونني ــ وأيضاً للربِّ، ولكن لا بدَّ من أن تتمَّ الكلمة التي في الناموس، إنهم أبغضوني مجاناً ــأي باطلاً ــ فلو قد جاء ٱلْمُنْحَمَنَّا هذا الذي يرسله اللهُ إليكم من عند الربِّ روح القدس، هذا الذي من عند الربِّ خرج، فهو شهيدٌ عليَّ، وأنتم أيضاً، لأنكم قديماً كنتم معي في هذا؛ قلتُ لكم لكيما لا تشكُّوا).

وَٱلْمُنْحَمَنَّا بالسريانية معناه: محمد، وهو بالرومية: البَرَقْليطي، صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم.

وجاء في كتاب إنسان العيون[3]: قال طلحة بن عبد الله رضي الله عنه: حضرتُ سوق بصرى، فإذا راهب في صومعته يقول: سلوا أهل هذا الموسم، هل فيكم أحدٌ من أهل الحرم؟ فقلتُ: نعم أنا. قال: هل ظهر أحمد؟ قلتُ: ومن أحمد؟ قال: ابن عبد الله بن عبد المطلب هذا شهره، الذي يخرج فيه ــأي الذي يبعثُ فيهــ وهو آخر الأنبياء، مخرجهُ من الحرم، ومهاجره إلى نخلة وحرَّة وسباخ... قال طلحة: فوقع في قلبي ما قال الراهب؛ فلما قدمتُ مكة، حدثتُ أبا بكرٍ بذلك، فخرج أبو بكر حتى دخل على رسول الله ﷺ فأخبره، فسرَّ بذلك، وأسلم طلحة.

ووقع نظير ذلك، لحكيم بن حزام ولجبير بن مطعم، ولسلمان الفارسي وسأشرح للسادة القراء، قصة إسلام سلمان الفارسي بعد إن شاء الله.

---

(١) وقد ترجم إلى اللغة العربية وهو مطبوع بمصر.

(٢) في الجزء الأول صحيفة (٢٥١).

(٣) في سيرة الأمين المأمون ج ١ ص ٣٠١.

٤٢ ــ حركة الأفكار قبل بعثة سيدنا محمدٍ ﷺ

قد أصبح من السهل للسادة القراء، فهم الحركة العظيمة من الأحبار والرهبان قبل بعثة سيدنا محمدٍ رسول الإنسانية وهادي البرية عليه الصلاة والسلام. فكان اليهود يستفتحون على عرب المدينة برسولٍ منتظر؛ فقد حدث عاصم بن عمرو بن قتادة عن رجالٍ من قومه، أنهم قالوا: إنما [1] دعانا للإسلام مع رحمة الله تعالى لنا، ما كنّا نسمع من أحبار اليهود؛ كنّا أهل شركٍ وأصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب، عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعضَ ما يكرهون، قالوا لنا: قد تقارب زمانُ نبيٍّ يبعث الآن، نقتلكم معه، قتل عادٍ وإرم، فكثيراً ما نسمع ذلك منهم؛ فلما بعث الله رسوله محمداً أجبنا حين دعانا إلى الله، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، فبادرناهم إليه فآمنّا وكفروا؛ وإنما قال لهمُ اليهودُ: نقتلكم معه قتل عاد وإرم، لأن من صفته عليه الصلاة والسلام في كتبهم: أن هذا النبي يستأصلُ المشركين بالقوة، ولم يكونوا يظنون أن الحسد والبغي سيتمكّنان من أفئدتهم، فينبذون الدّينَ القيّمَ، فيحق عليهم العذاب في الدنيا والآخرة.

وكان أمية بن أبي الصلت المتنصّر العربي، كثيراً ما يقول: إني لأجد في الكتب، صفةَ نبيّ يبعثُ في بلادنا.

وقد حدّث سلمان! الفارسيُّ رضي الله عنه عن نفسه أنه صحب قسيساً، فكان يقول له: يا سلمان إن الله سوف يبعث رسولاً اسمه أحمد، يخرج من جبال تهامة، علامته أن يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة؛ وكان الحديث هذا من أسباب إسلام سلمان رضي الله عنه. ولما أرسل الله تبارك وتعالى عبده ورسوله وحبيبه ومصطفاه، رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً، راسلَ عليه الصلاة والسلام ملوكَ الأرض، لم يُهنْ كتابَهُ إلا كسرى الذي ليس عنده علمٌ من الكتاب، فمزّقه الله شر ممزّق؛ أما جميع ملوك النصارى كالنجاشي ملك الحبشة،

---

(١) وقد ذكرتها للسادة القراء في ص ١٠٨ من كتابنا هذا برواية ابن هشام، وهنا أذكرها في رواية محمد خضري بك، مؤكداً، ووثوقاً بصحتها واعتماد المؤلفين لها.

والمقوقس ملك مصر وقيصر ملك الروم فأكرموا وفادة رُسُلِهِ، ومنهم من آمنَ كالنجاشي ومنهم من رَدَّ ردّاً لطيفاً، وكاد يسلم لولا غلبة الملك كقيصر، ومنهم من هادَى ــ أي قدّم الهدايا ــ كالمقوقس؛ ولم يكن عليه الصلاة والسلام في قوةٍ، يرهب بها هؤلاء الملوك، اللهَمَّ ما ذاكَ إلا لأنهم يعلمون: أن المسيح عليه السلام بَشَّرَ برسولٍ يأتي من بعده ووافقتْ صفاتُ رسولنا الكريم، ما عندهم فأجابوا بالتي هي أحسن.

أما ما سمع من الهواتف والكهان، قبيل زمنه ﷺ فهو ما لا يدخل تحت حصر؛ وليس بعدما ذكرته للسادة القراء، زيادة لمستكثرٍ؛ ومع ذلك كله، فالأعمالُ التي جاد بها الله تبارك وتعالى على يديه، والأقوال التي أتانا بها، أعظم حجة وأقوى برهان يؤيد بعثته، و ينادي بأهمية دعوته، يقول الله تعالى: ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ (١).

وسيأتي عليكم معشر القراء ما يثلج صدوركم بأجلى بيانٍ بإذن الله تعالى، من تاريخه (٢) وسيرته عليه الصلاة والسلام.

أرى لزاماً قبل أن أذكر بدء الوحي عليه صلى الله عليه وسلم أن أذكر حال العالم قبل البعثة المحمدية، وحال البلاد العربية، و بخاصة مكة المكرمة لنبيّنَ الأسباب التي دعت إليها (٣).

٤٣ ــ الأسباب الاجتماعية والاقتصادية التي اقتضت بعثة محمدٍ ﷺ

٤٣ ــ [أولاً: حال الفرس]

أنبأنا التاريخ أنه في سنة عشر وستمائة للميلاد، اشتعلت الحرب بين الرومان والفرس، لأن العداوة بينهما قديمة، ترجع إلى ما قبل القرن الخامس

---

(١) الآية رقم (١٠٧) من سورة الأنبياء. المحقق.

(٢) في الأصل (تاريخ) بدل (تاريخه). المحقق.

(٣) (إليها) لعل الضمير يقصد به (الرسالة الإسلامية). المحقق.

قبل الإسلام؛ وأهم أسبابها، تنازعهما سيادة العالم وحب البقاء والسيطرة لأنهما كانتا في تلك العصور أعظم دول الأرض شأناً، وأعزها سلطاناً. ــ كأمريكا وروسيا في عصرنا الحاضر ــ فأرادت كل منهما الاستئثار بالسلطان دون الأخرى، وكان من عواقب حرب تلك السنة أن عاثت جنود الفرس في الأقطار الرومانية، والأمبراطور هرقل معتزل في قصره، منغمس في اللهو واللعب، غير أنه لما شاهد الخطر، هبَّ للدفاع عن كيان دولته، ولما لم يكن عنده مال كاف للحرب؛ اقترضَ أموال الكنائس، على أن يردَّها، وربحها بعد أن تضع الحربُ أوزارها؛ وما زالت الحرب قائمة حتى دارت الدائرةُ على الفرس، وتمَّ النصرُ للرومان سنة (٦٢٢)م.

وفي سنة (٦٢٧)م تجدّدتِ الحربُ بين الدولتين، فانهزم الفرسُ مرة أخرى، وبلغت جنود الرومان (نينوى) عاصمة الآشوريين قديماً، ثم ظهرت بوادر الانحلال السياسي على دولة الفرس؛ فأصبحت حكومتهم فوضَى؛ حتى ادعى مُلْكَهَا في خلال أربع سنين تسعةٌ من ملوكهم؛ أضف إلى ذلك أن الحال الاجتماعية أخذت تضعفُ أيضاً فقد انشقّتْ عصا الأمة، بما شاع فيها من تشعب المذاهب عن ماني [1] ومزدك، الذي ادَّعى أن الله بعثه ليأمر بإباحة النساء والأموال بين الناس، لأنهم إخوة، أولاد أب واحدٍ، فنشأ عن ذلك كثير من فساد الأخلاق، وقد انتابهم تدهورٌ عظيم [2].

٤٤ ــ ثانياً: حال الرومان

أما الرومان: فقد ضاع نفوذهم بين الأمم التي قهروها، وقبضَ كثير من المتبربرين، على كثير من المناصب الإدارية والجندية؛ وصارت الثغورُ مهدَّدةً بالغارات عليها من كل جهةٍ؛ وأمعنتِ الحكومات المتعاقبة في زيادة الضرائب، سدّاً لحاجات الطبقات العالية، ونفقات الحكام الباهظة، التي لا عهد لهم بها من قبل؛ فكان من ذلك أن الأقطار التي لهم السلطانُ عليها، أخذتْ تشقُّ عصا الطاعة، لأنها لم تستطع احتمال مظالم الحكام، وإرضاء جشعهم وشهواتهم.

---

(١) في الأصل (ماتي) بالتاء بدل النون. والصواب ما أثبتناه. المحقق.

(٢) أنظر كتاب (محمد المثل الأعلى) ص ٦٤.

حقاً إن ملوكها من عهد (دقلد يانوس) فكَّرُوا في أن يدفعوا أسباب الانحلال بإنقاذ العالم الروماني؛ فبدّأ دقلد يانوس بإلغاء نفوذ البطارقة، واستبدل به نظاماً آخر شبيهاً به، فلم يفلح، حتى جاء (قسطنطين) فسعى في خضد شوكة طبقة الأشراف من الجنود، واستعاض بوظائفهم وظائف مدنيَّة، فنجح إلى درجة محدودة ولما ظهر أن الإقامة في رومة، ليست بعد ممكنة للملوك، نقل مقرَّ الدولة إلى القسطنطينية، ليقطعَ كلَّ صلةٍ بينه و بين العادات القديمة، و يترك الرومانيين ومعبوداتهم الكاذبة؛ بَيْدَ أنه وَهمَ أن اتخاذ النصرانية أقوى سبب لنجاحه؛ وقد بانَ له غير ذلك، إذ تشعَّبَت الاختلافات الدينية، إلى شعابٍ لاعداد لها، وكل شعبةٍ أخذتْ تُدافع عن معتقداتها دفاع المستميت؛ حتى عمت الفوضى، الأمورَ الدينيةَ، كما استولَت على المناصب الحكومية؛ أضِفْ إلى ذلك أن الأشراف والبطارقة، وجماعات المصارعين وغيرهم، من أولي اللهو واللعب، الذين اعتادوا سخاء الملوك وتبذيرهم في رومة، رحلُوا إلى القسطنطينية؛ ليستمتعوا بما اعتادوه من قبل.

وما لبثت هذه الطبقات أن انحطتْ درجاتُها عما كانت عليه في الغرب؛ و بقدر انحطاط درجاتهم الخلقيَّةِ، ازدادت قوتُهم ووقاحتهم حتى إن السوقة استطاعوا إعطاء الملك، لمن يزيد لهم في العطاء.

ثم تلا ذلك النزاعُ بين البابـاوات، و بطارقة القسطنطينية الذين كانوا يُحرمون[1] بعضُهم بعضاً؛ فتضاعفت بذلك أسباب الانحلال في هذه الأمة المتداعية، وانصرفوا عن مدافعة الأمم المتبربرة التي كانت تنقصُ الدولة من أطرافها؛ فمن ذلك أن الحكام كانوا يُعْنَوْنَ بتقريب أتباع رؤساء الكنائس، أكثر مما كانوا يُعْنَوْنَ بمنازلة الفرس والبلغار في ميدان القتال.

و يضاف إلى ما تقدَّم، ما كان بين الرومان واليهود من التَّضاغن؛ فقد بلغ غايةً عظيمةً في أيام هرقل؛ إذ ثار اليهود في أنطاكية، فقتلوا بطريركها، ومثَّلُوا به شرَّ تمثيل؛ وتآمر يهود صور، ويهود فينيقية وفلسطين، على أن يدخلوا مدينة صور ليلاً، ليقتلوا النصـارى؛ ومما فعله اليهود من الفظائع، نكاية في الروم،

(١) في الأصل (يحر) بدل (يحرمون) والتصحيح بالاجتهاد. المحقق.

أنهم اشتروا من الفرس ثمانين ألفاً من أسرى النصارى، ثم ذبحوهم؛ وكانت حكومة النصارى إذا سَنَّتْ قانوناً خصصت بعض أحكامه باليهود لمعاملتهم بالاحتقار، وقررت المجالس المليَّة إلغاء الديانة اليهودية وأمرت الحكومة بمنع اليهود من الاحتفال بأعيادهم، وأجبرتهم على النصرانية، وضيقت عليهم شر تضييق، حتى اضطروا إلى التظاهر بالنصرانية.

أعرض الناس عن الفضائل الاجتماعية والخلقية، وارتفع شأن الذين يعملون السيئات، فتبوَّءوا عرشَ القياصرة، وساد القلق، وانتشرت الفوضى، وعمَّ الظلم والفساد، وديست القوانين السماو ية والوضعية، وانتهكت حرمات الأماكن المقدسة.

٤٥ ــ ثالثاً: الحالة في الهند يومذاك

وأما الحالة في الهند يومذاك، فقد انتشر فيها مذهب إباحة النساء بوساطةِ دعاةٍ أقوياء؛ وقد بلغ من الفحش أقصاه، حتى إن الكاهن الهندي كان يحظى بالعروس في جَلْوَتِهَا الأولى، لينشر عليها وعلى زوجها البركة والنعمة حسب دعواه، وكانت الأناشيد التي تُنَوِّهُ بالمنكرات والقبائح تلقى في الاحتفالات العامَّة، فتمدُّ مستمعيها من الغواية بأسباب، وتفتح لهم من الآثام كلَّ باب[1].

٤٦ ــ رابعاً: حالة البلاد العربية

كان العرب قبل البعثة المحمدية، قد وقعت بينهم الفرقة، وانتُزعت الألفة، واختلفت كلمتهم، وذهبتْ وحدتُهم، واضطربت أحوالهم، فكانوا إخوانَ دبرٍ ووبر، أذلَّ الأمم داراً، وأجدبها قراراً، لا يأوون إلى جناح دعوة يعتصمونَ بها، ولا إلى ظلِّ ألفةٍ يضويهم لواؤها؛ فأحوالهم مضطربةٌ، وأيديهم متفرقة، وكانوا من جراء ذلك في بلاء عظيم؛ من جهالاتٍ مُطبقة، وشرور موبقة، وبناتٍ موءودةٍ، وأصنامٍ معبودة ــ كما مرَّ سابقاً ــ وأرحامٍ مقطوعة، وغاراتٍ مشنونة.

---

(١) أنظر كتاب (محمد المثل الكامل) والأبحاث السابقة ص ٦٣-٦٨ باختصار.

فقد تردَّوْا قبل البعثة المحمدية، في هاوية الانحلال الاجتماعي، بما لم يعهد له مثيل في تاريخ الأمم، وكانوا في جهلٍ بأحكام الدين الصحيح، ومبادىء السياسة والحياة الاجتماعية، ولم يكن لهم فَنٌّ يذكر، أو صناعة تنشر، ولم يكونوا يعرفون شيئاً من العلاقات الدولية؛ بل كانت كلُّ قبيلةٍ أمةً قائمةً بنفسها، تتحفّز لشنِّ الغارة على جارتها.

تفشَّى في العرب كثيرٌ من العادات المنكرة؛ كشرب الخمر، واللعب بالميسر، ووأد البنات، والسلب والنهب؛ وكانت الكلمةُ الواحدةُ كثيراً ما تُفْضي إلى القتل، وسفك الدماء، حتى بلغت روح الانتقام درجة مروعة، كان من مظاهرها أن النساء لم يرضهنَّ سوى صبغ ملابسهنَّ بدم القتيل، وأكل قلبه وكبدِهِ.

هذا إلى أنَّ منهم من تأوَّل الإلـه ببعض الحيوان لكثرة نفعِه، أو شدة ضُرِّهِ؛ ومنهم من تمثَّله في الكواكب لظهور أثرها، ومنهم من حسبه في الأشجار والأحجار، لاعتباراتٍ لهم فيها.

وجملة القول: أنهم وصلوا إلى حالٍ لا يستحقّون فيها اسم الجماعة، فقد أمعنُوا في القسوة والمنكرات؛ ولم يتذرَّعوا بعلمٍ، أو يعتصموا بقانون، وانحطَّ الضمير الإنساني فيهم إلى أسفل درجاته، حتى بَدَّلُوا بالفضيلة الرذيلة، ونوَّهُوا بأصحابها[1].

٤٧ ــ خامساً: حالة مكة قبل البعثة المحمدية

كانت مكة قبل القرن الخامس للميلاد، محطّاً صغيراً، تمرُّ به القوافل في طريقها من جنوب الجزيرة، تحمل بضائع الهند إلى سورية وفلسطين ومصر، ثم أصبحت في أواخر القرن السادس: مدينة كثيرة التجارة بفضل الأسواق التي أقيمت فيها؛ وكان العرب يقصدونها من أطراف الجزيرة وسورية والعراق وغيرها، للمتاجرة، ولزيارة الكعبة وإقامة شعائر الحج؛ وكان في مكة فئة منها

---

(١) يعني (بأصحاب الرذيلة). المحقق.

سدنة الكعبة، وأهل الندوة، يستفيدون من ورود الحجاج أموالاً، ومن إقامة الأسواق و يستمدُّون نفوذاً في نفوس العرب، وقوَّة سيادتهم المعنوية.

ونما في أهل مكة أيضاً حبُّ جمع المال، حتى حين مجيء الإسلام، قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وإذا رأوا تجارةً أو لهواً انفضُّوا إليها وتركوكَ قائماً﴾ (١).

ولا عجب أن أولع أهل مكة بالتجارة، وتثمير أموالهم بشتى الطرق، لأن مكة كانت غير صالحة للزراعة والصناعة، كما وصفها الله بقوله: ﴿ربَّنا إني أسكنتُ من ذُريتي بوادٍ غير ذي زرعٍ عند بيتكَ المحرم﴾ (٢).

لذا أكبَّ أهلُها على كسب عيشهم من المضاربة بالأموال، والتهالك على إنمائها؛ وقد بلغ من حرصهم على راحة الحجاج، وروَّاد الأسواق، أنهم كانوا يحتاجون لأمرهم، فيعدُّون بضائعهم قبل حلول أشهر الحج، وافتتاح سوق عكاظ؛ و يقومون برحلتين، رحلة الصيف، ورحلة الشتاء، إلى سورية وفلسطين، وجنوبي بلاد العرب، ليبتاعوا من هذه البلاد، ما تدعو الحاجة إليه من البضائع، وليبيعوا ثمار بلادهم فيها.

كانت رؤوس أموالهم مجموعة من أكثر سكان مكة والطائف على شروط معينةٍ، تكفل الربح لأصحابها، ولأصحاب القوافل، ولذلك كانوا جميعاً يعنونَ بالقوافل السنوية، و يسألون عنها الرائح والغادي، لأنهم كانوا يخشون سطو شذّاد الطرق وقُطّاعها الذين ظلُّوا أزماناً يعيشون في الصحراء فساداً، و يعيشون من السلب والنهب؛ فما كلُّ قافلةٍ كانت تبلغ قصدها، ولا كل مكي كان يقدم على جمعها وقيادتها؛ بل كانت القيادة محصورةً في أناس عرفوا بثبات الجأش، ومضاء العزيمة، وحسن السياسة، والتوفيق بين مصالح أغنياء مكة، وجشع رؤساء القبائل الذين كانت تجتاز القوافلُ أرضَهم، فكانوا يستميلونهم طوراً بالمال وطوراً بالمصاهرة، وطوراً بالإرهاب.

---

(١) من سورة الجمعة وهي آخر آية منها (١١).

(٢) من سورة إبراهيم آية (٣٧).

ومن أجل ذلك ظلَّ أصحاب القوافل وأغنياء مكة يزيدون في حرّاسها سنةً فسنةً؛ حتى ألَّفُوا منهم جيشاً منظماً، يقومُ بنفقاته تجّارُ مكة من ربحهم الوفير؛ و يستفاد مما تقدَّم أن المال كان موفوراً في مكة والطائف، وكان أصحابه كثيرين فصحب ذلك وجودُ فئة المرابين من اليهود وغيرهم الذين انصرفوا إلى المعاملات الربوية، حتى أصبح مصدراً آخر لثروتهم، وإعلاء كلمتهم، وكان ذلك أحدُ أسباب سخط الناس عليهم؛ فقد بلغ في مكة درجةً مروّعة، إذ انتقل من أربعين في المائة إلى مائة في المائة.

و بلغ عدد المرابين مبلغاً عظيماً، واستفحل ضررهم على المجتمع، والو يل لمن سقط في شباكهم، واضطّرته الظروف إلى الالتجاء إليهم، لأنهم على كثرتهم لم يكونوا يفقهون للرحمة معنى، ولا يرون فرقاً بين التجارة والربا، بل: ﴿قالوا إنما البيعُ مثلُ الربا﴾[1] وبلغ من نهمهم وتهافتهم على جمع المال بأي وسيلة أنهم كانوا ــ كما وصفهم القرآن الكريم ــ ﴿إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾[2].

كانوا يضاربون بالدراهم والدنانير؛ فتارةً يزيدون في وزنها، أو قيمتها، وطوراً ينقصون، تبعاً لمصالحهم الشخصية، وجرياً وراء جشعهم الممقوت، وكانوا يتلاعبون بالديون، بأن يؤخّروا آجالها أو يقدموها، أو يضيفوا إليها؛ إلى غير ذلك من الأعمال التي كانت تفضي إلى خراب المدين واستعباده، ولذلك قال الله تعالى لهم في كتابه العزيز: (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجلٍ مسمًّى فاكتبُوهُ، وليكتُبْ بينكم كاتبٌ بالعدل، ولا يأبَ كاتبٌ أن يكتب كما علَّمه اللهُ، فليكتُبْ وليملل الذي عليه الحقُّ، وليتَّق الله ربَّهُ، ولا يبخس منه شيئاً، فإن كان الذي عليه الحقُّ سفيهاً أو ضعيفاً، أو لا يستطيعُ أن يُمِلَّ هو، فليملِلْ وليُّه بالعدل، واستشهدُوا شهيدين من رجالكم، فإن لم يكونا رجلين، فرجلٌ وامرأتان ممن تَرْضَوْنَ من الشهداء، أن تَضِلَّ إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى، ولا يَأبَ الشهداء إذا ما دُعُوا، ولا تسأموا أن تكتبوهُ صغيراً أو كبيراً إلى أجلهِ، ذلكم أقسطُ عندَ اللهِ، وأقومُ للشهادة، وأدنى ألا ترتابُوا إلا أن تكونَ تجارةً حاضرةً تُديرونها بينكم، فليس عليكم جُنَاحٌ ألا تكتبوها،

(١) جزء من الآية رقم (٢٧٥) من سورة البقرة. المحقق.

(٢) الآيتان (٢-٣) من سورة المطففين. المحقق.

وأشهدُوا إذا تبايعتم [1]، ولا يُضَارَّ كاتبٌ ولا شهيدٌ، وإن تفعلوا فإنه فسوقٌ بكم، واتقوا اللهَ ويعلمكم اللهُ، واللهُ بكل شيء عليم) [2].

وبلغ من قسوة هذه الطائفة الطاغية، أنهم حملوا المدينين على إكراه بناتهم ونسائهم على البغاء [3]، كما خاطبهم اللهُ بقوله: ﴿ولا تُكرهوا فتياتكم على البغاء، إن أَرَدْنَ تَحَصُّناً، لتبتغوا عرض الحياةِ الدنيا﴾ [4]. للوفاء بما على آبائهنَّ أو بعولتهنَّ [5] من الدين، الذي كان يتعذّرُ أداؤه لزيادته يوماً فيوماً؛ وبما يضاف إليه من الربا الفاحش، بما [6] دعا كثيراً من المدينين إلى الفرار في الصحراء، واللحاق بطبقة الشُّرَّدِ وقطاع الطريق، أو الدخول في حظيرة الأرقّاء.

أصبح المرابون لا همَّ لهم إلا تكثير أموالهم؛ فنمتْ في قلوبهم الأثَرَةُ والاختصاص بما في يد المعوزين الفقراء، وحُبِّبَ إليهم أن يجوع الناس ليشبعوا، وأن يشقى غيرُهم ليسعدوا، ويتعب [7] ليرتاحُوا.

اعتمد هؤلاء القساةُ على الربا، فاقتنصوا به أموال الفقراء الذين يَسْعَونَ ويكدُّون، وهم قاعدون؛ فضعفت فيهم ملكة النشاط وحب العمل، وأصبحوا في جسم المجتمع العربي كالنبات أو الحيوان الطفيلي يتغذّى من دم غيره، وبذلك امتلأت صدورُ الفقراء عليهم حقداً وغيظاً وضغنةً، لأنهم أصبحوا في أيديهم عبيداً أذلاء؛ فقد ضاع هؤلاء الفقراء، حتى لا يعرف أحدٌ منهم له محلاً، ولا يُرَى لشخصهِ ظلاً [8].

---

(١) (تبايعتم) في الأصل (تبايعتكم) والتصحيح من كتاب الله. المحقق.

(٢) من سورة البقرة آية (٢٨٢).

(٣) ما كانوا يكرهون بناتهم ونساءهم على البغاء كما ذكر المؤلف وإنما كانوا يكرهون فتياتهم أي إماءهم. كما ذكر القرآن. المحقق.

(٤) جزء من الآية (٣٣) من سورة النور.

(٥) الصواب (للوفاء بما عل سادتهنَّ). المحقق.

(٦) الصواب (مما) بدل (بما). المحقق.

(٧) الصواب (ويتعبوا). المحقق.

(٨) الصواب (ظلٌّ) بالرفع لأنه نائب فاعل. المحقق.

كان من ذلك أن نضبتْ الخيرات، ومُنعتِ الصدقات، وهُضمت حقوقُ الفقراء، وأكلت أموال الناس بالباطل، وفشا الظلمُ، واختفتِ المحاسنةُ، وغاضَ معينُ الشفقة والرحمة، وأغفلت حقوق الجوار، وفُصمت رابطةُ الإخاء الإنساني، حتى إنه لا يقبلُ المقبلُ منهم على مدبرٍ، ولا يدبر إلا عن مقبلٍ، وكان اليهود أيضاً وقد نهوا عن الربا، لا يألون جهداً في الكسب بواسطة الربا، عامدين إلى ضروب الحيل الشيطانية، يعملونها للخروج عن الوقوع في الظاهر تحت أحكام التوراة كأن يقولوا: كما حكى القرآن الكريم عنهم: ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾ [1] وكما قالوا: لا تقرض أخاكَ بربا، أما الأجنبي فأقرضهُ بربا، وبذلك أكلوا السحتَ المنهي عنه تحت ستار الحيلة، ﴿يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعونَ إلا أنفسهم وما يشعرون﴾[2].

ومن بعد اليهود ظلت النصرانية مقاومةً للربا مدة طويلة بوساطة القسيسين وحفظة الدين، يوم كان الربا عندهم يجعل المدين عبداً مملوكاً للدائن، يستخدمه في مزرعته، ويستعمله كما يستعمل الحيوان لمنفعته، دون أن يعطيه حقاً من الحقوق.

وخلاصة القول: أنَّ المعاملات في البلاد العربية وغيرها، قد أصبحت قبل البعثة المحمدية مقتلة للفقراء، ومزرعةً للأحقاد، وداعيةً إلى انتشار أنواع الفساد، ومؤديةً إلى حصر الثروة في طبقة من الناس، ترى نفسها القابضة على زمام العالم المحرّكة لفلكه، وترى لنفسها الرئاسة التامة، والسيادة العامة، وإن لم يكن لأفرادها حظّ من العلم والعمل والحكمة، وبعد النظر.

بلى، قد داخلهم الغرور، وتغلغل في نفوسهم العجب؛ فتخلّوْا عن الزراعة والصناعة، وأنواع التجارة، اتكالاً منهم على ربح أموالهم وربا ديونهم.

استأثروا بالتشريع على حسب هواهم؛ فما فرضُوا للمعوزين الفقراء قانوناً يحميهم، ولا سنُّوا شريعةً تعطف عليهم، وتنشلهم من هاوية الموت الاجتماعي، والرقّ الأبدي؛ بل ظلّ هؤلاء الفقراء يعملون ليل نهار، مسؤولين

---

(١) جزء من الآية (٧٥) من سورة البقرة. المحقق.

(٢) الآية رقم (٩) من سورة البقرة. المحقق.

أمام هؤلاء القساة، أن يحملوا ما لا طاقة لهم بحمله؛ وبذلك انحطت نفوسهم، ونزعوا إلى منازع الفوضى وضروب الفساد، وأحسُّوا شديد الحاجة إلى من يُصلح حالهم المادّية والأدبية؛ فأخذ شعراؤهم يشيرون إلى ما فيه هذه الطبقة الفقيرة من البؤس والشقاء، و ينحون باللائمة على أصحاب الثروة، و يدعون إلى الرفق بالمعوزين، فقال بشر بن المغيرة:

وكلهم قد نال شبعاً لبطنه وشِبْعُ الفتى لؤمٌ إذا جاع صاحبه

وقال الأعشى:

تَبيتُونَ في الْمَشْتَى مِلاءً بطُونُكم وجاراتُكم غَرْثَى يبِتْنَ خَمائصا

لذا أصبح من الأمور المسلَّم بها، إيجادُ مقاومة فعَّالةٍ لهذه الأمراض التي يرزح الإنسانُ تحتها، وينوء بعبء حملها، بأن يوجد دواء ناجع، ووسائل أخرى، لتخفيف مصاب الإنسانية، على يد من هو أشد ثباتاً، وأمضى عزيمة من شعراء البادية، ومن يحسُّ بآلام الشعوب.

٤٨ ــ سنة الله في خلقه

لا غرابة فيما يجريه الله تعالى من رحمته بالإنسانية، بأن يبعث رسولاً يجري على يديه حسب أمره، إصلاحات فائقة، ترفع من شأن الإنسانية المعذبة، مما تردت به في مهاوي الضلال، و براثن الظلم والقسوة؛ فقد جرت سنة الله في الكائنات أن يأتي بالنور بعد الظلمة، و بالمطر بعد الجفاف، و بالخصب بعد المحل، وجرت سنة الله في خلقه، أن يبعث رسولاً متى وصل الانحطاط البشري إلى غايته، رحمةً منه بعباده، ورأفةً بخلقه.

وقد امتازت الفترة السابقة من حالة البشرية التي تردت فيها، لظهور سيدنا محمد ﷺ، بأن العالم جميعه، قد غشيته سحابة كثيفة من الشرك والجهل والرذيلة والبغي والظلم، فحلَّ المنكرُ محلَّ المعروف، وقبض أهل السوء على ناصية الأمم؛ وبهذا تجلَّتِ الضرورةُ القاهرة إلى مصلح كبير، ومرشد عظيم، وقائد حكيم، وإلى ظهور سيد الإنسانية، وهادي البرية سيدنا محمد بن

عبد الله، صلوات الله وسلامه عليه الذي قام بأعظمهم إصلاح للمجتمع، لأنه ﷺ اضطلع بهذه الشريعة كاملاً بإخلاص كبير، وعمل دءوب، وحكمة فائقة، ونفاذ رأي وتدبير وحكمة مما لم يقم به غيره.

ندبه اللهُ العليُّ القديرُ لحمل هذا العبء الجسيم، عبء هداية الإنسانية فلبَّى راضياً مرضياً، عارفاً بالبيئة التي ولد فيها وعاش فقد أنشأه الله تعالى يتيماً فقيراً ــ كما مرَّ ــ يكسب قوتَهُ بكدِّ يمينه، وعرق جبينه، ورعى الغنم، واشتغل بالتجارة، وسافر غير مرة، وخالط الناس ووقف على أعمالهم؛ يفكّر في أسباب شقاء الفقراء المعوزين منهم، والطرق التي تخفّف من نكبات الفقر، وبؤس الحرمان، وأثقال الظلم، فكانت هذه الأسفار، وهذا الاختلاط بالناس، والإصغاء إلى أحاديثهم، إعداداً لتلقي الأمر الإلهي.

٤٩ ــ تعبُّده لله والخلوة في غار حراء

كان من عادة العرب إذ ذاكَ، أن ينقطع مفكروهم للعبادة زمناً في كل عام، يقضونه بعيداً عن الناس في خلوة، يتقرَّبُونَ بها إلى آلهتهم بالزهد والدعاء، و يتوجّهُونَ إليها بقلوبهم، يلتمسون عندها الخير والحكمة؛ وكانوا يسمُّون هذا الانقطاع للعبادة، التحنُّف أو التحنُّث؛ وقد وجد سيدنا محمد ﷺ فيه خير ما يمكّنُه من الإمعان فيما شُغلت به نفسُه من تفكيرٍ وتأمل، كما وجد فيه طمأنينةَ نفسه، وشفاء شغفهِ بالوحدة، يلتمس أثناءها الوسيلة إلى ما لم يبرح شوقُه يشتدُّ إليه، من طلب المعرفة، واستلهام ما في الكون من أسبابها.

وكان بأعلى جبل النور، غار على فرسخين من شمال مكة للشرق يسمَّى (غار حراء) وهو خير ما يصلح للانقطاع والتحنث؛ فكان ﷺ يذهب إليه، طوال شهر رمضان من كل سنةٍ، يقيمُ به، مكتفياً بالقليل من الزاد يحمل إليه، ليعيش و يكرم من يمر عليه من الضيفان. يمعن طيلة وقته في العبادة والتأمل، وهو بعيد عن ضجة الناس وصخبهم، يتلمس الحقَّ والحقيقة والهداية، حتى إنه كان ينسى نفسه و ينسى طعامه، وهو مستغرق بالتأمل،

وكان يقلّب في صحف ذهنه كل ما وعى من حالة الناس، وما تردّوا [1] فيه من مساوىء وجهالات؛ يفكر في هذا الكون من أبدعه؟ وإلى النجوم من صنعها؟ وإلى السماء من رفعها؟ وإلى الأرض من بسطها؟ يفكّر في الشمس المضيئة والقمر المنير؟ وفي الصحراء الشاسعة وما فيها وعليها؟ يفكّر في الوجود وما يتصل به؟

في هذا التأمل والإدراك علم أن هناك مبدعاً حكيماً، وخالقاً عظيماً، وما هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، ولا تخلق ولا ترزق ولا تدفع عن نفسها شرا تصاب به، ولا تجلب نفعاً لأحد؟ لأنها صماء بكماء، وإن [2] هذه الأنصاب والأوثان والأصنام القائمة في جوف الكعبة أو حولها إلا أوهام باطلة، لم تخلق ذبابةً، ولم تأتِ بخير لمكة وأهلها؛ إذاً أين الحق؟ أين الحق في هذا الكون الفسيح بأرضه وسمائه ونجومه؟ أهو في هذه الكواكب المضيئة التي تبعث إلى الناس النور والدفء، ومن عندها ينحدر ماء المطر فيكون للناس ولأهل الأرض كافة من خلائق، حياة بالماء والنور والدفء؟ كلا، فما هذه الكواكب إلا أفلاك كالأرض سواء، أهو فيما وراء هذه الأفلاك، من أثيرٍ لا حدَّ له، ولا نهاية؟ ولكن ما الأثير؟ وهذه الحياة التي نحيا اليوم فتنقضي غداً، ما أصلها وما مصدرها؟ أهي مصادفة تلك التي أوجدت الأرضَ وأوجدتنا عليها؟ لكن للأرض وللحياة سُنناً ثابتةً لا تبديل لها، ولا يمكن أن تكون المصادفة أساسها، وما يأتي الناسُ من خيرٍ أو شرٍّ أفيأتونه طواعيةً واختياراً؟ أم هو بعض سليقهم، فلا سلطان لاختيارهم عليه؟ في هذه الأمور النفسية والروحية كان سيدنا محمد ﷺ يفكّر، أثناء انقطاعه وتعبده بغار حراء، وكان يريد أن يرى الحقَّ فيها، وفي الحياة جميعاً؛ وكان تفكيره يملأ نفسه وفؤاده وضميره وكل ما في وجوده، ويشغله لذلك عن هذه الحياة وصبحها ومسائها؛ فإذا انقضى شهر رمضان عاد إلى خديجة رضي الله عنها، وبه من أثر التفكير ما يجعلها تسائله، تريد أن تطمئنَّ إلى أنه بخيرٍ وعافية.

---

(١) في الأصل (تردُّوا) بضم الذال المشددة. والصواب فتحها لأفعل معتل الآخر بالألف فتحذف الألف ويبقى ما قبلها مفتوحاً. المحقق.

(٢) لا تستقيم العبارة إلا إذا كانت (إنْ) نافية بمعنى (ما) فليتأمل. المحقق.

٥٠ ــ موعد التكليف وبدء الوحي الإلـهي

لما بلغ سيدنا محمد ﷺ سِنَّ الكمال، وهي أربعون سنةً، أرسله الله العليُّ القدير، للعالمين بشيراً ونذيراً، ليخرجهم من ظلمات الجهالة، إلى نور العلم، ومن ذيول التأخر والهمجية، إلى طليعة التقدم والمدنية، وكان ذلك في أوائل شهر فبراير سنة (٦١٠) من الميلاد كما أوضحه وبيَّنه المرحوم العلامة محمود باشا الفلكي بعد دقّة البحث، أن ذلك كان في (١٧) رمضان سنة (١٣) قبل الهجرة، وذلك يوافق يوليو[١] سنة (٦١٠)م. ويؤكد العلامة المؤرخ ابن جرير، اليوم الذي بُعث فيه حبيب الله ومصطفاه سيدنا محمد ﷺ فيقول[٢]: اليوم الذي بعث فيه عليه الصلاة والسلام هو يوم الاثنين، وقد أورد في ذلك بعض الأحاديث منها: عن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه، «أن رسول الله ﷺ سئل عن صوم الاثنين فقال: ذلك يوم ولدتُ فيه ويوم بعثتُ».

«وفي رواية عمر رضي الله عنه، أنه قال للنبي ﷺ: يا نبي الله! صوم يوم الاثنين؟ قال ﷺ: ذاك يوم ولدتُ فيه ويوم أنزلت عليَّ فيه النبوَّة».

«وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ولد النبيُّ ﷺ يوم الاثنين، واستنبيء يوم الاثنين».

٥١ ــ ابتداء الرسالة والوحي

كان أول ما بدىء به من الوحي الرؤيا الصادقة.

جاء في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم[٣]، فكان ﷺ لا

---

(١) ذكر المؤلف قبل هذا بقليل أنه كان في أوائل شهر فبراير. وهنا قال (وذلك يوافق يوليو) فيرجع إلى المصدر الذي ذكره لتحقيق هذا. المحقق.

(٢) أنظر الجزء الثاني من تاريخ ابن جرير ص ٣٠٣.

(٣) إن عائشة لم تدرك هذه القصة، لكن الظاهر أنها سمعت ذلك منه ﷺ لقولها: قال:.

يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ـ أي ضيائه ـ ثم حبب إليه الخلاء ـ أي الخلوة والاختلاء ـ وكان يخلو بغار حراء ـ كما أسلفتُ سابقاً ـ فيتحنَّثُ فيه الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ـ أي يشتاق ـ و يتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحقُّ ـ الوحيُ ـ وهو في غار حراء فجاءه الملكُ[1]، فقال له: اقرأ، فقال: ما أنا بقارىء، قال فأخذني فغطَّني ـ ضمني وعصرني ـ حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطَّني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرَم».

فرجع بها رسول الله ﷺ ـ أي بالآيات ـ يرجُفُ فؤاده؛ فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: زملوني زملوني ـ أي لفُّوني ـ فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيتُ على نفسي ـ الموت من شدة الرعب الذي أخذني ـ فقالت خديجة: كلا والله، ما يخزيكَ اللهُ أبداً، إنك لتصل الرحم ـ القرابة ـ وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق؛ فانطلقتْ به خديجة حتى أتتْ به، ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزَّى، ابن عم خديجة؛ وكان امرأ قد تنصَّرَ في الجاهلية، وكان يكتب الكتابَ العبرانيَّ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتبَ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم! اسمع من ابن أخيك[2]، فقال لي ورقة: يا ابن أخي! ماذا ترى؟

فأخبره رسولُ الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس[3] الذي نَزَّلَ اللهُ على موسى، يا ليتني فيها ـ مدة النبوة ـ جَذَعاً[4]، ليتني أكون حياً،

(١) أي الوحي جبريل يوم الإثنين لسبع عشرة خلت من رمضان.

(٢) تعني النبيَّ ﷺ، لأن الأب الثالث لورقة هو الأخ للأب الرابع لرسول الله ﷺ، أو قالته على سبيل الاحترام.

(٣) المراد به جبريل عليه السلام، وأهل الكتاب يسمونه ناموساً.

(٤) أي كنت شاباً عند ظهور نبوتك لأنصرنك.

إذ يخرجكَ قومُكَ[1]، فقال رسولُ الله ﷺ: أو مخرجيَّ هم؟ قال ورقة: نعم، لم يأتِ رجلٌ قط بمثل ما جئتَ به، إلا عُودِيَ، وإن يدركني يومُكَ، أنصرْكَ نصراً مؤزّراً.

ثم لم ينشب ورقة أن توفي، ودفن بمكة، ومثله مثل بحيرا.

٥٢ ــ عادة الله في خلقه

جرتْ عادة الله تبارك وتعالى في خلقه من التدريج في الأمور كلها حتى تصل إلى درجة الكمال؛ ومن الصعب جداً على البشر تلقّي الوحي من الأوامر والنواهي من الملك لأول مرة، لذا أول ما بدىء به من الوحي الرؤيا الصادقة ــ كما أسلفتُ لك أيها القارىء الكريم ــ فكان لا يرى رؤيا، إلا جاءت مثل فلق الصبح؛ ثم حُبِّبَ إليه ﷺ الخلاء والتعبد لله في غار حراء على طريقه ودين الخليل إبراهيم عليه السلام، والتفكر في آلاء الله وما ابتدعه من مخلوقاته وذلك للابتعاد عن ظلمات هذا العالم، وينقطع[2] عن الخلق إلى الله تعالى، فإن في العزلة صفاء السريرة.

وبينما هو قائم في بعض الأيام على جبل النور، يفكر في الجبال من أرساها، وإلى[3] السهول الفسيحة من أوجدها، وإلى[3] المياه من أجراها، وإلى[3] الشمس من أجراها، وإلى[3] النجوم من كوكبها، إذ ظهر له شخص، وقال له: أبشر يا محمد! أنا جبريل، وأنتَ رسولُ الله إلى هذه الأمة، ثم قال له: اقرأ، قال: ما أنا بقارىء، لأنه ﷺ لم يتعلم القراءة قبلاً، فأخذه فغطَّه بالنمط الذي كان ينام عليه، حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله، فقال له: اقرأ... إلى آخر رواية عائشة التي رواها البخاري التي قدمتها لك أيها القارىء الكريم! وقد سبقت؛ وقد قص هذه الحادثة على خديجة، وأخذته لورقة وقال له ما قال.

---

(١) أي من مكة.

(٢) لو قال (والانقطاع) بدل (وينقطع) لكان أفضل. المحقق.

(٣) لو قال (وفي) بدل (وإلى) لكان أفضل. المحقق.

٥٣ ــ فترة الوحي وانقطاعه عن رسول الله ﷺ

انتظر رسولُ الله ﷺ هداية الوحي، وما يأتيه به، لإنارة سبيله؛ فإذا الوحي يفتر، وجبريل عليه السلام لا ينزل عليه وإذا ما حوله سكينة صامتة، جعلتْهُ في وحدةٍ من الناس، ومن نفسه؛ حتى أنه رُوِيَ أن خديجة رضي الله عنها قالت [١] له: (ما أرى ربك إلا قد قلاكَ) [٢]، وقد تولاه الخوفُ والوجل، فهما يبتعثانه من جديد، يطوي الجبال، و ينقطع في غار حراء، و يرتفع بكل نفسه ابتغاء وجه ربه ذي الجلال يسأله ويتضرّع إليه لِمَ قلاهُ بعد أن اصطفاه؟ ولم تكن خديجة أقلّ منه إشفاقاً ووجلاً؛ وإنه لكذلك تساوره هذه المخاوف، إذ جاءه الوحيُ بعد طول فتوره، وقد بلغت [٣] أربعين يوماً، كما رجّح ذلك المؤرخون، ليشتدّ شوقُ الرسول ﷺ للوحي، وقد كان، فإن الحال اشتدّ به ﷺ حتى صار كلما أتى ذروة جبلٍ، بدا له أن يرمي نفسه منها، حذراً من قطيعة الله تعالى له، بعد أن أراهُ نعمته الكبرى، وهي اختياره لأن يكون واسطة بينه وبين خلقه، فيتبدّى له الملكُ قائلاً: أنتَ رسولُ الله حقاً، فيطمئنّ خاطره، و يرجع عما عزم عليه؛ حتى أراد الله تعالى أن يظهر للوجود نورُ الدين، فعاد له الوحي بقوله تعالى: ﴿والضُّحى، والليل إذا سَجَى، ما ودَّعك ربُّكَ وما قَلَى، وللآخرةُ خيرٌ لكَ من الأولى، ولسوف يُعطيك رَبُّكَ فترضَى، ألم يَجدْكَ يتيماً فآوى، ووجدكَ ضالاً فهدَى، ووجدكَ عائلاً فأغْنَى، فأمَّا اليتيمَ فلا تقهر، وأما السائلَ فلا تنهر، وأما بنعمة ربك فحدّثْ﴾ [٤].

يا لجلال الله تباركت أسماؤه! أيَّةُ سكينةٍ للنفس، وغبطةٍ للقلب، وبهجةٍ للفؤاد!! انجابت مخاوفُ سيدنا محمد ﷺ، وزال كلُّ رَوْعِهِ، وارتسمتْ على ثغره ابتسامةُ الرضا، وافترّتْ شفتاهُ عن معاني الحمد وآي التقديس والعبادة؛ لم يبقَ لِمَا كانت تخشى خديجة رضي الله عنها من أن الله

---

(١) في الأصل (أن خديجة رضي الله عنها أنها قالت). وقد حذفنا كلمة (أنها). المحقق.

(٢) عن حياة محمد ﷺ ص ١٣٦.

(٣) (بلغتْ) يعني (فترة الوحي). المحقق.

(٤) سورة الضحى الشريفة.

قلاهُ، ولم يبق لفزعه وهلعه موضع، بل تولاهُ اللهُ تبارك وتعالى وتولاها برحمته، وأزال كل خشيةٍ أو ريبةٍ من نفسه، لا انتحار إذاً ولكن حياة وطمأنينة ودعوة إلى الله تعالى، وإلى الله وحده، إلى الله العلي الكبير تعنو له الجباه، و يسجدُ له من في السموات والأرض جميعاً؛ هو وحده جل وعلا الحقُّ، وكل ما يدعون من دونه الباطلُ، إليه وحده يتوجَّهُ القلبُ، و به وحده يجب أن تَتَعلَّق النفسُ، وفيه وحده يجبُ أن تفنى الروحُ، ﴿وللآخرة خيرٌ لكَ من الأولى﴾ الآخرةُ التي تحيط فيها النفسُ بكل الوجود في كمال وحدته سبحانه وتعالى والتي يتناهى إليها الزمانُ والمكانُ، وتُنْسَى فيها اعتبارات هذه الحياة الوضيعة الأولى، الآخرة التي يصير فيها الضحى ولألاء شمسه الباهر، والليلُ ودُجاهُ الساجي، والسموات والكواكب والأرض والجبال، كُلاً واحداً تتصل به الروحُ الراضية المرضية؛ هذه هي الحياة التي يجب أن تكون إليها الغايةُ من سفر هذه الحياة.

هذا هو الحقُّ وكل ما دونه صورٌ منه لا تغني عنه، هذا هو الحقُّ الذي أضاء بنوره روحَ محمد ﷺ والذي بعثه رحمةً للعالمين، ليفكّر من جديد في الدعوة إلى ربه سبحانه تعالى، والدعوة إلى ربه[1] يجب أن يطهر ثيابه، و يكفيه من نعم الله، أن الله وجده يتيماً فآواه، وأنه وجده فقيراً فأغناه، وأنه وجده ضالاً فهداه برسالته، حسبه هذا الفضل من الله، وَلْيَدْعُ إلى الحقِّ؛ ذلك أمر الله تعالى إلى نبيه ومصطفاه، ما ودَّعَهُ وما قلاهُ.

٥٤ ــ الدعوة إلى الله تعالى سرّاً

عاد الوحي، وعاد الآمين جبريل عليه السلام، إلى رسول الله ﷺ بعد ما رآه جالساً بين السماء والأرض، فداخله الرعب، وتذكّرهُ حينما جاءه بغار حراء في المرة الأولى، فرجع لبيته ﷺ وقال: «دثّروني دثّروني» فأنزل الله تبارك وتعالى عليه قوله: ﴿يا أيها[2] المدثّر، قم فأنذر﴾ حَذِّر الناسَ من عذاب الله، إن لم يرجعوا عن غيّهم وضلالاتهم، وما كان يعبدُ آباؤهم من آلهة مزيفة، وأحجار صماء، وتماثيل لا تغني من الله شيئاً،

(١) (والدعوة إلى ربه) أرى أن هذه العبارة لا موضع لها هنا. المحقق.

(٢) من سورة المدثر الشريفة الآيات (١-٧).

﴿وربكَ فكبر﴾ خصَّ مولاك الخالقَ المصور المبدعَ بالتعظيم، ولا تشرك معه في ذلك غيره من الأنداد، (وثيابك فطهر) لتكون على استعداد للوقوف بين يديه، إذ لا يليق بالمؤمن أن يكون مستقذراً نجساً، ﴿والرجزَ فاهجر﴾ أي اهجر أسباب الرجز وهو العذاب، بأن تطيع الله، وتنفّذَ أمره، ﴿ولا تمنُنْ تستكثرُ﴾ ولا تهب أحداً هبةً وأنت تطمعُ أن تستعيضَ من الموهوب له أكثر مما وهبتَ؛ فهذا ليس من شأن الكريم، ﴿ولربكَ فاصْبِر﴾ على ما سيلحقك من أذى قومك، حينما تدعوهم إلى الله، وإلى عبادته وحده، لأنه لا إله إلا الله.

٥٥ ــ فتح باب الدعوة إلى الله تعالى

قام ﷺ بأمر الله، متكلاً عليه سبحانه وتعالى بهمةٍ لا تعرف الملل، وعزيمة لا تعرف الكلل، وأخذ يدعو لعبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد؛ يدعو أقواماً جفاةً لا دينَ لهم، إلا أن يسجدوا لأصنام لا تنفعُ ولا تضرُّ، ولا حجة لهم، إلا أنهم متبعون لما كان يعبدُ آباؤهم وليس عندهم ميزان عقلي يتدبرون ما هم عليه و لم يكن لديهم من مكارم الأخلاق، إلا ما كان مرتبطاً بالعزة الجاهلية، والأنفة الهوجائية، وهو الذي كثيراً ما كان سبباً في الغارات والحروب، وإهراق الدماء، وزهق الأرواح، لأوهن الأسباب؛ فجاءهم رسول الله ﷺ بما لا يعرفونه؛ فذوُو العقول السليمة، بادروا إلى التصديق والإيمان وخلع الأوثان؛ أما من أعمتْهُ الزعامة والرئاسة أدبر واستكبر، خوفاً من سلب زعامته ورئاسته، وما كان يأتيه من وراء ذلك.

وكان أول من سطع عليه نور الإسلام، ورضا الإله العلاَّم، السيدة خديجة بنت خويلد زوجه، وعلي بن أبي طالب ابن عمه أبي طالب، وكان مقيماً عنده، يطعمه و يسقيه، و يقوم بأمره؛ لأن قريشاً قد كانوا في ضيق عيش، ومجاعةٍ شديدة، وكان أبو طالب مقلاً من المال، وكان كثير الأولاد، فقال لعمه العباسِ إن أخاكَ أبا طالب كثير العيال، والناس فيما ترى من الشدة، فانطلقْ بنا إليه، لنخفّفَ من عياله تأخذ واحداً، وأنا واحداً؛ فانطلقا وعرضا عليه الأمر، فأخذ العباسُ جعفر بن أبي طالب، وأخذ الرسولُ ﷺ علياً، فكان في كفالته كأحد أولاده؛ إلى أن جاءت النبوّة، وقد ناهز الاحتلام، فكان رضي

الله عنه تابعاً للنبي ﷺ في كل أعماله؛ ولم يتدنَّس بدنس الجاهلية من عبادة الأوثان، واتباع الهوى، وأجاب للدعوة إلى الإسلام زيد بن حارثة مولاه وخادمه ﷺ، وكان أول من أجاب المصطفى ﷺ من غير أهل بيته أبو بكر الصديق رضي الله عنه وكان صديقاً له ﷺ قبل النبوة.

إنني أرى لزاماً عليَّ أن أذكر ترجمة كلٍّ من هؤلاء المؤمنين، تبصرةً للقراء الكرام وذكرى لهم بهؤلاء السابقين لدين الإسلام، لذا فإني أقول باختصار:

٥٦ ــ ترجمة السيدة خديجة رضي الله عنها

هي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصي بن كلاب... فهي تلتقي مع النبي ﷺ في النسب عند هذا الحدّ [١].

كانت خديجة في زمن الجاهلية، امرأة فاضلة عاقلة مفكرة، ذات جمال وعفّةٍ وأدب، وذات مالٍ يزيّنُه الحسبُ والنسبُ؛ تزوجتْ قبل الرسول ﷺ بزوجين: أولهما هند بن النباش أبو هالة، وولدت له ولداً سُمّي باسم والده (هند) لأن أباه توفي، كما توفي الولد صغيراً، فتأيمت.

ثم خطبها عتيق[٢] بن عائذ بن عبد الله، وولدت له بنتاً[٣]، ثم طلّقها؛ ولما طلقت منه، تقدّم كثير من وجهاء العرب وعظمائها لخطبتها، فكانت تردُّهم رداً جميلاً، طمعاً في شرفها ومالها وجمالها، لأنها كانت بمنزلةٍ كبيرة[٤] بمكة.

ولما بلغ الرسولُ ﷺ العشرين من عمره، قال له عمه أبو طالب: يا ابن أخي! إن خديجة بنت خويلد، امرأة موسرة ذات تجارةٍ عريضةٍ وهي محتاجة إلى مثلكَ، في أمانتك وطهارتك ووفائك، فلو كلمناها فيك،

---

(١) لعل العبارة (عند هذا الجد) بالجيم لا بالحاء. وهو (كلاب). المحقق.

(٢) هذا هو الصواب. لا ما ذكره في موضع سابق من هذا الكتاب من أن أبا هالة تزوجها بعد عتيق. المحقق.

(٣) اسمها (هند) أيضاً. المحقق.

(٤) صواب تركيب العبارة هكذا (تقدم كثير من وجهاء العرب وعظمائها لخطبتها طمعاً في شرفها ومالها وجمالها لأنها كانت بمنزلة كبيرة بمكة، فكانت تردهم رداً جيلاً). المحقق.

فوكلتْكَ ببعض أمرها وتجارتها؛ فقال له رسول الله ﷺ : افعل يا عم ما رأيتَ؛ فسعى أبو طالب إليها، فكلمها في توكيل النبي ﷺ، فسارعَتْ إلى ذلك، ورغبَتْ فيه لأمانته وصدقه ونزاهته، ووجَّهَتْهُ إلى الشام ومعه غلام لها اسمه ميسرة، فلما ذهب إلى الشام، شاهد الغلام أموراً أعجبته وأدهشته، وآثاراً تحيَّر لها عقلُه؛ وما أن قدم إلى مكة حتى أخبر سيدتَهُ بأمانة محمدٍ وطهارته ويمن طالعه، وما ظهر له من البركة، وكثرة الأرباح، وسهولة الأمور؛ ثم قصَّ عليها ما يقول أهلُ الكتاب بمحمدٍ، من ظهور آيات النبوة عليه.

وكانت خديجة امرأة حازمة عاقلة جليلة، مرغوباً فيها لشرفها ويسارها، وكان خطّابها والمقبلون عليها إذ ذاك عدداً غير قليل، ــ كما أسلفتُ ــ لكنها رغبتْ في محمدٍ؛ فاجتمعت به ذات يوم وقالت له: يا ابن العم! إني قد رغبتُ فيكَ لقرابتي منكَ، وشرفك في قومك، وأمانتك فيهم، وحسن خُلُقِكَ، وصدق حديثك، فاخطبني من عمي (عمرو بن أسد) وكان شيخاً كبيراً.

فخرج من بيتها، فحدَّثَ أعمامه بحديثها، فخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب، ودخل على عمرو بن أسد، فخطب خديجة إلى ابن أخيه محمدٍ، فقبل عمرو على الفور؛ ولما أعلنت الخطبة أمرت خديجة بشاة فذبحت واتخذت طعاماً؛ ودعت عمَّها عمراً والرسول وعميه أبا طالب وحمزة ورؤساء مضر؛ فلما أكلوا، وقاموا عن الطعام، خطب أبو طالب خطبة القران، وأجابه ابن عم خديجة ورقة بن نوفل على خطابه[1].

ولما تم هذا الزواج بعد العقد، نحر الرسول ﷺ جزورين من الإبل، وأطعم الناس؛ وكانت هذه الوليمة، أول وليمة أولمها رسول الله ﷺ في حياته.

وقد أنجبت منه، أول ولدٍ هو القاسم وبه يكنَّى، وقد مشى وهو ابن سنتين، ثم ولدت له بنتاً سماها (زينب) وهي أكبر بناته؛ تزوجها العاص بن الربيع، وبعد الرسالة أسلمت زينب، وتركت زوجها لبقائه على دين قريش،

(١) أنظر الخطابين في كتابنا هذا (الاصطفا في سيرة المصطفى) ص ٦٤ و ٦٥.

ثم أسلم بعد مدة طويلة، فردَّ النبي ﷺ له زينب بعقدٍ جديد[1]، سنة سبع من الهجرة، وولدت له غلاماً، لكنه مات وهو طفل؛ ثم ولدت خديجة بعد زينب بنتاً اسمها (رقية) وقد تزوجها (عتبة بن أبي لهب) وقد طلقها لنزول القرآن بذم أبي لهب، قال تعالى: ﴿تبتْ يدا أبي لهب وتب...﴾، وقد تزوجها عثمان بن عفان، ثم ولدت خديجة له بنتاً اسمها (أم كلثوم) وقد تزوجها (عتيبة بن أبي لهب) فلما نزلت الآيات بأبي لهب ﴿تبت يدا أبي لهب...﴾ أمر أبو لهب ولده عتيبة بفراقها، ففعل، فلما توفيت أختها رقية زوجة عثمان بن عفان، زَوَّجَ النبي ﷺ عثمان ابنتَهُ الثانية أم كلثوم، فمن ثَمَّ لقّب عثمان بن عفان بذي النورين.

ثم ولدت السيدة خديجة رضي الله عنها بنتاً سمّاها النبيُّ ﷺ (ــ بإلهام الله تعالى ــ فاطمة) فكانت سيدة نساء العالمين وهي أمٌّ للحسن والحسين سيدي شباب الجنة، ولقبها البتول من البتل، وهو القطع، لانقطاعها عن نساء الأمة فضلاً ودِيناً وحسباً ولأن الله فطمها وذريتها من النار.

ثم ولدت خديجة لرسول الله ﷺ ولداً سمَّاه (عبد الله) وهو الملقب بالطيب والطاهر.

عاشت خديجة مع الرسول ﷺ أربعاً وعشرين سنة، وخمسة أشهر، وثمانية أيام، فكانت له نعم الزوج وخير رفيق ومؤنس وعون على تأدية أوامر الله تعالى.

فلما انقطع الوحي عنه ﷺ حزنت حزناً كبيراً، ولما عاد الوحي، فرحت فرحاً عظيماً، وقد أخبرها بعودته، وأن جبريل نزل عليه، وعلَّمه الوضوء والصلاة.

ثم شرع عليه الصلاة والسلام يعلمها، فتوضّأ أمامها، وتوضأت مثله، وصلَّى ركعتين، وصلَّتْ معه أول صلاةٍ في الإسلام. كانت خديجة رضي الله

---

(١) روى الإمام أحمد عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ ردّ ابنته زينب على أبي العاص على النكاح الأول، ولم يحدث شهادة ولا صداقا. وروى هذا الحديث أيضاً أبو داود والترمذي وابن ماجه) وأما حديث الحجاج بن أرطاة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رسول الله ﷺ ردّ ابنته على أبي العاص بمهر جديد ونكاح جديد، فقد ضعّفه الإمام أحمد وغير واحد. وقال يزيد بن هارون: حديث ابن عباس أجود إسناداً. المحقق.

عنها، أول سيدة آمنت بالله تعالى وكتابه ورسالة رسوله محمد ﷺ.

يقول بعض العلماء: إنها أول من استجاب لدعوة النبي ﷺ من الناس جميعاً، والراجح أن خديجة أول النساء إسلاماً، وأبا بكر أول الرجال، وعلياً أول الصبيان، وبلالاً أول الأرقاء. ولقد عرف النبي ﷺ لها فضلها ووفاءها وإخلاصها وكان يحبها الحبَّ كله، ويذكرها في حياتها بالفضل والإيثار، وبعد موتها بالذكر الحسن، والقول الجميل؛ فقد أعانته في الملمات وما تخلت عنه عند الكوارث والمحن، واحتملت معه بأس الحياة وآلامها.

روى أن رسول الله ﷺ، كان يجلس في بيت عائشة رضي الله عنها فسمع صوت هالة بنت خويلد أخت خديجة، فقال: هذا صوت خديجة، فبدت الغيرة في وجه عائشة وقالت له: قد رزقكَ اللهُ خيراً منها، قال: «والله! ما رزقني خيراً منها، آمنتْ بي إذ كفر بي الناسُ، وصدَّقتني حين كذبني الناس، وواستني بمالها، ورزقني الله منها الولد».

وقال ﷺ: «كانت خديجة خير نساء العالمين».

وقال: «إن لخديجة بيتاً في الجنة، من قصب ــ أي من اللؤلؤ ــ لا صخب فيه ولا نصب، وإني لأعرف فضلها، رحمها الله تعالى». وفي السنة العاشرة من البعثة المحمدية، قبل الهجرة بثلاث سنين، اعترى خديجة مرضٌ، لم يمهلها طويلاً، أن فارقت الحياة، وكان عمرها خمسة وستين عاماً، وستة أشهر وكان عمر النبي ﷺ يومذاك تسعاً وأربعين سنة، وثمانية أشهر، وأربعة عشر يوماً[1].

وقد دفنت في مقبرة مكة (المعلاة) وقبرها مشهور حتى الآن وقد زرتها وقرأت الفاتحة على روحها[2]، لأن والدتي دفنت بالقرب منها.

---

(١) لخصت سيرة خديجة رضي الله عنها من لواء الإسلام، العدد السابع للسنة السادسة شهر ربيع الأول سنة ١٣٧٢ هـ ص ٤٤٠ مع بعض الزيادات من كتب أخرى في التراجم.

(٢) الوارد عن النبي ﷺ الدعاء في مثل هذا الموقف. ولم يرد عنه ﷺ ولا عن أحد من أصحابه قراءة الفاتحة أو غيرها من القرآن. المحقق.

رضي الله عن السيدة خديجة وأرضاها، وجعل الجنة مأواها. وإليك يا أخي القارىء ترجمة أول من أسلم من الرجال.

٥٧ ــ ترجمة أبي بكر الصديق رضي الله عنه

اسمه في الجاهلية (عبد الكعبة) فسماه النبي ﷺ عبد الله، وكنّاه بأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

قال سيدنا علي رضي الله عنه، وقد[١] سئل عن أبي بكر، قال: (ذاك امرؤ سماه الله الصديق على لسان جبريل عليه السلام، وعلى لسان محمد ﷺ، كان خليفة رسول الله ﷺ على الصلاة؛ رضيه لديننا، فرضيناه لدنيانا)، وقال على المنبر: (إن الله سمى أبا بكر على لسان نبيه صديقاً)[٢].

نسبه: هو أبو بكر الصديق عبد الله بن عثمان ــ قحافة[٣] ــ بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي.

وأمه: سلمى بنت صخر التيمية بنت عم أبيه، وكنيتها أم الخير، أسلمت وهي من الصحابيات الجليلات[٤].

ولد أبو بكر بمكة المكرمة سنة (٥٧٣)م. وكانت ولادته بعد ثلاث سنوات من مولد النبي ﷺ، وفيها نشأ وترعرع.

وقد أجمعت الأمة الإسلامية على تلقيبه (بالصديق) لأنه أول من بادر إلى تصديق رسول الله ﷺ فيما كان يخبر به، ولازم الصدق طول حياته، فلم تقع منه هنات ــ أي شيء موبق ــ في الأفعال، وكانت له مواقف شريفة عالية في نشر الدعوة، ورفع علم الإسلام.

---

(١) في الأصل (أنه) بدل (وقد). والصواب ما أثبتناه. المحقق.

(٢) أنظر كتاب (أحسن القصص) لعلي فكري ج ٣ ص ٨.

(٣) الصواب (أبو قحافة) لا (قحافة). المحقق.

(٤) أنظر كتاب (دليل الفالحين شرح رياض الصالحين) ج ١ ص ٢٧٥ وانظر كتاب الإصابة ج ٢ ص ٣٤١.

نشأ كما ينشأ أبناء كرام العرب، متشبعاً بالحرية، وعزة النفس، عفيفاً، عالي الهمة، محباً للعمل، جاداً في مقصده؛ وشب على الأخلاق الفاضلة، والآداب الحسنة، لم يسجد لصنم قط، لأنه لم يقنع بهذه العقيدة الفاسدة منذ صغره.

ومما يدل على ذلك، وعلى رجاحة عقله، وتفتح بصيرته، وعدم استعداده لقبول الخرافات الجاهلية ما حدث منه وهو صغير، حينما أخذه والده إلى معبدٍ فيه الأصنام، وقال له: اسجد لآلهتك الشم العوالي.

فدنا من الصنم وقال له: إني جائع فأطعمني، فلم يجبه، ثم دنا منه وقال له: إني عطشان فاسقني، فلم يجبه، ثم قال له: إني عار فاكسني، فلم يجبه؛ فأخذ صخرة وقال: إني ملقٍ عليك هذه الصخرة فإن كنت إلهاً، فامنع عن نفسك، فلم يجبه، فألقى الصخرة عليه فخرَّ لوجهه(١).

روى ابن عساكر في تاريخه عن أبي العالية الرباحي قال: قيل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه في مجمع من أصحاب رسول الله ﷺ: هل شربت الخمر في الجاهلية؟ فقال: أعوذ بالله، فقيل: ولم؟ قال: كنتُ أصونُ عرضي، وأحفظُ مروءتي، فإن من شرب الخمر كان مضيَّعاً في عرضه ومروءته.

قال: فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: صدق أبو بكر، صدق أبو بكر(٢).
اشتغل أبو بكر الصديق بالتجارة في ثياب القز، وقد اكتسب ثقة العرب بأمانته وصدقه ولين طباعه، ودماثة أخلاقه فأحبوه، وخضعوا لرأيه، واطمأنت(٣) إليه، ومالوا نحوه، وأحلُّوه المقام الرفيع بينهم.

وكان أعلم الناس بأنساب العرب، خبيراً بأحوالهم وسياستهم، فأثرى واستغنى، وأضحى ذا مالٍ وفيرٍ، ولكن لم يطغهِ ذلك المال، إذ كان بالناس

---

(١) أنظر كتاب الخلفاء الراشدون ج ٣ ص ٩.
(٢) أنظر كتاب دراسات عن سيرة أبي بكر ص ٨.
(٣) الصواب (واطمأنوا) بدل (واطمأنت). المحقق.

رحيماً، وعلى الفقراء والمساكين شغوفاً، يصل الرحم، ويصدق الحديث، ويكسب المعدوم، ويعين على نوائب الدهر، ويقري الضيف ويرحم اليتيم والبائس.

ولما شرَّف الله سيدنا محمد ﷺ بالرسالة، كان أبو بكر أول رجلٍ أجابه للإسلام من غير تردد، قال رسول الله ﷺ: «ما دعوتُ أحداً إلى الإسلام، إلا كانت له كبوة غير أبي بكر»، وفي رواية: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت منه عنده كبوة ونظر وتردد، إلا ما كان لأبي بكر الصديق، ماعكم عنه حين ذكرته له، وما تردد فيه»[1]. ومعنى ماعكم عنه: أي تأخر عن قبوله، ولا تشدد في الإقناع.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما كلمتُ في الإسلام أحداً إلا أبى ــ امتنع ــ عليَّ وراجعني الكلام إلا ابن أبي قحافة، فإني لم أكلمه في شيء إلا قبله، واستقام عليه»[2].

أسلم أبو بكر وكان له من العمر (٣٧) سنة وبضعة أشهر، وعاش في الإسلام ستاً وعشرين سنة.

ولما سئل ابن عباس رضي الله عنهما: أي الناس كان أول إسلاماً؟ قال: أبو بكر الصديق، ألم تسمع قول حسَّان بن ثابت حيث يقول:

إذا تذكرت شجواً[3] من أخي ثقةٍ ... فاذكر أخاك أبا بكرٍ بما فعلا
خير البرية أتقاها وأعدلها ... بعد[4] النبي وأوفاها بما حملا
والثاني[5] التالي المحمود مشهده ... وأول الناس منهم صدَّق الرسلا[6]

---

(١) أنظر كتاب (عبقرية الصديق للعقاد) ص ٩٨. والحديث الأول في نور اليقين للخضري ص ٢٨.

(٢) أنظر كتاب دراسات في سيرة أبي بكر لبهيج البكري ص ٩.

(٣) في الأصل (شجراً) والتصحيح من المستدرك جـ ٣ ص ٦٤ نشروا دار الكتاب العربي ببيروت. المحقق.

(٤) في الأصل (إلا) بدل (بعد). والتصحيح من المصدر السابق. المحقق.

(٥) بالمصدر السابق (الثاني) بدون واو. المحقق.

(٦) رواه الحاكم في المستدرك..

وقال ابن عساكر في تاريخه عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: (لما أسلم أبو بكر، أظهر إسلامه، ودعا إلى الله وإلى رسول الله ﷺ، ثم تفانى في تأييد الإسلام، بجاهه وماله وحسن أدبه، وحسن معاملته واستمالة الناس إليه)[1].

صحب أبو بكر رسول الله ﷺ من حين إسلامه إلى أن توفاه الله، ولم يفارقه سفراً ولا حضراً ولا هجرة إلا فيما يأذن له في الخروج من حج أو غزوة، وكفاه فخراً وصحبته لرسول الله ﷺ في الهجرة، ونزل قول الله في ذلك: ﴿ثاني اثنين إذ هما في الغار، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا، فأنزل الله سكينته عليه﴾[2].

ويكفيه فخراً أن رسول الله ﷺ خصه بمحبته فقال: «ما أحد عندي أعظم من أبي بكر، واساني بنفسه وماله، وزوجني ابنته، وصحبني في الغار، ولو كنتُ متخذاً من أمتي خليلاً، لاتخذتُ أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام» وقال: «لا طلعت الشمسُ ولا غربت على أحدٍ، أفضل من أبي بكر، إلا أن يكون نبي».

وقال رسول الله ﷺ لحسّان بن ثابت: هل قلت في أبي بكر شيئاً؟

قال حسان: نعم يا رسول الله.

فقال: قل وأنا [3] أسمع، فقال حسان:

وثاني [4] اثنين في الغار المنيف وقد ... طاف العدوُّ به إذ صعّد [5] الجبلا

وكان حِبَّ [6] رسولِ الله قد علمُوا ... من البريةِ [7] لم يعدل به رجلا [8]

---

(١) أنظر كتاب (جواهر الأدب) للهاشمي ج ٢ ص ١٤٣.

(٢) جزء من الآية رقم (٤٠) من سورة التوبة.

(٣) بالمصدر السابق (حتى) بدل (وأنا). المحقق.

(٤) في الأصل (والثاني) بزيادة (ال) والتصحيح من المصدر السابق. المحقق.

(٥) بالمصدر السابق (صاعد) بدل (صعّد). المحقق.

(٦) في الأصل (حبُّ) والصواب بالنصب. المحقق.

(٧) بالمصدر السابق (الخلائق) بدل (البرية). المحقق.

(٨) بالمصدر السابق (بدلا) بدل (رجلا). المحقق.

فضحك[1] ﷺ حتى بدت نواجذهُ، ثم قال: صدقت يا حسّان هو كما قلت[2]. وقال ﷺ: «إن من أمنّ الناس عليَّ في صحبته وماله، أبا بكر، ولو كنتُ متخذاً خليلاً غير ربي، لاتخذتُ أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته؛ لا يبقينَّ باب إلا سُدَّ، إلا باب أبي بكر».

وقد أنزل الله بحقه الآيات لكثرة عتقه للعبيد وكرمه على المحتاجين ودعوته للإسلام ــ وسوف أشرح للسادة القراء من أسلم على يديه بعد الكتابة عمن اعتنق الإسلام أولاً ــ كان رضي الله عنه شجاعاً صنديداً بشهادة سيدنا علي رضي الله عنه حيث قال في خطابه: يا أيها الناس! من أشجع الناس؟ فقالوا: أنت يا أمير المؤمنين. فقال: أما إني ما بارزني أحدٌ إلا انتصفتُ منه، ولكن هو أبو بكر...

شهد الغزوات كلها مع رسول الله ﷺ، ثم تولى الخلافة بعد وفاته ﷺ، وسار على نهجه بموقف حازم بعد أن تمت له البيعة، سيَّر جيش أسامة بن زيد لغزو الروم، وقضى على مسيلمة[3] الكذاب وفتنته، كما قضى على تحرّك الأسود العنسي باليمن، وعلى طليحة بن خويلد، وعلى لقيط الأزدي، وعلى سجاح بنت الحارث، وعلى المرتدين، وفتح الله علي يديه الفتوحات، ومصر به الأمصار، ونشر دين الله، وأقام العدل. فكانت خلافته رحمة للناس، ودعماً للحقيقة والحق.

وفي يوم الإثنين ٢١ خلت من شهر جمادى الآخرة للسنة الثالثة عشرة للهجرة وفق ٢٢ آب سنة ٦٣٤ توفي مساءً بعد ما غابت الشمس، عن عمر (٦٣) سنة وآخر كلمة نطق بها: ﴿رب توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾.

ودفن ليلاً، وتولت زوجه (أسماء بنت عميس) غسله وعاونها ابنه عبد الرحمن لأنه أوصى بذلك.

---

(١) بالمصدر السابق (فتبسم) بدل (فضحك). المحقق.

(٢) (ثم قال صدقت) إلى قوله (هو كما قلت). هذه الزيادة لم تذكر بالمصدر السابق. المحقق.

(٣) في الأصل (أبي سيلمة) بزيادة (أبي). المحقق.

ودفن بحجرة ابنته عائشة عند قدمي رسول الله ﷺ . وحضر سيدنا عليّ وفاة الصديق وبكى قائلاً: رحمك الله يا أبا بكر! كنت والله أول القوم إسلاماً، وأخلقهم [1] إيماناً، وأشدهم يقيناً، وأعظمهم غنى، وأحفظهم على رسول الله ﷺ، وأحدبهم على الإسلام، وأحماهم عن أهله، وأنسبهم برسول الله خلقاً وفضلاً، وهدياً وصمتاً، فجزاك الله عن الإسلام، وعن رسول الله، وعن المسلمين خيراً؛ صدَّقت رسول الله حين كذَّبه الناس، وواسيته حين بخلوا، وقمت معه حين قعدوا، وسماك الله في كتابه (صديقاً) فقال: ﴿والذي جاء بالصدق وصدَّق به﴾، كنت والله! للإسلام حصناً، وللكافرين ناكياً، لم تضلل حجتك، ولم تضعف بصيرتك، ولم تجبن نفسك، كالجبل لا تحركه القواصف، ولا تزيله القواصف كنت كما قال رسول الله ﷺ ضعيفاً في بدنك، قوياً في دينك.

روى البخاري في صحيحه وأبو داود، عن محمد بن الحنفية رضي الله عنه، قال: قلتُ لأبي: أي الناس خير بعد النبي ﷺ ؟ قال: «أبو بكر، قلتُ ثم من؟ قال: عمر، وخشيتُ أن يقول عثمان، فقلت ثم أنت؟ قال: ما أنا إلا رجل من المسلمين».

رضي الله عن أبي بكر وأرضاه، وجعل الجنة مأواه.

وإليك يا أخي ترجمة حياة بلال بن رباح الحبشي، لأنه أول من أسلم من العبيد الأرقاء رضي الله عنه.

٥٨ ــ ترجمة بلال بن رباح الحبشي رضي الله عنه

هو بلال بن رباح الحبشي، وأمه جارية حبشية اسمها حمامة، كان مولده في بني جمح، من أشراف قريش، ولهم بين العرب مجدٌ عريق، وصيتٌ بعيد؛ نشأ بلال في هذه البيئة العربية من بني جمح، وتربَّى مع أولادهم، وتأدب بآدابهم، فترعرع وهو الحبشي الجنس واللون، طلق اللسان، ناصع البيان، لم

(١) لعل الصواب (وأخلصهم) بالصاد لا بالقاف. المحقق.

يشب منطقَهُ ما يشوب منطق سواه من الأحاديث، من لكنةٍ يغمض بها بيانه، أو فهاهةٍ يتعثّر فيها لسانه.

لقد تجلّى لبني جمح وسائر أهل مكة في بلال، مظاهرُ روحهِ الوثّابة وعقله الرجيح؛ فحملهم ذلك على أن يقرّبوهُ[1] من محالهم، وأن يعفوهُ من أعمال العبيد، و يشركوه في بعض أعمال التجارة، كأنه أحد الأحرار.

ولقد أتاح له هذا النصيب المحدود من الحرية، أن يتصل ببعض أشراف مكة، وأن يكتب له شرف الا تصال بسيدنا محمد رسول الله ﷺ وبأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأن يحتلّ من قلب النبي ﷺ قبل البعثة، مكان الثقة والمحبة.

جاوز عُمْر سيدنا محمد بن عبد الله الأربعين، فاختاره الله تعالى ليكون رسوله الأمين إلى الناس كافة؛ فأخذ يدعو الناس سراً إلى دينه الحق الجديد؛ وما أن سمع بلالٌ هذا الهمس يسري في أرجاء مكة ورحابها حتى أسرع إلى صديق محمدٍ، ليستوضحه حقيقة النبأ، فإذا به يسمع ما لا عهد له بسماعه، من معجز كلام، هو القول الفصل، وما هو بالهزل، و يلمح حقائق قدسية، تشعُّ أنوارها، لتسمو بعقله من حضيض الأرض، إلى ملكوت السماء؛ فيعود بلالٌ مأخوذاً بما سمع مطمئناً لما شهد، فيردّد وهو سائر في سريرته: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله).

و بذلك كان لبلالٍ شرف السبق إلى الإسلام مع السابقين الأخيار. سئل رسولُ الله ﷺ لأ ول عهده بالنبوة: مَنْ آمنَ بكَ؟ فقال: اثنان: حرٌّ وعبدٌ، أما الحر فكان أبو[2] بكر رضي الله عنه، وأما العبدُ، فهو بلال بن رباح[3].

تقدّم رجلٌ إلى أمية بن خلف، وكان سيداً لبلال، في مجلسه في نادي قريش، وقال الرجل له: أو ما بلغك الخبر؟

---

(١) في الأصل (يقرّبوه) بفتح الراء المشددة، والصواب الكسر. المحقق.

(٢) الصواب حسب قواعد النحو (أبا بكر). أو لعل العبارة (فهو أبو بكر). المحقق.

(٣) عن مجلة لواء الإسلام السنة (١٤) عدد ٧ سنة (١٣٨٠هـ) ص ٤٤٣.

قال أمية: وماذا كان؟ قال الرجل: لقد شهدتُ عبدك بلالاً، يختلف إلى محمد في قائلة النهار أحياناً، وفي ظلام الليل آناً، وهو خائفٌ، يبدو عليه الحذر في مشيته، ولقد يخيَّل إليَّ فيما توسمته في معارف وجهه، واستقرأته من حالته، أنه دخل فيما يدعو إليه محمد بن عبد الله، وانخرط فيما تهاوى فيه كثير من قومنا في هذا الدين.

قال أمية لمحدّثه: أحقاً ما تقول، وعلى بيِّنةٍ أنتَ لما ترْوي؟

قال الرجل: نعم، ولهذا نفضتُ عليك الخبر، وأفضيت إليك بما أرى، لتهذّب هذا العبد، وتقضي على هذه الفتنة، التي توشك أن يندلع لهيبها بين الموالي وقد أخذَتْ سبيلها بين الأشراف.

قام أمية من مجلسه غاضباً، وذهب إلى داره، وإن قلبه ليحتوي من الغيظ الشيء الكثير، فأخذ يعدُّ الشرَّ لبلال والمكروه من الأعمال والأفعال. جاءه بلال ووقف بين يديه يضطرب ويرتعد، إنه رأى الشرَّ في عيني سيده أمية، ونار الغيظ تكاد تخرج أوارها من جبينه، قال أمية له: ما هذا الذي بلغني عنك، وترامى إليَّ من أمرك؟ أحق ما يقال إنك تختلف إلى محمدٍ تحت أروقة الظلام، أو ستار من قائلة النهار، وإنك آمنت بدعوته، واستجبت إلى أوهامه وضلاله، كافراً باللات والعزّى، صائباً عن آلهة قريش والعرب؟

قال بلال: أما إذ وصل إليك علمي[1]، وانتهى إليك خبر إسلامي، فإني لا أكتمك إني قد جئتُ محمداً، فآمنتُ برسالته، وصدقته فيما يدعو إليه ولا عليَّ بعد أن حدثتُكَ بمكنوني، أن يعلم الناسُ جميعاً أمري.

قال أمية: أو ما علمت أنك مملوك في يميني، وعبد رقيق كبقية متاعي وأني من يوم أن اشتريتك إنما اشتريت جسمكَ وعقلك، وتملكتُ روحَكَ وجوارحك، وأنه لا قدرة لعقلك أن يعتقد ما يشاء، ولا لتفكيرك أن يذهب أنّى شاء؟ فما هذا الذي تجاوز به حدُّكَ، وتخرج به على دين سيدك؟

---

(١) (علمي) هكذا في الأصل. ولعلها (أمري) أو كلمة أخرى بمعناها. المحقق.

قال بلال: أما إني عبدك وأسيرك وخادمك ومولاك، فهذا ما لا أنكره عليك، ولو أمرتني بقطع وادٍ مسبع ــأي كثير السباعــ في جوف الظلام لفعلتُ، أو كلفتني حمل الأحجار في رمضاء الظهيرة لما شكوت. أما عقلي وفكري، وعقيدتي وإيماني، فهذا الذي لا يقع تحت سلطانك، ولا يدخل في حوزتك ولا إمكانك، وما يضيرك من إيماني وإسلامي، وما يهمك في أن أملك عقلي وتفكيري، ما دمتُ قائماً على خدمتك، حافظاً لعهدك.

قال أمية، وقد ثارت ثائرته، وهاج غضبُه: لستَ أيها العبدُ إلا مملوكاً لي، من مفرقِ رأسك، إلى أخمص قدميك، وفيما بين ذلك من عقلك وتفكيرك، حتى خلجات قلبكَ وخطرات نفسك، وهمسات لسانك، لا تملك من كل ذلك شيئاً، وسأذيقك من ألوانِ العذاب، وضروب النكال، حتى أستلَّ ما تعتقدهُ من قلبك، وأمزّق نسيجَ ما تتوهم بين ألفاف صدرك؛ ثم هجم عليه، مغيظاً مهتاجاً، عزيزاً قادراً، غليظ الكبد، شديد الوطأة، وشدَّ وثاقه، وقيّد يديه ورجليه، ودفع به إلى الصبيان في بطحاء مكة يلعبون به، و يقذفون به كالكرة، و يدفعونه كسقط المتاع.

وعاد أمية في أعقاب يومه إلى بلال، يشهد مصرع الإيمان في قلبه، و يرى مبلغ العذاب من نفسه وجسمه؛ ولكن ماذا عسى أن يبلغ العذابُ من نفسٍ أسلمتْ لله، ووجهت وجهها لله سبحانه؟ وما القيدُ والأغلال، وما الكيد والنكال، بجانب حلاوة الإيمان التي ذاقها، ونعمة الإسلام الذي ينعم قلبه بها؟

قال أمية: كيف وجدتَ العذابَ يا بلال؟ أخيرٌ لكَ ما أنت فيه من همٍّ وبلاء، أم عودة إلى اللات والعزَّى، وكفرٍ بما جاء به محمدٌ، وما يزعمه من دين جديد؟

فنظر إليه بلالٌ نظرة جمع فيها كل ما تطويه نفسه من احتمالِ العذاب[1]، واستعدادٍ للبلاء، واحتقارٍ لما يوقعه به أمية من تعذيبٍ وإيذاء، وكأنه يقول له: قد تملكَ السوط تنال به جسمي، والحبل تغلّ به عنقي ورجليَّ، بل لك السهم

(١) الأفضل (للعذاب). المحقق.

الذي تستطيع أن تسدّده إلى نحري، والسيف تضرب به عنقي، أما أن تملك عقلي وقلبي، وتتحكّم [1] في ديني وعقيدتي، فهذا الذي لا يستطيع أن يناله بطشُكَ، والذروة التي لا تستطيع أن ترتقيها بقوتك وسلطانك.

ثم ما زاد بلالٌ بعد نظرته على أن قال: أحد أحد، إعلاناً لغريمه بأنه سيظل على توحيده وإيمانه وعقيدته وإذعانه، وإن ترادفت عليه المحن والمصائب، واستقبلتْهُ صنوف البلاء.

وطلعت الشمس في اليوم الثاني قويةً ملتهبةً، وجاء أمية ببلال، فأضجعه على الرمضاء، وأتى بصخرةٍ عاتيةٍ، فأراحها على صدره، وظلَّ بلالٌ بين رمضاء ملتهبة، وصخرةٍ ثقيلة قاسيةٍ جاثمة على صدره؛ وفيما بين ذلك الشمس تقذفه بسهامها، والرياح تزجي بغبارها؛ وبلالٌ لم يغيّر حرفاً من الكلمة التي أصبحت شعاره وعقيدته، وعنوان إسلامه وإيمانه: أحدٌ أحدٌ هو الله الذي أعبده وأتوجه إليه: أحدٌ أحدٌ، هو الله الذي أقصدهُ وأعتمد عليه، لا يضيرني هذا العذاب، ولا يزحزحني [2] عن الإيمان به هذا العقاب: أحدٌ أحدٌ، هو الله وحده الذي به أستدفع كل بلوى، وألتجىء إليه في محنتي الكبرى، وإن ضاقت منافذ الأمل، ورثت حبال الرجاء (أحدٌ أحدٌ) هو الله الذي لا إله غيره ولا معبود سواه بعث محمداً رسولاً ومرشداً أميناً، ومن نعماه عليَّ أن أكتب من تابعيه وأكون [3] من محبيه ومريديه، وإنني سأصبر على هذا البلاء، وأصمد [4] لذلك القضاء.

مرَّ أبو بكر الصديق رضي الله عنه فرأى بلالاً يئنُّ من آلامه، ويتلوّى في محنته، وسيده أمية واقفٌ أمامه في كبرهِ وغروره، وجهله مظلمه ينظر إليه وكأنه قد شُفي من غيظه. فأدركَتْ أبا بكرٍ الصديق رضي الله عنه الرحمةُ، وتحرّكت في نفسه الشفقة، فقال لأمية: حَتّامَ تترك هذا المسكين غرضاً لعذابك، وهدفاً لبلائك؟ وما حظُّكَ من هذا الأنين تسمعه، ومن هذه الدموع تبعثها من مآقيها؟ أي جرمٍ اقترفه، وأي إثمٍ جناه؟

---

(١) في الأصل (وتحتكم). والصواب ما أثبتناه. المحقق.

(٢) (يزحزني). المحقق.

(٣) في الأصل (وأكن). والصواب ما أثبتناه. المحقق.

(٤) في الأصل (وأضمد) بالضاد. والصواب ما أثبتناه. المحقق.

قال أميةُ في صلفهِ وغروره وعجبه وخيلائه: هذا عبدي وملكُ يميني أعذّبه كيف أشاء، وأطلقه متى أشاء؛ وما أوقعه في بلائه، وحرَّك عليه أسباب شقائه، إلا أنتَ وصاحبك محمد، وإذا كنتَ مشفقاً به، وحدباً عليه، فدونَكَ اشتره وخلّصه مما هو فيه، فلن أرفع عنه العذاب، حتى يعود إلى اللات والعزّى.

وانتهزها أبو بكر فرصةً سانحةً، يخلّص بها بلالاً من محنته، و يرفع عنه عذابَ سيده، فقال لأمية: قد اشتريته منكَ، وليس لك عليه الآن من سبيل[1].

إليكَ المال إن المال عندي ... يهون إذا فديتُ به بلالا

قم يا بلال! فأنتَ حرٌّ لوجه الله تعالى.

كان جزاء بلال على صبره وثباته على عقيدته وصدق إيمانه أنه صار حراً طليقاً وقد اتخذه الرسول ﷺ أميناً له وخازناً ومؤذناً، لأنه كان حسن الصوتِ، نديَّ النبرة، بارع النفحة؛ ظل حياة الرسول ﷺ يؤذّن بين يديه، لا يتخلّف عنه في سفرٍ ولا حضرٍ، فلما اختار الله تعالى رسوله للرفيق الأعلى[2] امتنع بلال عن الأذن وأن يؤذن لأحدٍ من بعده.

أقول: عن هذا البطل الصابر المؤمن:

وعن الصابرين حيّ بلالاً ... فلدى صبرهِ يحارُ البلاء
أسكنوهُ الرمضاء كي يفتنوهُ ... وهو في الخطب صخرةٌ صمَّاء
(أحد) وهي شغلُه شغلتْهُ ... فإذا النارُ جنةٌ خضراء
جسمُ عبدٍ قد زانَهُ نفسُ حرٍّ ... يتمنّى أمثالها العظماء
قد شراهُ من العذاب أبو بكـ ... ـرٍ ولله كان هذا الشراء
فارفع الصوتَ يا بلالُ وأذّنْ ... بصلاةٍ تصغي[3] إليكَ السماء

---

(١) أنظر كتاب (قصص القرآن) للنجار وجماعته المؤلفين مع بعض الزيادات الضرورية مني حسب المقام ص ٣٠٨-٣١٢.

(٢) لو قال (لجواره) بدل (للرفيق الأعلى) لكان أفضل. المحقق.

(٣) في الأصل (تصفي) بالفاء بدل الغين. والصواب ما أثبتناه. المحقق.

وقد شهد بلالٌ الغزواتِ كلها مع رسول الله ﷺ، وكان في غزوة بدرٍ، البطل المغوار، وانقضَّ على سيده أمية وعلى ولده مع جماعة من الصحابة، فأردوه قتيلاً وولده.

وفي خلافة عمر رضي الله عنه، انتقل بلال للشام، وعاش بقية حياته، ومات فيها سنة ستٍ وعشرين للهجره، ودفن في دمشق. وبقيت سيرته العطرة، منار الهداية للسالكين المؤمنين.

رضي الله عن بلال وأسكنه فسيح الجنان آمين.

بقي لزاماً عليَّ أن أكتب لك يا أخي القارىء! كلمة عن حياة سيدنا علي رضي الله عنه، لأنه أول من آمن برسالة محمدٍ ﷺ من قبل سن الاحتلام، فأقول:

٥٩ ــ ترجمة سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه

علي بن أبي طالب واسمه عبد مناف كما ذكره أبو الفداء في تاريخه ج ١ ص ١٧٠. بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي فهو ابن عم رسول الله ﷺ؛ وأمه (فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، أسلمت وهاجرت وتوفيت بالمدينة المنورة وقبرها مشهور في البقيع، وقد نزل الرسول ﷺ في قبرها لتربيته له وخدمتها في صغره).

وفاطمة بنت أسد هي أول هاشمية تزوجت هاشمياً، وولدت أول خليفة هاشمي، أبواه هاشميان.

وقد اجتمعت في عليّ، خلاصة الصفات التي اشتهرت بها هذه الأسرة الكريمة من النبل والذكاء والكرم والشجاعة والمروءة والإحسان.

ولد في مكة المكرمة داخل الحرم في السنة الثانية والثلاثين من ميلاد النبي ﷺ؛ وشبَّ في بيت رسول الله ﷺ، متحلياً بمكارم الأخلاق، متقرباً بسيدنا رسول الله ﷺ في أقواله وأعماله.

لقد أصاب القحطُ الشديد قريشاً، وكان عاماً صعباً، أهاب النبي ﷺ بعميه الحمزة والعباس، أن يحملوا ثقل عمه أبي طالب في تلك الأزمة العصيبة التي تمر على أهل البلاد، وخاصة أهل مكة المكرمة، جاءوه وسألوه: أن يدفع إليهم ولدَهُ ليكفوه أمرهم فقال: دعوا لي عقيلاً، وخذوا من شئتم؛ لأن عقيلاً كان أحبَّ أولاده له[1]، فأخذ العباسُ طالباً، وأخذ حمزة جعفراً، وأخذ النبي ﷺ علياً.

فخصَّه النبيُّ ﷺ بعطفه ورعايته، وغمره بحبه، وشمله بحنانه، فنشأ سيدنا علي رضي الله عنه عفَّ اللسان، قويَّ العزيمة، طاهر العقيدة، نقيَّ الإيمان، لم يتدنس بدنس الجاهلية، ولم يتلوَّث بعمل الوثنية، لم يعبد وثناً، ولم يسجد لصنمٍ، لذا قيل عنه: (كرَّم الله وجهه).

ولما بعث رسولُ الله ﷺ، كان علي في الثامنة من عمره. دخل يوماً على النبي ﷺ ومعه خديجة رضي الله عنها وهما يصليان لله تعالى سواء، فقال عليٌّ: ما هذا؟ فقال رسول الله ﷺ: دين الله الذي اصطفاه لنفسه، وبعث به رسلَهُ، فأدعوكَ إلى الله وحده لا شريك له، وإلى عبادته، والكفر باللات والعزى، فقال عليٌّ رضي الله عنه: هذا أمرٌ لم أسمع به من قبل اليوم، فلستُ بقاضٍ أمراً، حتى أحدّث أبا طالب؛ وكره النبي ﷺ أن يفشي سرَّهُ قبل أن يستعلنَ أمره؛ فقال له: يا علي! إذا لم تسلم فاكتم هذا؛ فمكث عليٌّ ليلته؛ ثم إن الله تعالى هداهُ إلى الإسلام، فأصبح غادياً إلى رسول الله ﷺ فأسلم على يديه[2]. وكان عليٌّ يخفي إسلامه، خوفاً من أبيه إلى أن اطلع عليه، وأمره بالثبات عليه، فأظهره حينئذٍ.

عن أنسٍ رضي الله عنه قال: (بُعث النبيُّ ﷺ يوم الإثنين وأسلم عليٌّ يوم الثلاثاء).

---

(١) الأفضل (إليه) بدل (له). المحقق.

(٢) أنظر سيرة (محمد رسول الله) ص ٨٧. وإن علياً لم يكن حين أسلم يبلغ الحلم، بل كان ابن ثماني سنوات وقيل عشر.

وقد أمره رسولُ الله ﷺ أن يضطجع[1] على فراشه ليلة خروجه للهجرة، وقال له: إن قريشاً ما رأوك مضطجعاً[2] لم يفقدوني، فاضطجع[3] على فراشه ــ وسيأتي الكلام على ذكر ذلك عند الهجرة ــ ثم لحق برسول الله ﷺ بالمدينة بعد قضاء الودائع لأهلها التي كانت عند النبي ﷺ فلما وصل علي إليها، كانت قدماه قد ورمتا من المشي، وكانتا تقطران دماً، فاعتنقه رسول الله ﷺ وبكى، رحمةً لما أصاب قدميه، ودعا له بالعافية.

وحضر المشاهد كلها، إلا غزوة تبوك، لأن رسول الله ﷺ خلّفه على أهله؛ وفي غزوة أحد أصيب سيدنا علي بست عشرة ضربة، وكان رضي الله عنه حيدرة الأبطال، وسيد الشجعان، ومع شجاعته النادرة عالماً متضلعاً بالشريعة، وحاكماً عادلاً في قضائه؛ قال فيه سيد الخلق: «أقضاكم علي» وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»[4] وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنه: «إذا ثبت لنا الشيء عن علي لم نعدل عنه إلى غيره».

واستخلف سيدنا علي رضي الله عنه، وبويع بالمدينة المنورة في مسجد رسول الله ﷺ بعد قتل الخليفة الطاهر سيدنا عثمان رضي الله عنه.

وقد انتصر لعثمان، واتّخذ حرّاساً عليه ولديه[4] الحسن والحسين رضي الله عنهما وأخلص في النصح لعثمان؛ غير أن سيدنا علي[5] لنصح الناصحين يوم بيعته، كي يتساهل مع معاوية.

ولسيدنا علي رضي الله عنه مواقف عظيمة تشهد على بطولته[6] في رفع منار الإسلام والمسلمين.

---

(١) في الأصل (يضجع). والصواب ما أثبتناه. المحقق.
(٢) في الأصل (مضجعا). والصواب ما أثبتناه. المحقق.
(٣) في الأصل (فاضجع). والصواب ما أثبتناه. المحقق.
(٤) لم يصح هذا الحديث. المحقق.
(٤) يعني: اتخذ ولديه (الحسن والحسين) حراساً على عثمان رضي الله عنهم جميعاً. المحقق.
(٥) الصواب (عليا) بالنصب لأنه بدل من منصوب. المحقق.
(٦) الصواب (ببطولته) بدل (على بطولته). المحقق.

قال الإمام أحمد بن حنبل: (ما ورد لأحدٍ من أصحاب رسول الله ﷺ من الفضائل، ما ورد لعلي رضي الله عنه).

أخرج الترمذي والحاكم وصححه بن بريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أمرني بحب أربعة، وأخبرني أنه يحبهم. قيل يا رسول الله! سمّهم لنا، قال: عليٌّ منهم، يقول ذلك ثلاثاً، وأبو ذرّ، والمقداد، وسلمان».

وأخرج الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «آخى رسولُ الله ﷺ بين أصحابه، فجاء علي تدمع عيناه، فقال يا رسول الله! آخيتَ بين أصحابك، ولم تؤاخِ بيني وبين أحدٍ، فقال رسول الله ﷺ: أنتَ أخي في الدنيا والآخرة».

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه عن سيدنا علي رضي الله عنه قال: «والذي فَلَقَ الحبَّةَ، وبرأ النسمة! إنه لعهد النبي الأمي إليَّ، أنه لا يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافقٌ».

كان إماماً في العلم والشجاعة والكرم والزهد والورع، يخاف الله ويخشاه.

وقد كتب الله تعالى له الشهادة بعد عدله وقضائه وبلاغته على يد أشقى خلق الله، عبد الرحمن بن ملجم، حيث ساعده شبيب بن بجرة، جلسا في مسجد الكوفة أمام السدة التي يخرج منها سيدنا علي رضي الله عنه؛ فلما خرج اعترضه الرجلان الشقيّان، وضرباه وقد أصابه ابن ملجم بسيفه وقد سنّه شهراً، فوقع صريعاً وهو يقول لا يفوتنكم الرجل، وشدَّ الناس عليهما، فهرب شبيب وقبض على ابن ملجم وكان ذلك في السابع عشر من شهر رمضان سنة أربعين من الهجرة واستشهد بعد ذلك بثلاثة أيام ودفن بالكوفة، وغسله الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر وهو ابن ثلاث وستين سنة، وخلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر.

٦٠ ــ ترجمة زيد بن حارثة رضي الله عنه

إن زيد بن حارثة رضي الله عنه من السابقين الأولين للإسلام، لذا ترجمت له تاريخ حياته مع الذين أسلموا وكانوا في طليعة المسلمين في بدء الدعوة إلى الله سراً.

هو زيد بن حارثة بن شراحيل بن كعب بن عبد العزّى، أخذ في السبي وعاش في بيت خديجة رضي الله عنها؛ وكان عمره ثمان سنين، وقد وهبتْهُ السيدة خديجة للنبي ﷺ قبل النبوة، وكان يحبه وتبنّاهُ ﷺ، لذا كان يقال: أحب حِبَّ رسول الله ﷺ. وقد حزن والده حارثة عليه حزناً شديداً، ووجد عليه وجداً قوياً، ولما علم أبوه أنه بمكة، قدمها ليفديه، فدخل حارثة وأخوه كعب على النبي ﷺ فقالا: يا ابن عبد المطلب! يا ابن هاشم! يا ابن سيد قومه! جئناك في ابننا عندك، فامنن علينا، وأحسن إلينا في فدائه؛ فقال: من هو؟ قالا: زيد بن حارثة، فقال رسولُ الله ﷺ: فهلا غير ذلك؟ قالا: ما هو؟ قال: ادعوه وخيروه، فإن اختاركم فهو لكم، وإن اختارني فوالله! ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحداً؛ قالا: قد زدتنا على النصف وأحسنتَ، فدعاهُ رسولُ الله ﷺ فقال: هل تعرف هؤلاء؟ قال: نعم، هذا أبي، وهذا عمي، قال: فأنا من قد عرفتَ ورأيتَ صحبتي لكَ، فاخترني أو اخترهما. قال: ما أريدهما، وما أنا بالذي أختار عليكَ أحداً، أنتَ مني مكانَ الأب والعم؛ فقالا: ويحك يا زيد! أتختار العبودية على الحرية، وعلى أبيكَ وأهل بيتك؟ قال: نعم، وقد رأيتُ من هذا الرجل شيئاً، ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً؛ فلما رأى رسولُ الله ﷺ ذلك أخرجه إلى الحجر، فقال: يا من حضر اشهدوا أن زيداً ابني، يرثني وأرثه؛ فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت نفوسهما وانصرفا[1].

وهاجر زيدٌ مع النبي ﷺ إلى المدينة، وشهد بدراً وأحداً والخندق والحديبية وخيبر، وكان هو البشير إلى أهل المدينة بنصر المؤمنين يوم بدر، وكان من الرماة المذكورين، وزوّجه رسولُ الله ﷺ مولاته أمّ أيمن، فولدت له أسامة، وتزوج زينب بنت جحش أم المؤمنين ــ وهي ابنة عمة رسول الله ﷺ ــ ثم طلقها، ثم تزوجها رسول الله ﷺ.

---

(١) زيد بن حارثة من أبوين مسيحيين، لكنه لم يكن يعلم شيئاً عن المسيحية، لأنه سبي صغيراً، ووهبته خديجة للنبي ﷺ قبل النبوة وهو ابن ثمان سنين.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية: ﴿وإذ تقولُ للذي أنعم اللهُ عليه، وأنعمت عليه، أمسك عليكَ زَوْجَكَ واتق الله، وتخفي في نفسك ما الله مبديه، وتخشى الناس والله أحقُّ أن تخشاه﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وكان أمر الله مفعولا[1]﴾ فإن رسول الله ﷺ لما تزوَّجها ــ يعني زينب ــ قالوا: إنه تزوَّج حليلة ابنه، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ولكنْ رسولَ اللهِ وخاتَم النبيين﴾[2] وكان زيدٌ يقالُ له: زيد بن محمدٍ، فأنزل الله تعالى ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾[3] الآية.

قال العلماء الأجلاء: ولم يذكر الله عز وجل في القرآن باسمه العلم، من أصحاب نبينا وغيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم إلا زيداً في قوله عز وجل: (فلما قضى زيدٌ منها وطراً زوجناكها)[4]. وبقول الله تعالى: رُدَّ كلُّ قولٍ فيه افتراء على صاحب الرسالة، الصادق الأمين ﷺ، ودُحضت كل حجة لأولئك الخراصين الذين افتروا على حبيب الله ومصطفاه، وأخرس كل مفترٍ بعد بيان الله عز وجل.

وقد آخى رسول الله ﷺ بين زيد بن حارثة وبين حمزة[5]، عم النبي ﷺ.

وأرسله رسولُ الله ﷺ أخيراً، أميراً على الجيش الإسلامي في غزوة مؤتة ــ التي تقع شرقي بحر الميت في الأردن ــ فقاتل فيها قتال الأبطال حتى استشهد، ونال أعلى وسام من الله تعالى، وكان ذلك في شهر جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة النبوية وكان زيد بن حارثة رضي الله عنه أبيض أحمر، وكان ابنه أسامة آدم شديد الأدمة.

رضي الله عن زيد وأرضاه، وجعل الجنة مأواه، آمين. هؤلاء الأربعة أول من اعتنق الإسلام في بدء ظهوره وانبعاث فجره، وانبثاق نوره.

---

(١) الآية رقم (٣٧) من سورة الأحزاب. المحقق.

(٢) جزء من الآية رقم (٤٠) من سورة الأحزاب. المحقق.

(٣) جزء من الآية رقم (٥) من سورة الأحزاب. المحقق.

(٤) جزء من الآية رقم (٣٧) من سورة الأحزاب. المحقق.

(٥) الأصح (بين زيد بن حارثة وحمزة) بحذف كلمة (وبين). المحقق.

٦١ ــ الدعوة إلى الإسلام خفيةً

بعد أن نزلت على المصطفى رسول الله ﷺ سورة: ﴿يا أيها المدثر﴾، أخذ رسولُ الله ﷺ يدعو الناس إلى الله تعالى، وقد تتابع الوحي؛ ونزول هذه السورة ابتداء رسالته؛ فهي متأخرة عن نبوّته، وصار عليه الصلاة والسلام يدعو الناس إلى الإسلام خفيةً، ثلاث سنين، لعدم الأمر بالإظهار، إلى أن أُمِر بإظهار الدعوة؛ حذراً من مفاجأة العرب بأمرٍ شديدٍ لم يألفوه، ولم يعرفوه، كهذا، فيصعب استسلامهم، فكان عليه الصلاة والسلام لا يدعو إلاَّ من يثق به؛ وقد دعا من شرحت ترجمة حياتهم، فاستجابوا وأسلموا.

وكان من أسلم إذا أراد الصلاة، ذهب إلى بعض الشعاب الجبلية، ليستخفي بصلاته من المشركين، حتى طلع نفرٌ من المشركين على سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وهو في بعض الشِّعاب، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون، وقاتلوهم في النهاية، فضرب سعدٌ رجلاً منهم، فشجَّهُ، وهو أول دم أهريق في الإسلام؛ فعند ذلك دخل رسول الله ﷺ هو وأصحابه دار الأرقم ابن أبي الأرقم ــ قرب الصفا ــ وكان الأرقم من السابقين الأولين في الإسلام؛ وفيها اطمأنَّ من أسلم في صلاته، وبدا الإسلام يزيد في انتشاره، ونزل الوحي في هذه الدار عليه ﷺ ممّا زاد المسلمين إيماناً وتثبيتاً.

وكان في طليعة المؤمنين أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقد أذاع بين أصحابه، إيمانه بالله ورسوله؛ وكان رجلاً وسيماً، محبّباً بين قومه، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريشٍ بها وبما كان فيها من خيرٍ وشرٍّ، وكان رجلاً تاجراً سهلاً، ذا خُلقٍ ومعروف، وكان رجالُ قومه يألفونه لآدابه السامية، وأخلاقه الحسنة الرفيعة، وحسن مجالسته؛ وقد أخذ أبو بكر يدعو إلى الإسلام من وَثِقَ به من قومه؛ فتابعه على الإسلام كلٌّ: من عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقّاص والزبير بن العوام، ثم أسلم من بعد ذلك أبو عبيدة بن الجرّاح، وكثيرون غيره من أهل مكة.

وهنا يجب أن أذكر شيئاً عنهم، لرفعة شأنهم، وسبقهم إلى دين الإسلام، ومتابعتهم لرسول الله ﷺ في بدء الدعوة ووقت الشدة والامتحان، فأقول:

٦٢ ــ ترجمة عثمان بن عفان رضي الله عنه

هو عثمان بن عفان القرشي الأموي، هو أمير المؤمنين، وثالث الخلفاء الراشدين والجامع[١] لآيات القرآن المبين؛ ولد في السنة السادسة من مولد رسول الله ﷺ، وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة، وقد أسلمت وهي صحابية، وآمن عثمان رضي الله عنه بدعوة أبي بكر الصديق له، مع السابقين الأولين وبذل ماله الكثير في تأييد الإسلام، ومعونة المجاهدين جنود الرحمن: وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، قال ابن عمر رضي الله عنهما: في قوله تعالى: ﴿أمن هو قانتٌ آناء الليلِ ساجداً وقائماً، يحذر الآخرة و يرجو رحمة ربه﴾[٢] هو عثمان بن عفان رضي الله عنه.

كان عثمان رضي الله عنه من أجمل الناس، عظيم اللحية، مربوع القامة، لا هو بالطويل البائن، ولا هو بالقصير، كثير الحياء؛ و يكنّى بأبي عمرو، ويلقب بذي النورين، لأنه تزوج ابنتَيْ رسول الله ﷺ (رقية وأم كلثوم) وقال له ﷺ: لو كان عندي ثالثةٌ[٣] لزوجتكها يا عثمان!

قال أبو هريرة رضي الله عنه: اشترى عثمان بن عفان الجنة من النبي ﷺ مرتين: (١) حين حفر[٤] بئر رومة. و (٢) وحين جهز جيش العسرة في غزوة تبوك بتسعمائة بعير.

وقد شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ إلا غزوة بدر، وهاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة، وكان محبباً في قريش والمسلمين.

كان عمر بن الخطاب قبل وفاته قد عهد بالخلافة إلى ستة رجال هم رجال الشورى، وعثمان منهم وقد انتخبوه خليفة بعده.

---

(١) في الأصل (وجامع) بدون (ال). المحقق.

(٢) جزء من الآية رقم (٩) من سورة الزمر.

(٣) في الأصل (ثالثةٌ) بالنصب. والصواب رفعها لأنها اسم كان. المحقق.

(٤) لم يحفر عثمان رضي الله عنه بئر رومة وإنما اشتراها وسبّلها للمسلمين. المحقق.

فأكمل عثمان مغازي عمر، ثم ثار عليه بعض الأعراب؛ بحجة أنه يؤثر أقرباءه بولاية الأقاليم، فحاصروه في داره بالمدينة المنورة وقتلوه مظلوماً شهيداً، وهو يتلو القرآن سنة خمس وثلاثين هجرية وكان قتله سبب التفرق بين المسلمين؛ وكانت مدة خلافته اثنتا عشرة سنة إلا اثني عشر يوماً، وعمره (٧٢) سنة[١].

وكان رضي الله عنه تاجراً ومن بلغاء الخطباء، وأوجزهم لفظاً، وأجزلهم معنى وأسهلهم عبارة.

قال فيه سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه: «لكل نبيٍ رفيق، ورفيقي في الجنة عثمان».

رضي الله عن عثمان، وحشره الله تبارك وتعالى في جنة الرضوان.

٦٣ ــ ترجمة عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه

عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه هو عربيٌ قرشيٌ ينتهي نسبه إلى مرة بن كعب، ويكنّى أبا محمد، وكان اسمه في الجاهلية عبد الكعبة، فسماهُ النبي ﷺ: عبد الرحمن؛ وأمه الشفاء بنت عوف، كانت قابلة الرسول ﷺ عند ولادته. ولد عبد الرحمن بعد عام الفيل بعشر سنين؛ وأسلم قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم.

كان عبد الرحمن أحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام، وأحد الخمسة الذين أسلموا على يدي أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أصحاب مجلس الشورى الذين جعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة فيهم، وأخبر أن رسول الله ﷺ توفي وهو عنهم راضٍ.

كان عبد الرحمن أبيض اللون، واسع العينين، طويل القامة، أعرج لإصابته يوم وقعة أحد في رجله، فعرج منها، وكان تاجراً في ثياب القز ولذا

---

(١) عندما استشهد عثمان رضي الله عنه كان عمره: تسعين أو ثمان وثمانين سنة. انظر الرياض المستطابة حرف العين (أبو عمرو وعثمان بن عفان). المحقق.

كان بزازاً. هاجر عبد الرحمن الهجرتين: (١) هجرة الحبشة (٢) وهجرة المدينة؛ وقد آخى الرسولُ ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع أحد النقباء بالمدينة؛ وقد عرض عليه سعدٌ أن يشاطره ماله، وأن يخلع له أحسن زوجتيه فأبى عبد الرحمن وقال: باركَ اللهُ لك في أهلك ومالك. ولكن دلُّوني على السوق. فدلَّه سعدٌ على السوق؛ فذهب عبد الرحمن، فباع واشترى وربح، فتزوَّج امرأة على زنة نواةٍ من ذهب؛ وقد رأى النبيُّ ﷺ أثراً من صفرة، فقال له: «أولِمْ ولو بشاة» ثم اشتغل بالتجار فآل بالغنى الكبير.

شهد عبد الرحمن المشاهد كلها مع الرسول ﷺ، وبعثه الرسولُ ﷺ إلى دومة الجندل إلى كلب، وعمَّمَهُ بيده الشريفة، وسدل لها بين كتفيه، وقال له: «إن فتح اللهُ عليكَ، فتزوَّج إبنة شريفهم»، وقد تزوَّج ابنةَ شريفهم الإصبع ابن ثعلبة، واسمها (تماضر) فولدت له أبا سلمة.

وشهد النبيُّ ﷺ لعبد الرحمن فقال: «عبد الرحمن بن عوف أمينٌ في السماء، أمينٌ في الأرض».

وكان عبد الرحمن جواداً كريماً؛ بلغ[1] عائشة رضي الله عنها أنها قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «عبد الرحمنُ بن عوف لا يدخل الجنة إلا حبواً ــ أي زحفاً ــ فلما بَلَّغَتْهُ[2] أسرع إلى عائشة رضي الله عنها وقال لها: يا أمَّهْ! إني أشهدك أنها ــ أي العير التي قدمت من الشام محملةً ــ بأحمالها وأحلاسها في سبيل الله أرجو بذلك أن أدخل الجنة قائماً لا حابياً»[3].

---

(١) كلمة (بلغ) لا تستقيم بها العبارة. ولعل الصواب (بلغه) أي بلغ عبد الرحمن (عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت... الخ). المحقق.

(٢) سياق العبارة يقتضي (فلما بلغه) بدل (بلّغتْه). المحقق.

(٣) إذا كان عبد الرحمن بن عوف وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة والذين مات الرسول ﷺ وهو عنهم راضٍ إذا كان يدخل الجنة حبواً فعلى المؤمنين السلام. ولو صح أن الرسول ﷺ قال ذلك فهل يغني عبد الرحمن شيئاً أن يتصدق بالعير أو بملء الأرض ذهباً؟ ما دام قد أخبر الرسول بأن يدخل الجنة حبواً فلا بد إذن من أن يدخلها حبواً مهما قدم من الخيرات. والصواب أن هذا الحديث موضوع ولا أصل له.

«وقال له النبيُّ ﷺ مرة: يا ابن عوف! إنك من الأغنياء ولن تدخل الجنة إلا زحفاً، فأقرض الله يطلقْ لك قدميك[1].

قال عبد الرحمن: فما أقرضُ يا رسول الله؟ فأرسل إليه: أتاني جبريل عليه السلام فقال: مُرْهُ فليضف الضيف، وليعطِ في النائبة، وليطعِم المسكين».

فكان أهل المدينة المنورة بعد هذا التوجيه الحكيم عيالاً على عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: ثلث يقرضهم ماله، وثلث يقضي دينهم، وثلث يصلهم ببرِّه.

وكان رضي الله عنه متواضعاً، لا يكاد يعرف من بين عبيده لفرط تواضعه ومحبتهم له.

عاش عبد الرحمن خمساً وسبعين سنة، ودفن بالبقيع.

وقال سيدنا علي رضي الله عنه يوم وفاته: (اذهب يا ابن عوف يرحمك الله تعالى، فقد أدركتَ صفوها، وسبقتَ[2] رنقها) أي كدرها.

رحم الرحيمُ الرحمن عبدَ الرحمن، وأسكنه فسيح الجنان.

٦٤ ــ ترجمة الزبير بن العوام رضي الله عنه

الزبير بن العوّام بن خويلد بن أسد، يرتفع نسبه إلى لؤي بن غالب. وأمه: صفية بنتُ عبد المطلب.

وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أهل الشورى، وأول من سل سيفه في سبيل الله، وكنيتُه: أبو عبد الله.

قال الحافظ في كتابه «تعجيل المنفعة في رجال الأربعة»: ليس في المسند حديث لا أصل إلا ثلاثة أحاديث أو أربعة؛ منها حديث عبد الرحمن بن عوفٍ أنه يدخل الجنة زحفاً. قال: والاعتذار عنه أنه مما أمر أحمد بالضرب عليه (أي بحذفه من المسند) فترك سهواً. نقله الشوكاني في أول كتابه (نيل الأوطار) في ترجمة الإمام أحمد. المحقق.

(١) يراجع التعقيب السابق بالهامش. المحقق.

(٢) أنظر مجلة لواء الإسلام السنة الرابعة عشرة لشهر رجب سنة ١٣٨٠هـ.

ولما ظهر الإسلام، وكلمهُ أبو بكر رضي الله عنه، قبله وأسلم على يديه وهو في طليعة المسلمين، ولم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره.

مات العوّام بن خويلد، والزبير صغير؛ فكان يلي أموره، خاله نوفل بن خويلد، وكانت أمه تعنى بتربيته عنايةً فائقةً، ولا تألو جهداً في تقويمه؛ لذا عرف الزبير منذ نعومة أظفاره بالقوة والبأس وإيثار الحق، وإنصاف المظلوم.

ولما أسلم، وسمع عمه بإسلامه، أخذ عمه يعذّبه ويعلّقهُ في حصير ويدخن عليه، ليرتدَّ عن دينه، ويرجع إلى الكفر، دين آبائه، ولكنه أبى إلاّ التمسك بأهداب هذا الدين المبين، الذي أصبح عقيدةً راسخةً، خالطت شغاف قلبه؛ ولقي ما لقي من أذى المشركين، واضطر إلى الهجرة إلى الحبشة؛ ولما عاد إلى مكة، بادر للهجرة إلى المدينة، وقد آخى الرسول صلى الله عليه وسلم بينه وبين سلمة بن سلامة، وظلت هذه المؤاخاة قائمة، وكان يمتهن بيع اللحوم، لذاكان جزاراً.

وقدّر الرسول ﷺ للزبير قدره، وعرف له سبقه إلى الإسلام، وصدق إيمانه ويشهد لذلك: أنه اتصل بالزبير أن الكفار أخذوه أي النبي[1] ﷺ فأقبل يشقُّ الناسَ بسيفه، والرسولُ ﷺ بأعلى مكة فقال له: مالكَ يا زبير؟ قال: أخبرتُ أنكَ أخذتَ؛ فتبسَّم ﷺ، ودعا له، ولسيفه. وقد اشترك الزبير في غزوات الرسول ﷺ، حتى قيل: إنه شهد المشاهد كلها.

حارب الزبير يوم وقعة بدرٍ، وعليه عمامة صفراء، على فرسٍ، وعلى ميمنة الرسول ﷺ، والمقداد بن الأسود على فرسٍ، فنزلت الملائكةُ عليهم عمائم صفر، وفي هذا يقول عامر بن صالح بن عبد الله بن الزبير:

جدّي ابنُ عمة أحمدٍ ووزيره ... عند البلاء وفارسُ الشقراء
وغداة بدرٍ كان أولَ فارسٍ ... شهد الوغى في اللامة[2] الصفراء
نزلت بسيماهُ الملائكُ نُصرةً ... بالحوض يوم تألُّب الأعداء

---

(١) في الأصل (للنبي) والصواب ما أثبتناه ليستقيم المعنى. المحقق.

(٢) اللامة: الدرع.

وقد قال النبيُّ ﷺ : إن الملائكة نزلتْ على سماء الزبير. وقد ندبه عليه الصلاة والسلام ليأتيه بخبر بني قريظة (اليهود) حين نقضوا العهد الذي أخذوه على أنفسهم، بعد أن أقبل المشركون من قريشٍ وأحلافها؛ وهاجموا المدينة المنورة في السنة الخامسة للهجرة وحاولوا اختراق الخندق.

كذلك شهد الزبير رضي الله عنه صلح الحديبية، وبلغ من شدة إعجاب الرسول ﷺ بشجاعة المسلمين الذين اشتركوا في بدرٍ والحديبية، وتقديره بلاءهم في الحرب، وإخلاصهم في الجهاد أن[1] قال ﷺ : «لن يلجَ النارَ أحدٌ شهد بدراً والحديبية».

قال سفيان الثوري: هؤلاء الثلاثة نجدة الصحابة: (حمزة وعلي والزبير) وقال علي بن زيد رضي الله عنه: أخبرني من رأى الزبير، وفي صدره أمثال العيون من الطعن والرمي.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (لو عهدتُ أو تركتُ تركةً كان أحبهم إليَّ الزبير، إنه كان ركناً من أركان الدين).

وقد دعاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته للجهاد في سبيل الله، لشجاعته ومهارته في الحرب فلبَّى، لما طلب عمرو بن العاص المدد من الخليفة، وقد أمدَّهُ بأربعة آلاف عليهم أربعة من القوّاد، وكتب إليه: (لقد أمددتك بأربعة آلاف عليهم أربعة من مشاهير الصحابة، الواحد منهم بألف رجلٍ) وكان هؤلاء الأربعة: الزبير بن العوام، وعبادة بن الصامت، والمقداد بن الأسود، ومسلمة بن مخلد) رضي الله عنهم جميعاً.

ولما شدَّد المسلمون الحصار على حصن (بابليون) تجلَّتْ شجاعةُ الزبير، وضرب أروع أمثلة التضحية والفداء في سبيل إعلاء كلمة الله.

فانظر إليه، وقد بلغت الحربُ مرحلةً دقيقةً: إما النصر والظفر وأما الهزيمة والخذلان، فيقدّم نفسه فداء للإسلام فيقول: إني أهب نفسي لله تعالى، وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين ثم يضع سلّماً إلى جانب الحصن و يصعد،

---

(١) لم يذكر المؤلف كلمة (أن) وقد أثبتناها لحاجة المعنى إليها. المحقق.

و يأمر المسلمين إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعاً؛ وعلى غفلةٍ يكبّر الزبير على رأس الحصن ومعه السيف، و يتحامل الناس على السُّلم، و ينهاهم عمرو بن العاص خوفاً من أن ينكسر فيهم؛ ثم يكبّر الزبير تكبيرة، فيجيبه المسلمون من الخارج، ولم يشك أهل الحصن في أن العرب قد اقتحموا جميعاً فيهربون، و يعمد الزبير بأصحابه إلى باب الحصن فيفتحونه و بذلك مهّد هذا الجندي الباسل والمسلم الصحابي المجاهد للمسلمين فتح مدينة الإسكندرية، حاضرة الديار المصرية في ذلك الحين. إن الكلام على الزبير رضي الله عنه كثير، وكثير جداً لا تسعه هذ الصفحات بل يحتاج إلى مجلدات لاحتواء تاريخه.

كان الزبير رضي الله عنه يوم وقعة الجمل حاضراً، غير أنه ترك القتال وانصرف، فلحقه جماعة من الغوغاء فقتلوه بوادي السباع بناحية البصرة، وقبره هناك، وحزن عليه سيدنا علي حزناً كبيراً وكان قتله في شهر جمادى الأولى سنة ست وثلاثين للهجرة، وكان عمره سبعاً وستين سنة.

قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

أقام على عهد النبي وهديه ... حواريه والقولُ بالفعل يعدل
أقام على منهاجه وطريقه ... يوالي وليَّ الحقّ والحقُّ أعدلُ
له من رسول الله قُربَى قريبةٌ ... ومن نصرة الإسلام مجدٌ مؤثّلُ

رضي الله عن الزبير وأرضاه، وجعل الجنة مأواه، اللهم آمين.

٦٥ ــ ترجمة طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه

هو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي القرشي، يجتمع مع النبي ﷺ في مرة بن كعب، ومع أبي بكر في كعب بن سعد[1].

ولد بمكة المكرمة؛ وأمه (الصعبة بنت الحضرمي) أخت العلاء بن الحضرمي من أهل اليمن؛ وهو أحد العشرة المبشّرين بالجنة، وأحد الستة

(١) أنظر التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ﷺ ج ٣ ص ٣٣٧.

أصحاب الشورى؛ وكنيته: أبو محمد، ولقّبه النبي ﷺ يوم أحدٍ ب (طلحة الخير)، ويوم حنين ب (طلحة الجواد) وفي غزوة العشيرة ب (طلحة الفيّاض) لأنه تصدّق ببئر اشتراها، ونحر جزوراً، فأطعمهم وسقاهم؛ ودعاه النبي ﷺ ب (الفصيح والمليح والصبيح) وقال له: أبشر أبا محمدٍ! غفر الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر.

أسلم طلحة رضي الله عنه على يد أبي بكرٍ الصّديق رضي الله عنه، صحبه ودخل به على رسول الله ﷺ، وأعلن إسلامه أمام رسول الله ﷺ وبايعه؛ وكان ثامن رجلٍ دخل في هذا الدين الحنيف شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ إلا بدراً، فقد أرسله النبي ﷺ ومعه سعيد بن زيد إلى طريق الشام، يستطلعان الأخبار.

وكان ممن ثبت يوم أحدٍ، ودافع عن رسول الله ﷺ دفاع الأبطال هو وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما.

قال الزبير بن العوام وغيره: (أبلى طلحة يوم أحدٍ بلاء حسناً، وقى رسول الله ﷺ بنفسه، واتقى النبال عنه بيده حتى شُلّتْ) (١).

وكان طلحة رضي الله عنه أبيض يضرب بحمرة، وكان ربعةً حسن الوجه، يميل إلى القصر، وكان رحب الصدر، وإذا مشى أسرع في مشيته، يتدفّق حيويةً ونشاطاً وقوةً، بذلها كلها في نصرة الدين، حتى إنه جاد بنفسه، في سبيل وقاية الرسول ﷺ.

وكان طلحة رضي الله عنه، من الفدائيين الذين يعدّون عدة الجيوش في أدقّ ساعات القتال، وابتدع هذه الفكرة من أصالة عقله وفكره، حتى خلّدت الصحف ذكره، كما في الحرب العالمية الثانية، فقدموا نفوسهم فداء لأوطانهم، وألقوا بنفوسهم وسط مخازن الذخيرة والمصانع الحربية ينسفونها، مضحين بأنفسهم معها.

إن طلحة وأصحابه قد بايعوا الرسول ﷺ على الموت يوم أحد، حين انهزم ضعفاء الإيمان، ومن في قلبه مرض النفاق، فصبر طلحة وصبر أصحابه، وجعلوا

---

(١) أنظر كتاب الاستيعاب بهامش كتاب الإصابة في تمييز الصحابة ج ٢ ص ٢٢٠.

يبذلون أرواحهم رخيصة حباً بالرسول ﷺ وكان من جلة الفدائيين هؤلاء: أبو بكر وعمر وطلحة وعلي والزبير وسعد، وسهل بن حنيف، وأبو دجانة رضي الله عنهم جميعاً. وقد اشترك طلحة رضي الله عنه في الأحداث الهامة التي وقعت بعد وفاة النبي ﷺ، فقد اشترك في حروب الردة، ويكفي طلحة من الفضل أن رسول الله ﷺ قال كما يروي سيدنا علي رضي الله عنه حيث قال: سمعتُ أذناي من في ـــ فم ـــ[1] رسول الله ﷺ وهو يقول: «طلحة والزبير جاراي في الجنة» وروى الترمذي عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ سرَّهُ أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض، فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله».

قتل طلحةُ رضي الله عنه يوم وقعة الجمل بسهم رماه به مروان بن الحكم فأصاب منه مقتلاً، ورآه سيدنا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه مجندلاً، فجعل يمسح التراب عن وجهه و يقول: عزيزٌ علي يا أبا محمدٍ! أن أراك مجندلاً تحت نجوم السماء، ثم أخذ يترحم عليه و يبكي هو وأصحابه عليه؛ وسمع عليّ رجلاً ينشد:

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه ... إذا ما هو استغنى و يبعده الفقرُ

فقال سيدنا علي: ذاك أبو محمدٍ، طلحة بن عبيد الله يرحمه الله[2].

وقال الشاعر (عويف القوافي) في طلحة:

يا طلحُ أنت أخُو الندى وحليفه ... إن النَّدى من بعد طلحة ماتا
إن الفعال إليكَ أطلق رحله ... فبحيثُ بتَّ من المنازل باتا[3]

وقال الشاعر المتحنّف في طلحة:

وطلحة يوم الشعب آسى محمداً ... لدى ساعةٍ ضاقتْ عليه وسُدَّتِ
وقاهُ بكفيهِ الرماحَ فقطّعَت ... أصابعهُ تحتَ الرماح فشُلَّتِ

(١) الحديث هذا في التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ﷺ ج ٣ ص ٣٣٨.
(٢) أنظر مجلة لواء الإسلام السنة (١٥) عدد (٤) لشهر ذي الحجة سنة ١٣٨٠ هـ ص ٢٢٢.
(٣) أنظر كتاب (قصص العرب) ج ١ ص ٢٣٤.

وكان إمامَ الناس بعد مُحمدٍ أقرَّ رحَا الإسلام حتى استقرتِ

قُتل طلحةُ رضي الله عنه عن عمرٍ /٦٢/ سنة، وقيل ٦٤/ سنة قضاها في طاعة الله والجهاد في سبيله، ونصرة الحق، والإحسان إلى اليتامى والمساكين وقبره في البصرة مشهور هناك و يزار ويتبرك[1] به.

رضي الله عن طلحة وأرضاه، وجعل الجنة مأواه، اللهم آمين.

٦٦ ــ ترجمة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه

هو سعد بن مالك، بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن فهر بن النضر بن كنانة القرشي.

فهو ابن عم آمنة أم الرسول ﷺ بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة؛ ويجتمع نسب سعدٍ بآمنة في عبد مناف، وهو بذلك خال النبي ﷺ نسباً، لأن أهل الأم أخوال.

وأم سعدٍ هي حمنة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس، وقيل: حمنة بنت أبي سفيان بن أمية.

وُلد سعدٌ بمكة المكرمة من أبوين شريفين، ونشأ كما ينشأ أبناء سراة مكة وأشرافها، وأصحاب الرأي فيها؛ فلما أشرقت شمسُ الرسالة المحمدية وخرج الرسول ﷺ إلى أهل مكة مبشراً ونذيراً، كان سعدٌ قد بلغ السابعة عشرة من عمره؛ فلبَّى نداء الحقّ، ودخل في دين الله، الإسلام، على يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

روي عن سعدٍ أنه قال: رأيتُ في المنام قبل أن أسلم، كأني في ظُلمة لا أبصر شيئاً؛ إذ أضاء لي قمرٌ فاتبعته، فكأني أنظر إلى من سبقني إلى ذلك القمر، فأنظر إلى زيد بن حارثة، وإلى علي بن أبي طالبٍ، وإلى أبي بكر، وكأني أسألهم: متى انتهيتم إلى ها هنا؟ قالوا: الساعة، وبلغني أن رسول الله ﷺ

---

(١) إن التبرك بالقبور غير مشروع. المحقق.

يدعو إلى الإسلام متخفياً، فلقيتُه في شعب أجياد ــ محلة بمكة جنوب الحرم ــ وقد صلّى العصر، فأسلمتُ، فما تقدّمني أحدٌ إلا هم. وبذلك يكون سعد أول من أسلم من الفتيان أول شبابهم. تمسّكَ سعدٌ بدينه الجديد، وأنزله في نفسه منزلةً رفيعةً؛ ومما يؤيد ذلك، أنه لما أسلم أتى أمَّهُ وأخبرها، فقالت: يا سعد! ما هذا الدين الذي أحدثتَ؟ لتدعنَّ دينَكَ هذا، أولا آكلُ ولا أشربُ حتى أموتَ، فتعيَّرَ بي.

وكان سعد من أبرِّ الناس بأمه، فقال: لا تفعلي يا أمَّه! فإني لا أدع ديني هذا لشيء.

قال سعدٌ: فمكثت يوماً وليلةً لا تأكلُ، فأصبحتْ وقد جهدتْ ــ تعبت ــ فقلتُ: والله! لو كانت لك ألفُ نَفْسٍ، فخرجتْ نفساً نفساً، ما تركتُ ديني هذا لشيء؛ فلما رأت ذلك، أكلت وشربت، فنزلت الآية الكريمة بذلك وهي قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وإنْ جاهداكَ على أن تُشركَ بي ما ليس لكَ به علمٌ، فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً ﴾[1]. وإذا كان تمسُّكُ سعدٍ بدينه، قد بلغ به هذا الحدَّ الذي جعله يستعذبُ الردَى في سبيل عقيدته، ويخوض المنايا ذوداً عن دينه، ودفاعاً عن رأيه، فلا نعجب إذا رأيناه من أكثر الصحابة حميَّةً، وأوفرهم حماساً. فقد كان أصحاب الرسول ﷺ في أول عهدهم بالإسلام إذا صَلّوا[2]، ذهبوا إلى الشِّعاب، فاستخفوا بصلاتهم من قومهم، فبينا سعدٌ في نفرٍ من أصحاب الرسول الكريم، في شعب من شعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفرٌ من المشركين، فناكروهم، وعابوا عليهم دينهم، حتى قاتلوهم، فاقتتلوا، فضرب سعدٌ رجلاً من المشركين بلحى جملٍ ــ عظم الحنك ــ فشجَّهُ، فكان أول دمٍ أريق للمشركين في سبيل الإسلام.

وقد ظهرتْ بطولةُ سعدٍ في أوضح صورها، في يوم وقعة أحدٍ، حين امتحن المسلمون في دينهم؛ فصمد سعد رضي الله عنه، وصبر وصابر، وكان الرسول ﷺ يناديه قائلاً: (فداك أبي وأمي، ارم يا سعد!).

---

(١) جزء من الآية رقم (١٥) من سورة لقمان.

(٢) في الأصل (صلّوا) بضم اللام. والصواب فتحها كما أثبتناه. المحقق.

قال سيدنا علي رضي الله عنه: (ما جمع رسول الله ﷺ أباه وأمه لأحدٍ إلا لسعد بن أبي وقاص).

شهد سعدٌ غزوة بدر، وغزوة الخندق، كما شهد المشاهد كلها مع حبيب الله ومصطفاه فكان أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد العشرة الذين أخبر عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قد توفي، وهو عنهم راضٍ.

انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وآلت الخلافة من بعده لأبي بكر، ثم قُبض أبو بكر رضي الله عنه، وتمت البيعة من بعده لعمر بن الخطاب وكانت الجيوش الإسلامية، قد أوغلتْ في الفتوحات الإسلامية، في بلاد الفرس والروم؛ فقد وجَّه أبو بكر رضي الله عنه جيشاً إلى أطراف العراق بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه، ومعه المثنَّى بن حارثة، فانتصر على الفرس، واستولى على الحيرة و بلدة الأنبار؛ ولكن العرب ما لبثوا أن تقهقروا أمام جيش الفرس الكثيف الذي أعدَّه يزدجرد الثالث آخر ملوك آل ساسان بقيادة رستم، وارتدوا إلى أطراف الصحراء وكادت جهود المسلمين أن تذهب هباء؛ فلما ولي عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة، وزاد الاضطراب في بلاد الفرس؛ كتب المثنى بن حارثة إلى عمر بذلك وما كان من جلوس يزدجرد على العرش مع حداثة سنه، وحثّه على انتهاز هذه الفرصة.

وكان عمر رضي الله عنه قد اطمأنَّ من ناحية الروم بعد هزيمتهم في أجنادين سنة (١٥)هـ فوجَّه همَّهُ لغزو العراق، ودعا الناس لغزوها، وهوَّن عليهم فتحها، وأراد أن يقود الجيوش بنفسه، ولكن بعض الصحابة، أشاروا عليه: بأن يبعث رجلاً من كبار الصحابة، وأن يكون هو من ورائه، يمدُّهُ بالأمداد؛ فلما سمع عمر ذلك صعد المنبر وقال: (أيها الناس! إني كنتُ عازماً على الخروج معكم، وإن ذوي اللبِّ ــ العقل ــ والرأي منكم، قد صرفوني نحو[1] هذا الرأي، وأشاروا بأن أقيم، وأبعث رجلاً من الصحابة، يتولَّى أمر الحرب).

---

(١) لعل الصواب (عن) بدل (نحو). المحقق.

وقد ادخرت الأيام (سعد بن أبي وقاص) رضي الله عنه بطل أحدٍ، لينقذ كرامة العرب، وكرامة الإسلام، فاختاره عمر رضي الله عنهو وأمَّرَهُ على الجيوش الإسلامية المحاربة في العراق؛ فجعل سعدٌ ينتقل في الأراضي التي بين الحجاز والكوفة، يستمع الأخبار، وَرُسُلُ عمر توافيه، وكتبه تأتيه، يشير فيها بآرائه، ويمدّه بالجنود؛ ثم التقى سعدٌ برستم عند القادسية، وكانت باب العراق في جيش يبلغ ثلاثين ألف مقاتل، على حين كان جيش سعدٍ يتراوح بين سبعة آلاف وثمانية آلاف، وكان الفرس يضحكون من نبل العرب، و يشبهونها بالمغازل؛ وقد بعث سعد قبل بدء المعركة إلى رستم برسالة، هذا نصها:

أما بعد! (إن الله بعث إلينا نبيَّهُ ﷺ فسعدنا بإجابته، واتباعه، وأمرنا بجهاد من خالف ديننا، ونحن ندعوك إلى عبادة الله وحده، والإيمان بنبيه محمدٍ ﷺ، فإن فعلتَ، وإلا فالسيفُ بيننا وبينكم).

فقال رستم: والشمس والقمر! لا يرتفع الضحى غداً حتى نقتلكم أجمعين. فقال رسولُ سعد حامل الرسالة: لا حول ولا قوة إلا بالله، وكأنه سخر من رستم حين اغترَّ بقوته، ولم يعبأ بما خبأته الأقدار.

خاض سعد المعركة، فخرج منها مظفراً منتصراً، فأوقع بالفرس خسائر كبيرة، وأسر إحدى بنات كسرى.

واعتنق على أثر هذا الانتصار أهلُ بابل، ونهر الملك وأهل كوثي وغيرهم الإسلام على يد سعدٍ رضي الله عنه.

ثم كتب سعدٌ إلى عمر يبشره بالفتح، وكان ذلك في شهر المحرم سنة (١٧)[1] هـ ثم توغل سعد في بقية بلاد العراق يفتحها، وقد استولى على المدائن... هذه لمحة من تاريخ سعد، ولست هنا أصنع تاريخاً له، إنما ذكرت عنه ما ذكرت اعترافاً؛ ما لهذا البطل الصنديد من مواقف في الإسلام. و بعد وفاة عمر رضي الله عنه وتمت البيعة لعثمان رضي الله عنه، عرف لسعدٍ فضله وإخلاصه في خدمة الإسلام والمسلمين؛ فولاه الكوفة، وأطلق يده في شؤون العراق بعد إتمام فتحها.

---

(١) أنظر كتاب (رجال من التاريخ) للعلامة الشيخ علي الطنطاوي تحت عنوان قاهر كسرى ص ٣٩.

ولما حضرت الوفاة لسعدٍ [1] رضي الله عنه، دعا بخَلقٍ [2] ــ جُبَّةٍ باليةٍ ــ له من الصوف، وقال: كفنوني فيها، فإني لقيتُ المشركين فيها يوم بدر وهي عليَّ، ولذا فأنا أحبها.

توفي سعدٌ بالعقيق في قصره، على عشرة أميالٍ من المدينة المنورة ودفن بالبقيع سنة خمس وخمسين هجرية، وعمره (٧٢) عاماً.

وكان آدم طويل القامة.

اعتزل القتال بعد مقتل عثمان، وهو الذي رمى يوم أحدٍ ألف سهمٍ دفاعاً عن الرسول ﷺ.

رضي الله عن سعد وأرضاه، وجعل الجنة مأواه، اللهم آمين.

هذا جزء يسير من تراجم هؤلاء الخمسة، الذين أسلموا بدعوة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وهم من الرجال العظام، الذين ذاع صيتهم في الإسلام لما قاموا به من جلائل الأعمال.

٦٧ ــ انتشار أمر محمد ﷺ بمكة

ودخول الناس في الإسلام

بعد إيمان من ذكرت لك أيها القارىء ترجمته، فقد أخذت الدعوة إلى الله طريقها في الانتشار، على يد المعتمد الأمين عند مولاه.

وكان مثل سيدنا محمدٍ ﷺ خير [3] ما يزيد الدعوة انتشاراً وذيوعاً فقد كان ﷺ برّاً رحيماً، جمَّ التواضع، كامل الرجولة عَذْبَ الحديث، حلو اللقاء، قويَّ الذاكرة، محباً للعدل، يُعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، وينظر إلى الضعيف واليتيم، وإلى البائس والمسكين، نظرة كلها الأبوَّة والحنان والعطف والمودة؛

---

(١) الصواب (سعداً) بدل (لسعد). المحقق.

(٢) في الأصل (بخلقٍ) والصواب ما أثبتناه. المحقق.

(٣) في العبارة ركاكة لا تخفى. المحقق.

وكان في تهجّده وسهره الليل وترتيله للقرآن، ودوام نظره في السموات والأرض، والتماس العبرة من الوجود كله، وكل ما فيه، وفي توجهه الدائم لله وحده، والتماسه حياة الكون كله، في أطواء نفسه، ودخيلة حياته، مثلٌ[1] جعل الذين آمنوا به، وأسلموا له، أحرص على إسلامهم، وأشد يقيناً بإيمانهم على ما في ذلك من إنكار، ما كان عليه آباؤهم من جهلٍ وحماقةٍ، وقد تعرضوا لأذى المشركين، آمن برسالة محمدٍ من تجار مكة وعمالها وأشرافها، من عرفتْ نفوسُهم الطهرَ والنزاهةَ والصدق والعزيمة وآمن به كل ضعيف، وبائس ومحروم، وانتشر أمر الإسلام بمكة وما حولها ودخل الناس في دين الله أرسالاً، رجالاً ونساء، ومن هؤلاء:

٦٨ ــ ترجمة عامر بن فهيرة رضي الله عنه

عامر بن فهيرة رضي الله عنه، مولى الطفيل بن عبد الله، وكان الطفيل أخاً لعائشة لأمها (أم رومان).

أسلم عامر قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم، وكان من المستضعفين يعذّبُ في الله، فلم يرجع عن دينه، وقد اشتراه أبو بكر رضي الله عنه من سيده الطفيل وهو يعذبه، ثم أعتقه أبو بكر لله تعالى. ولما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى الغار مهاجرَيْنِ؛ أمر أبو بكر مولاه عامر بن فهيرة أن يروح بغنم أبي بكر عليهما، وكان يرعاها، وقد هاجر معهما إلى المدينة المنورة يخدمهما. وشهد عامر بدراً وأحداً، وقتل يوم بئرمعونة سنة أربع من الهجرة، وهو ابن أربعين سنة.

قتل غدراً مع السبعين قارئاً، وقال فيهم حسّان رضي الله عنه:

على قتلى معونة فاستهلي ... بدمع العين سحّاً غير نزرِ
على خيل الرسول غداةَ لاقوا ... ولاقتهم منـاياهم بقَدْرِ[2]

---

(١) في الأصل (مثلاً) بالنصب والصواب رفعه لأنه اسم كان مؤخر. المحقق.

(٢) أنظر كتاب (محمد رسول الله) ص ٢٨٣.

وقد حزن عليهم رسول الله ﷺ لأنه لم يرسلهم لقتال، وإنما لتبليغ رسالته، وقد جرت عادة العرب قديماً، بأن الرسل لا تقتل، كما هي العادة اليوم في الأنظمة الدولية.

وسيأتي شرح هذه الموقعة عند ذكرها في كتابنا هذا إن شاء الله تعالى.

وممن اعتنق الإسلام في هذا الحين، أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه.

٦٩ ــ ترجمة أبو عبيدة

عامر بن عبد الله بن الجراح رضي الله عنه

أبو عبيدة الجراح، هو عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر.

أسلم أبو عبيدة بن الجراح على يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أخذه للنبي ﷺ فأعلن إسلامه، ونطق بالشهادتين وأخذ النبي ﷺ البيعة منه على العمل لنصرة الإسلام والدفاع عنه.

سُرَّ الرسول ﷺ بإسلام أبي عبيدة، إذ رأى فيه، شاباً قوياً، تدل ملامحُه على القوة والبطولة والإقدام.

كان أبو عبيدة أحد الثمانية الأولى، الذين سبقوا إلى الإيمان بالله تعالى ورسوله، وما على ظهر الأرض مسلم غيرهم.

هاجر أبو عبيدة الهجرتين: الأولى للحبشة، بصحبة عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم، والثانية، إلى المدينة المنورة. وقد حضر المشاهد والغزوات كلها مع حبيب الله ومصطفاه؛ وبرز في غزوة بدر، حيث برز له والده عبد الله[1] الجراح، الذي حضر بدراً لهذه الغاية، وقلبه ممتلىء غيظاً وحقداً على ولده عامر لأنه أسلم، وانتصر لله ولرسوله، ونبذ عبادة هُبَل واللات والعزّى، وكان عبد الله الجراح بطلاً مقداماً، وفارساً مغواراً، والتقى البطلان

(١) في الأصل (عبد الرحمن). المحقق.

الوالد مع ولده مرتين، والأب يحاول أن يشفي غليله من ولده عامر، وهو يصوّب ضربته إليه، فيهرب عامر من أبيه و يتركه، ولا يريد قتاله، والتقيا مرة ثالثة، ضرب الوالدُ عبد الله ولده عامراً ضربة بسيفه يريد قتله والانتقام منه، غير أن عامراً قفز بسرعةٍ وخفّةٍ، ووجّه الابنُ سيفه لأبيه الحانق وضربه ضربةً ترك قلبه ممزقاً، ودمه سائلاً، انتصاراً لله ودينه، وقد نزل الوحي من الله تعالى يحمل قوله عز وجل:

﴿لا تجدُ قوماً يؤمنونَ باللهِ واليوم الآخر، يُوَآدُّونَ مَنْ حآدَّ الله ورسولَهُ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانَهم أو عشيرتَهم، أولئك كَتَب في قلوبهم الإيمانَ، وأيَّدهم بروحٍ منه، و يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهارُ، خالدين فيها، رضي الله عنهم، وَرَضُوا عنه، أولئكَ حزبُ الله، ألا إنَّ حِزْبَ اللهِ هم المفلحون﴾ (١).

تلاها الرسولُ ﷺ على الصحابة لحفظها، وأنصتَ أبو عبيدة رضي الله عنه معهم لسماعها وفهمها؛ وقد اطمأنَّ قلبُه وانشرحَتْ نفسه، أن الله تبارك وتعالى رضي عنه، وكتب الله الإيمان في قلبه، ووعده بنصره وتأييده، وجعله من حزب الفلاح، فحمد الله وشكره.

وقد برز أبو عبيدة رضي الله عنه في فتح بلاد الشام، وكان قائد الجيش الرابع الإسلامي، حيث أرسله الخليفة إلى بلدة حمص، فسار يقطع السهول والنجاد طائعاً، ماراً بوادي القرى حتى وصل حمص وحاصرها وضيَّقَ الخناقَ على أهلها، حتى فتحت له ذراعيها، فدخلها ظافراً منتصراً وقد ولاَّهُ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قيادة الجيوش في الشام. سار أبو عبيدة رضي الله عنه لدمشق، فحاصرها ستة أشهر، ثم جرى الصلح بينه و بين أهلها، وعاد لحمص، ثم لحماة ففتحها، ثم سار إلى معرة النعمان فاستولى عليها، ثم انتقل منها إلى قنسرين وحلب، فاستولى عليها، ثم ذهب إلى بلدة اللاذقية، فاستولى عليها، ثم اتجه إلى بانياس وطرطوس، ومنهما إلى إنطاكية فاكتسحها، وبها تمَّ

(١) من سورة المجادلة آية (٢٢).

ففتح بلاد الشام كله[1]، وقد رفرفت راية الإسلام خفّاقةً عاليةً على تلك الربوع والديار.

هذا هو أبو عبيدة بن الجراح، الذي بشّره النبيُّ ﷺ بالجنة، وهو أحد العشرة المبشّرين بالجنة.

كان أبو عبيدة زاهداً تقياً، معرضاً عن زخرف الدنيا وزينتها لا يبغي إلا ما عند الله، وما عند الله خيرٌ وأبقى.

ولما دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه بيتَ المقدس، سأل عن أبي عبيدة، فأبلغوه، فحضر، ولما حضر سار عمر معه إلى بيته، ولما وصلا إليه، فلم يجد عمر فيه سوى سيفه وفرسه، فقال عمر له: أين متاعك؟ إني لا أجد إلا لبداً وصحيفة وقربة ماء، أنتَ أميرٌ، أما عندك طعام؟ قال أبو عبيدة: نعم، فقام إلى سلةٍ له، وأخذ منها كسيرات من الخبز اليابس وقدمها له فبكى عمر بكاء شديداً[2].

وهكذا كان أبو عبيدة يتأسّى بإمامه ورسوله سيدنا محمد ﷺ. كان إذا صلّى لله بكى في صلاته خشيةً وتضرعاً إلى الله تعالى، لا يعرف الكبر والعجب إلى قلبه سبيلاً.

وفي سنة (١٨) هجرية أصاب أبا عبيدة رضي الله عنه مرضُ الطاعون وهو في الشام، وأراد الخليفة عمر إنقاذه منه، فكتب إليه يقول: (قد عرضتْ حاجةٌ عندنا، ولا غنى فيها عنكَ، فإذا أتاك كتابي هذا، فإني أعزم عليكَ، إنْ أتاك كتابي ليلاً، أن لا تصبح حتى تركب، وإن أتاك نهاراً، لا تمس حتى تركب إليَّ).

قرأ أبو عبيدة رسالة أمير المؤمنين عمر، فعرف مقصده، ثم قال: يرحمُ اللهُ عمرَ، إنه يريد أن يستبقي من ليس بباقٍ، ثم أرسل إليه يقول: (قد عرفتُ

---

(١) الأفضل (كلها) لا (كله). المحقق.

(٢) في الأصل (حرّا) بدل (شديداً). المحقق.

حاجتكَ، التي عرضَتْ لكَ، فخلّني من عزمتك يا أمير المؤمنين! فإني في جندٍ من المسلمين[1]، لا أرغب بنفسي عنهم).

فلما وصلت رسالة أبي عبيدة لأمير المؤمنين عمر، وقرأها، بكى وانهال الدمعُ من عينيه.

ازداد المرض بأبي عبيدة فجمع خاصة قواده وأوصاهم بقوله: ادفنوني حيث قضيتُ، فإني أتخوَّفُ أن تكونَ سنةً بعدي. يا معاذ! صلِّ بالناس.

وانتقلت روحه بعد وصيته بقليل، إلى الرفيق الأعلى، وكان ذلك سنة ثمان عشرة من الهجرة، وعمره (٥٨) ثمان وخمسون سنة. ودفن بغور الأردن، وقبره معروف هناك يزوره كثير من الناس. قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (ثلاث من قريش، إن حدَّثوك لم يكذبوك، وإن حدثتهم لم يكذّبوك، أبو بكر الصديق، وعثمان بن عفان، وأبو عبيدة بن الجراح). وقال رسول الله ﷺ: «إنّ لكلِّ أمةٍ أميناً، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح».

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل مماته بقليل: (لو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته).

رضي الله عن عامر أبي عبيدة بن[2] الجراح وأرضاه، وجعل الجنة مأواه[3] آمين.

وممن سبق إلى الإسلام في هذه الآونة صهيب الرومي رضي الله عنه ولمعرفة هذه الشخصية أقول معرفاً به...

٧٠ ــ ترجمة صهيب بن سنان الرومي رضي الله عنه

كان أبو صهيب وعمه، عاملين لكسرى، وكانت منازلتهم على دجلة عند الموصل؛ فأغارت الروم عليهم، فأسرت صهيباً وهو صغير، ونشأ بالروم فصار

---

(١) في الأصل (من أجناد المسلمين). المحقق.

(٢) في الأصل (أبي عبيدة الجراح) بدون (بن). المحقق.

(٣) في الأصل (مآواه) بمدة فوق الألف. المحقق.

ألكن، لا يسعه أن يعبّرَ عما يريدهُ في عبارة عربية صحيحة، ولذلك عرف بالرومي، ثم دار الفلكُ بصهيبٍ دورته، فاشتراه مَنْ باعه بمكة لعبد الله بن جدعان.

ولما ظهرت دعوة الحقّ، يحمل مشعلها النبي الأمين، أسرع صهيب للإسلام مع السابقين الأولين، أسلم هو وعمّار بن ياسر على يد الرسول ﷺ في دار الأرقم بن أبي الأرقم، هذه الدار التي اتخذت مركزاً للدعوة الإسلامية سراً، فقد باركها الله تعالى فظلت باقية بمكة وقد زرتها بنفسي عام (١٩٤٥)م وأدخلتها الحكومة السعودية في مشروع توسعة الحرم والمسعى، صهيب مع رسول الله ﷺ مؤازراً ومناصراً، في الوقت الذي قعدت قريش بكل طريق، تصدُّ الناس عن رسول الله ﷺ ودعوته، وتؤذي كل من يعتنق الإسلام؛ ولما رأى سيدنا محمد عليه الصلاة المبارك، لأن رسول الله ﷺ سبقه إليها.

روى الرواة في التاريخ: أن صهيباً لما هاجر، لحقه المشركون، ولما أدركوه قالوا له: أتيتنا صعلوكاً حقيراً، فكثر مالك عندنا[1]، و بلغت الذي بلغتَ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك؟ والله! لا يكون ذلك، قالوا له هذا، وأحاطوا به يتهددونه، فأجابهم بقوله: يا معشر قريش! تعلمون أني من أرماكم سهماً، ووالله! لا تصلون إليَّ حتى أرميكم بكل سهمٍ معي، ثم أضربكم بسيفي هذا ما بقي في يدي منه شيء، ولكني أدلكم على مالي، وأتخلّى لكم عنه، هو في مكان كذا فتركوه وعادوا لمكة.

وما لبث صهيب أن طار بأجنحة الشوق إلى رسول الله ﷺ ولما وصله، حيّاه وقال له ﷺ: ربح البيع أبا يحيى! ربح البيع أبا يحيى! فذهبت كنيةً له (أبو يحيى) وقد أنزل الله في حقه، قرآناً يُتلى، هو قوله تعالى: ﴿ومن الناس مَنْ يَشرِي نَفْسَهُ ابتغاء مرضاة الله، والله رؤوف بالعباد﴾[2].

---

(١) إنه كان حداداً يصنع السيوف والنبال كما هو مذكور في كتاب دليل الفالحين شرح رياض الصالحين.

(٢) يشري نفسه: أي يبيع نفسه، والآية في سورة البقرة آية (٢٠٧).

شهد صهيب رضي الله عنه المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وكان من أحنق المسلمين في رمي السهام، وهاهو ذا يتحدث عن نفسه، لا مزهواً بها، بل شاكراً نعم الله عليها[1]، فيقول: (لم يشهد الرسول ﷺ مشهداً قط إلا كنتُ حاضره، ولم يبايع بيعةً قط إلا كنتُ حاضرها، ولم يسر سريةً قط إلا كنتُ حاضرها، ولا غزا غزوة إلا كنتُ فيها عن يمينه أو شماله، وما خافُوا أمامهم قط إلا كنتُ أمامهم، ولا ما وراءهم إلا كنتُ وراءهم، وما جعلتُ رسول الله ﷺ بيني وبين العدوِّ قط).

قال رسول الله ﷺ فيه: «نعم العبد صهيب، لو لم يخف الله لم يعصه»[2].

وبعد وفاته ﷺ وقف إلى جانب الخليفتين أبي بكر وعمر. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لصهيب: ما فيك شيء أعيبه يا صهيب! إلا ثلاث خصال، لولاهنَّ ما قدّمتُ عليك أحداً، أراك تنتسب عربياً، ولسانك أعجمي، وتكتني بأبي يحيى اسم نبيّ، وتبذّرُ مالك، فقال صهيب: أما تبذيري مالي، فما أنفقه إلا في حقّه، وأما اكتنائي بأبي يحيى، فإن رسول الله ﷺ كنّاني بأبي يحيى فلن أتركها وأما انتمائي إلى العرب، فإن الروم سبتني صغيراً فأخذتُ لسانهم. ولما ضرب أبو لؤلؤة المجوسي ضربته الخائنة لأمير المؤمنين عمر وهو في الصلاة، أوصى صهيباً أن يصلي بالناس، إلى أن يجتمع المسلمون على إمام من بعده؛ فظل صهيب يصلي بالمسلمين حتى قضى عمر ثم صلّى صهيبٌ عليه تنفيذاً لوصيته.

قال النبي ﷺ: «السُّبَّاقُ أربعةٌ، أنا سابق العرب، وصهيب سابق الروم، وسلمان سابق الفرس، وبلال سابق الحبش» ــ أي إلى الجنة ــ أو إلى الإسلام.

---

(١) الأفضل (عليه) بدل (عليها). المحقق.

(٢) لقد رأيت في كتاب (كشف الخفاء) ص ٤٢٩ جـ ٢ ما يفيد أن هذا الحديث لا أصل له. لا مرفوعاً ولا موقوفاً. ثم قال: نعم قد روى الديلمي في سالم لا (صهيب) عن عمر مرفوعاً أن معاذ بن جبل إمام العلماء يوم القيامة لا يحجبه إلا المرسلون. وأن سالماً مولى أبي حذيفة شديد الحب في الله، لو لم يخف الله ما عصاه. والله أعلم. المحقق.

وقال مجاهد: أول من أظهر إسلامه سبعة: النبي ﷺ، وأبو بكر، وبلال، وصهيب، وخباب بن الأرت، وعمار بن ياسر، وسمية أم عمار، رضي الله عنهم أجمعين.

فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله وحفظه، وأما أبو بكر فمنعه قومه، وأما الآخرون، فأخذوا وألبسوا أدراع الحديد ثم أصهروا في الشمس.

وعاش صهيب (٧٣) عاماً، ومات بالمدينة المنورة سنة (٣٨)هـ ودفن بالبقيع، وروى من الأحاديث (٣٠) حديثاً. رضي الله عن صهيب وأرضاه وجعل الجنة مأواه.

ومن السابقين الأولين عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في هذه الآونة، وإليك يا أخي القارىء ترجمة حياته.

٧١ ــ ترجمة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

أتكلم عن هذا الصحابي الجليل لمكانته في الإسلام، وسبقه إليه، وهو يُعدُّ بحقٍ إمام المحدثين، وشيخ القراء، ومن أقرب الناس إلى قلب الرسول الكريم، حتى إنه عُرف بصاحب السواد والسواك، فهو رضي الله عنه، عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن شمخ بن مخزوم من بني هُذَيل. وأمه: أم عبدٍ بنت عبد وُدٍّ بن سواد من بني هُذيل أيضاً. لذا كان يعرف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (بابن أم عبدٍ).

نشأ عبد الله من أبوين فقيرين، وهم من المستضعفين الذين كانوا يلوذون بالقبائل الكبرى التماساً لحماية أنفسهم من اعتداء القبائل الأخرى.

وعندما انبثق فجر الإسلام، وأضاء بنوره الوهاج، يحمل مشعله سيد الخلق محمدٌ ﷺ مبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وبسط حمايته على المستضعفين والفقراء، وآمن به الناس لبّى عبد الله دعوة الرسول الكريم.

قال عبد الله: كنتُ أرعى الغنم لعقبة بن أبي معيط، فمرّ بي رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال: يا غلام! هل معك من لبن؟

قلتُ: نعم، ولكني مؤتمن، فقال ﷺ: ائتني بشاة لم ينزُ عليها الفحل، فقدمتها له، فاعتقلها ﷺ وجعل يمسحُ الضرع ويدعوه، حتى أنزلتْ، فملأت إناء، فشرب أبو بكر ثم شرب الرسول ﷺ، ثم قال الرسول للضرع: أقلص فقلص، فعاد كما كان، فقال عبد الله: يا رسول الله! علّمني من هذا الكلام ــ أي الدعاء ــ فمسح رأسه وقال: إنكَ غلامٌ معلّم.

ولما رأى عبد الله ما رأى من حبيب الله ومصطفاه في هذه الحادثة، أسلم وكان إسلامه حدثاً خطيراً غيّر مجرى حياته؛ فقد ضمَّهُ الرسول الكريم، وقربه إليه، حتى كان يدخل داره دون حجاب، فيلبسه نعليه، ويمشي معه و يستره إذا اغتسل ﷺ، ويوقظه إذا نام؛ وقد أحبَّه النبيُّ ﷺ ووثق به، حتى لقد روي أن النبي ﷺ قال: «رضيتُ لأمتي ما رضي لها ابن أم عبدٍ، وسخطتُ لأمتي ما سخط لها ابن أم عبدٍ»[1].

وقال في حديث آخر: «تمسكُوا بعهد ابن أم عبدٍ، ثم قال: رِجْلُ عبد الله في الميزان أثقلُ من أحدٍ عند الله».

وقد شارك عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الرسول الكريم في السراء والضراء فلقي من اضطهادٍ وتعذيب؛ فلما هاجر المسلمون إلى الحبشة فراراً بأنفسهم و بدينهم من بطشِ قريش، هاجر عبد الله بن مسعود معهم.

وقد عرف ابن مسعود بين أصحابه بقوة الإيمان، والجرأة في الحق، حتى قيل إنه كان أول من جهر بالقرآن الكريم بمكة بعد النبي ﷺ؛ فقد اجتمع أصحابُ الرسول ﷺ يوماً وقالوا: والله! ما سمعت قريش هذا القرآن يُجهر لها، فمن رجل يسمعهم؟ فقال عبد الله بن مسعود حتى أتى قريشاً في أنديتها، وقال رافعاً صوته: بسم[2] الله الرحمن الرحيم، الرحمن علّم[3] القرآن... السورة قرأها؛ فتأملوا وجعلوا يقولون: ما يقول ابن أم عبدٍ؟ ثم

---

(١) هذا الحديث في النفس منه شيء. المحقق.

(٢) في الأصل (باسم). المحقق.

(٣) في الأصل (عكم) بدل (علم). المحقق.

قالوا: إنه ليتلُو بعض ما جاء به محمدٌ، فخرجوا إليه، وجعلوا يضربون في وجهه وهو يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ؛ ثم انصرف إلى أصحابه فقالوا: هذا الذي خشينا عليك، فقال: ما كان أعداء الله قط أهون علي منهم الآن، ولئن شئتم غاديتهم بمثلها، فقالوا: حسبك، قد أسمعتهم ما يكرهون.

بهذه الروح اشترك عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في الأحداث الكبرى التي وقعت في عهد النبي ﷺ.

وقد هاجر عبد الله بن مسعود إلى المدينة المنورة، وآخى النبي ﷺ بينه وبين الزبير بن العوام وبين سعد بن معاذ رضي الله عنهم وهذا يدل على مبلغ تقدير الرسول الكريم إيمان عبد الله ومكانته من المسلمين.

اشترك عبد الله بن مسعود في غزوات الرسول ﷺ، فشهد بدراً وأحداً والخندق، وبيعة الرضوان وسائر المشاهد؛ وهو الذي قتل أبا جهل أعدى أعداء الإسلام بعد إصابته القاتلة، وأجهز عليه. روي أنه قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ يوم بدرٍ، فقلتُ يا رسول الله! إني قتلتُ أبا جهلٍ، قال: بالله الذي لا إله غيره لئن قتلتهُ؟ قتلت: نعم، فاستخفَّهُ الفرحُ، ثم قال: انطلق فأرينيه، قال: فانطلقتُ معه حتى قمتُ به على رأسه، فقال ﷺ: الحمد لله الذي أخزاكَ، هذا فرعون هذه الأمة فنفلني ــ أي أعطاني ــ رسول الله ﷺ سيفَهُ.

وبعد وفاة النبي ﷺ كان الصحابة يطلبون من عبد الله أن يشرح لهم الآداب التي تعلمها من النبي ﷺ فكان يشرحها لهم كشرح النبي ﷺ.

قال فيه أشرف الخلق: لو كنتُ مؤمراً أحداً بغير مشورة لأمرتُ ابن أم عبد.

وعن عبد الرحمن بن زيد النخعي قال: أتينا حذيفة بن اليمان، فقلنا: حدّثنا بأقرب الناس من رسول الله ﷺ هدياً ودلال نلقاه فنأخذ عنه؟ قال: كان أقرب الناس هدياً ودلاً وسمتاً برسول الله ﷺ ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه.

وكان عبد الله بن مسعود من كتاب الوحي في عهد الرسول ﷺ حتى لقد قال: إنه أخذ من الرسول سبعين سورة ما نازعه فيها أحدٌ، ووثق الرسول ﷺ

بروايته، حتى لقد قال: استقرئوا القرآن من أربعة نفرٍ، وبدأ بعبد الله بن مسعود، وقال ﷺ: «من سرّه أن يقرأ القرآن غضّاً كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبدٍ». ولا عجب إذا أصبح عبد الله بن مسعود شيخ القراء وإمام المحدثين. تمتّع عبد الله بن مسعود في عهد الخليفتين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما بمثل ما كان يتمتع به في عهد الرسول ﷺ.

فلما أراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يبعث إلى الكوفة بإمام يعلم الناس، اختار عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وقال لهم: إني قد بعثتُ إليكم بعمار بن ياسر أميراً، وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً، وهما من النجباء أصحاب رسول الله ﷺ من أهل بدرٍ، فاقتدُوا بهما، واسمعوا من قولهما.

ولما ولي الخلافة سيدنا عثمانُ بن عفان، أبقى عبد الله في الكوفة يقرأ القرآن، ويروي الحديث، ويعلم الناس، حتى أحب عثمان أن ينسخ المصحف تلافياً لما قد يجرُّ إليه التهاون في هذا الأمر الخطير من العواقب السيئة؛ وسرعان ما أرسلت حفصة بنت عمر الصحف إلى عثمان، لتنسخ منها عدة نسخ لإرسالها إلى الأمصار وقام بهذا العمل، زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام رضي الله عنهم جميعاً.

ويظهر أن إغفاله أمر ابن مسعود برغم أنه أكبر من زيدٍ سناً وأرفع مقاماً، قد أثار غضب ابن مسعود، فوقف في الناس خطيباً، وقال: أيأمروني أن أقرأ القرآن على قراءة زيد بن ثابت؟ والذي نفسي بيده! لقد أخذتُ من في — فم — رسول الله ﷺ سبعين سورة، والله! ما نزل من القرآن شيء إلا وأنا أعلم في أي شيء، وما أحد أعلم بكتاب الله مني، ولو أعلم أحداً تبلّغنيه الإبل أعلم بكتاب الله مني لأتيتُه؛ فبعث عثمان إليه يأمره بالخروج إلى المدينة، وأحب أعداؤه أن يستغلُّوا هذا الأمر لمقاومة عثمان، ولكن عبد الله بن مسعود نَزَّهَ نفسه عن ذلك وأبى، إلا أن يطيع الخليفة عثمان قائلاً: إنها ستكون أمورٌ وفتنٌ، لا أحبُّ أن أكون أول من فتحها، ثم ذهب إلى المدينة، وظل يحترم

عثمان حتى مات؛ وبذلك نزّه عبد الله بن مسعود نفسه عما انزلق إليه غيره من الصحابة.

مرض عبد الله بن مسعود، فعاده الخليفة عثمان فقال له: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي، قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي، قال: ألا آمرلك بطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني، قال: ألا آمر لك بعطاء؟ قال: لا حاجة لي فيه بعد إذ قضى الله لي جميع حاجاتي.

ولم يطل مرضه أن مات، وصلى عليه عثمان ودفن بالبقيع عن عمر قضاه في خدمة الإسلام والمسلمين والقرآن، عن بضع وستين سنة، وروى عن رسول الله ﷺ (٨٤٠) حديثاً مع شغله في تحفيظ القرآن وتبليغ الأحكام الشرعية للناس، وكان قصيراً جداً خفيف اللحم وهو سادس رجل في الإسلام.

٧٢ ــ ترجمة أبي ذر الغفاري رضي الله عنه

هو جُندب بن جنادة بن قيس بن عمرو بن مُليل بن ضمرة بن بكر بن عبد مناف بن كنانة بن خزيمة بن مدركة الغفاري، أبو ذر رضي الله عنه. فهو من قبيلة غفار، وغفار هي من كنانة.

وأمه: رملة بنت الوقيعة من بني غفار، وغفار تقيم في طريق تجارة قريش إلى بلاد الشّام.

ولما ظهر الإسلام يحمل مشعله سيدنا محمدﷺ، كان أبو ذرّ من السابقين إلى الإسلام، حتى قيل: إنه كان رابع من أسلم من الرجال، وقيل: الخامس؛ وقد روى في قصة إسلامه: أنه لما بلغه مبعث الرسول ﷺ قال لأخيه أنيس: اركب إلى هذا الوادي فاعلم لي، علمّ هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، يأتيه الخبر من السماء واسمع من قوله ثم ائتني.

فانطلق أخوه أنيس حتى قدم على الرسول ﷺ، وسمع قوله، ثم عاد إلى أبي ذرّ، فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، ويتكلم كلاماً

ما هو بالشعر، فقال أبو ذرّ: ما شفيتني مما أردت. ثم قدم أبو ذرّ مكةَ، ودخل المسجد الحرام، فلما أدركه الليل، اضطجع بالمسجد، فرأى عليٌّ بن أبي طالب تبعه، ولم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتى أصبح؛ فعاد أبو ذرّ إلى المسجد وظلَّ به طيلة النهار، ولما أتى المساء، عاد إلى مضطجعه، فمرَّ به عليٌّ فقال له: أما آن للرجل أن يعلمَ منزلَهُ؟ فسار معه لا يسأل واحدٌ منهما صاحبه عن شيء، حتى كان اليوم الثالث، فعل أبو ذرّ مثل ما فعله في اليومين السابقين، فأقامه عليٌّ وقال له: ألا تحدثني ما الذي أقدمك؟ قال: إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لتُرْشِدني فَعَلْتُ، ففعل، ثم أخبره، فقال عليٌّ: إنه حق، وإنه لرسول الله، فإذا أصبحتَ فاتبعني، فإني إن رأيت شيئاً أخاف عليك قمتُ كأني أريق الماء، فإن مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي، ففعل، فانطلق يقفوه حتى دخل على النبي ﷺ، فدخل معه، وسمع من قوله، وأسلم مكانه، فقال له النبي ﷺ: ارجع إلى قومك، فأخبرهم حتى يأتيك أمري، فقال أبو ذرّ: والذي نفسي بيده! لأصرخَنَّ بها بين ظهرانيهم. فخرج إلى المسجد فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فقام القومُ إليه، فضربوه حتى أضجعوه، وأتى العباس، فدفع عنه أذاهم وقال: ويلكم، ألستم تعلمون أنه من غفار، وأنه طريق تُجّاركم إلى الشام؟ ثم عاد أبو ذرّ من الغد، لمثل ما فعل، فضربوه، فأنقذه العباس منهم.

وبقي أبو ذرّ على هذا الحال نحواً من ثلاثين يوماً وهو ينام في الحرم ويشرب من ماء زمزم لطعامه وشرابه.

ولم يكن أبو ذرّ من المهاجرين الأولين إلى المدينة، بل ظلَّ بمكة حتى وقعت غزوتا بدرٍ وأحدٍ؛ ثم لحق بالرسول ﷺ؛ وبلغ من ثقة الرسول ﷺ به أن ولاَّهُ المدينة مرتين: الأولى: حين غزا نجداً في السنة الرابعة للهجرة، يريد بني محارب وبني ثعلبة.

والثانية: في السنة السادسة للهجرة حين غزا بني المصطلق بن خزاعة من حلفاء بني مدلج، على مقربة من قديد، الواقعة على طريق المسافر من مكة إلى المدينة.

ولما عوَّلَ الرسول ﷺ على غزو الروم، وتوطيد نفوذه في شمال الحجاز في السنة التاسعة للهجرة، وجد تثاقلاً من بعض أصحابه، وقد تخلف عنه المنافقون بزعامة ابن أبي بن سلول، وكان أبو ذرٍ من الصحابة الذين رافقوا الرسول ﷺ في غزوة تبوك على بعد اثني عشر فرسخاً من المدينة.

فلما خرج الرسول عليه الصلاة والسلام من ثنية الوداع، صار أبو ذرٍ يتخلف عن أصحابه، لأن جمله عجز عن المسير، فيقول المسلمون: يا رسول الله! تخلف فلان ــ ويعنون أبا ذر ــ فيقول ﷺ: دعوه فإن يكُ فيه خير، فسيلحقه الله بكم، وإن يكُ غير ذلك أراحكم الله منه، وتلوَّم أبو ذر على بعيره، فلما أبطأ أخذ متاعه فحمله على ظهره، ثم تابع سيره ماشياً؛ ونزل الرسول ﷺ في بعض منازله، فنظر أحد المسلمين فقال: يا رسول الله! إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده، فقال رسول الله ﷺ: كن أبا ذرٍ، فلما تأمله القومُ قالوا: يا رسول الله! هو والله أبو ذر، فقال الرسول ﷺ: (رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبعث وحده)، ولما وصل إلى النبي ﷺ أخبره خبر بعيره، فقال: (إن كنت لمن أعز أهلي عليَّ تخلفاً، لقد غفر الله لك بكل خطوة، ذنباً إلى أن بلغتني).

لم يساهم أبو ذر الغفاري في الفتوح العربية التي تمتْ في عهد أبي بكرٍ وعمر، وبلغ من علوِّ منزلته أن عمر لما أخذ في توزيع العطاء على المسلمين، ألحقه بمن شهد بدراً، على الرغم من أنه لم يشترك فهيا، وقيل: إن أبا ذرٍّ ظل بالمدينة حتى استخلف عمر، فخرج إلى الشام والتحق بديوانها، وكان يتردد على المدينة، ويتخلف بها إلى أن ولي عثمان بن عفان الخلافة بعد عمر.

رأى أبو ذر عثمان يعطي مروان بن الحكم مالاً كثيراً، ويمنح أخاه الحارث ثلاثمائة ألف درهم، ويعطي زيد بن ثابت الأنصاري مائة ألف درهم، فأنكر أبو ذر عليه ذلك، وعبَّر عن استيائه بقوله: بشِّر الكانزين بالنار، وصار يتلو قولَ الله تبارك وتعالى: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، فبشرهم بعذاب أليم﴾ (١).

---

(١) جزء من الآية رقم (٣٤) من سورة التوبة. المحقق.

ولما سمع مروانُ قولَ أبي ذرٍّ، شكاهُ إلى الخليفة فأرسل إليه مولى له ينهاهُ عن قوله؛ فلم يؤبَهْ وقال أبو ذر: أينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله؟ لأن أرضي الله بسخط عثمان، أحبُّ إليَّ من أن أرضي عثمان بسخط الله تعالى.

واستمرَّ أبو ذرٍّ في نقد سياسة عثمان الذي أمره بالرحيل إلى الشام حيث وَجَّهَ حملاته على سياسة عثمان،وسياسة معاوية واليه على هذه البلاد.

ولم يكن أبو ذر في سخطه وإنكاره على سياسة عثمان إلا معبراً عن آراء كثير من المسلمين، الذين أخذوا على عثمان أنه سمح لكبار الصحابة بالخروج إلى الأقاليم، وامتلاك الضياع والأراضي فيها، وبدأت الثروات التي تدفقت على المدينة ومكة تفعل فعلها في نفوس العرب، فتغريهم بالاستمتاع بها، استمتاعاً دفع بعضهم إلى حياة البذخ والترف، فانتشر في المدينة بعض ضروب من اللهو؛ واضطر عثمان إلى الضرب على أيدي أصحابها، ونفي بعضهم عن المدينة فتذمروا وتذمر ذووهم، وذوو[1] فريق من الصحابة، كعبد الله بن مسعودٍ، وأبي ذر الغفاري، وعمار بن ياسر رضي الله عنهم.

هذا في المدينة المنورة، وهي حاضرة الدولة الإسلامية وقلبها النابض؛ أما في الولايات الإسلامية، فقد وجد إلى جانب هؤلاء المنفيين المتذمرين من عثمان طبقتان من الشعب، هما: طبقة الأرستقراطيين، وطبقة المقاتلين؛ أما طبقة الأرستقراطيين أصحاب الثروات الضخمة، فقد استأثروا بالفيء والغنائم لأنفسهم، وحرموا المقاتلين منها، مُدَّعين أن الفيء لله، وليس للمحارب إلا أجر قليل، يدفع إليه؛ فلما رأى هؤلاء المحاربون ــ وجلُّهم من البدو ــ هذه الثروات الضخمة، يستأثر بها الحكامُ والقواد من قريش، أعلنوا أن أموال الفيء والغنائم إنما هي لهم، وليست للحكومة، وأن المال مال المسلمين، وليس مال الله.

وهكذا كان الجو ملائماً تمام الملائمة، ومهيئاً لقبول دعوة عبد الله بن سبأ، اليهودي المتآمر على الإسلام والمسلمين، ومن لفَّ لفَّهُ؛ ولقد أذكى نيران هذه الثورة،صحابي قديم اشتهر بالورع والتقوي والإيمان، وعرف بالزهد في عرض

(١) لعل الصواب (وتذمر) بدل (وذوو). المحقق.

الدنيا ومتاعها، هو أبو ذر الغفاري، وكان أبو ذر من أهل الصفة من الفقراء، ولا يبعد أن يكون لهذا أثره في ميول أبي ذر (للاشتراكية) التي يتمسك بها بعض الأحزاب في العصر الحديث.

وقد وَفَدَ ابن سبأ اليهودي ابن السوداء إلى الشام، وحرَّضَ أبا ذرٍّ على معاوية ــ مستغلاً موقفه وصفاء قلبه ــ وقال له: يا أبا ذر! ألا تعجب إلى معاوية يقول: المال مال الله، ألا إن كل شيء لله، كأنه يريد أن يحتجنه[1] دون المسلمين، ويمحو المسلمين، (أي من ديوان العطاء) لهذا لا نعجب إذا رأينا أبا ذر يعلن أستياءه من سياسة معاويةَ، ويحضُّ الأغنياء على الرحمة بالفقراء وعلى الإقلاع عن ادخار الأموال وكنزها، محتجاً بقول الله تعالى: ﴿والذين يكنزون الذهبَ والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، فبشّرهم بعذابٍ أليم، يوم يحمىٰ عليها في نار جهنم فتكوىٰ بها جباهُهم وجنوبُهم وظهورُهم، هذا ما كنزتم لأنفسكم، فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾[2].

كما لا نعجب أيضاً إذا ألفينا[3] ووجدنا الفقراء يلتفُّونَ حول أبي ذرٍّ، ويسيئون إلى الأغنياء، حتى شكوا[4] ذلك إلى معاوية.

فلما رفع الأمر[5] إلى الخليفة عثمان، أيقن أن الفتنة قد أخرجت خطمها[6] وعينها؛ بعث عثمان في طلب أبي ذر، فلما دخل المدينة المنورة، ووجد الاجتماعات تعقد بها للتآمر على الخليفة عثمان، نادى في المجتمعين: بشّر أهل المدينة بغارة شعواء، وحرب مذكار[7]. ومضى أبو ذر في دعوته الاشتراكية، والطعن على عثمان حتى ضاق به، فأذن له الخليفة بالإقامة في الرَّبذَةِ، وهي قرية صغيرة على مقربة من المدينة المنورة، أو نفاه إليها، ولكنه واصل حملاته العنيفة على سياسة عثمان إلى أن مات في سنة (٣١) هـ.

---

(١) (يحتجنه): يختص به نفسه. المحقق.

(٢) من سورة براءة آية (٣٤، ٣٥).

(٣) (ألفينا) بمعنى (وجدنا) فتعتبر مكررة مع ما بعدها. المحقق.

(٤) في الأصل (شكُو) بضم الكاف. والصواب فتحها كما أثبتنا. المحقق.

(٥) في الأصل (الأمرَ) بفتح الراء وقد حذفنا الفتحة لأن محلها الضم. المحقق.

(٦) الخطم: مقدم الأنف والفم من الدابة، والمراد هنا: بدأت أوائل الفتنة.

(٧) (مذكار) أي: ذات أهوال. المحقق.

يمرُّ بكم فقولوا: هذا أبو ذر صاحب رسول الله ، فأعينونا على دفنه. فلما توفي، وضعاه على قارعة الطريق، وأقبل عبد الله بن مسعود في رهطٍ من أهل العراق، فلم يَرُعْهُمْ إلا الجنازة على ظهر الطريق قد كادت الإبل تطؤها؛ وقام إليهم الغلام فقال: هذا أبو ذرٍّ صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه. فبكى عبد الله بن مسعود وقال: «صدق رسول الله ﷺ: تمشي وحدك وتموت وحدك، وتبعث وحدك»، ثم نزل هو وأصحابه فواروه.

كان أبو ذرٍّ من جلّةِ أصحاب الرسول ﷺ ومن السابقين الأولين إلى الإسلام؛ وقد عرف بالفقه في الدين ورواية الحديث. قال سيدنا علي رضي الله عنه: (وعى أبو ذرٍّ علماً عجز الناس عنه، ثم أوكأ[1] عليه فلم يخرج منه شيئاً).

وروى عنه كثير من الصحابة: كأنس بن مالك وعبد الله بن عباس، وإدريس الخولاني. وقال فيه رسول الله ﷺ: «أبو ذر في أمتي على زهد عيسى بن مريم»، وقال: «ما أقلت الغبراء، ولا أظلت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر» وقال: «أمرني الله عز وجل بحب أربعة، وأخبرني أنه يحبهم: علي، والمقداد بن الأسود، وأبوذرٍّ، وسلمان».

وروى من الاحاديث (٢٨١) حديثاً، ومات سنة (٣١)هـ. ومات بالربذة ودفن هناك على يد عبد الله بن مسعود رضي الله عنهم كما مرَّ.

٧٣ ــ ترجمة عمار بن ياسر رضي الله عنه

هو أبو اليقظان عمَّار بن ياسر، أسلم هو وأبوه ياسر، وأمه سمية رضي الله تعالى عنهم جميعاً.

أسلم عمار هو وصهيب في يوم واحد، ورسول الله ﷺ في دار الأرقم بن أبي الأرقم بعد بضعة وثلاثين رجلاً، فهو من الشخصيات التي اعتنقت الإسلام منذ طلوع فجره.

---

(١) في الأصل (أركأ) بالراء والصواب ما أثبتناه. المحقق.

(وكان أبوه ياسر حليفاً لبني مخزوم، فكانت بنو مخزوم يخرجون عماراً ووالده ياسراً وأمه سمية إلى الأبطح، إذا حميت الرمضاء يعذبونهم بحرّ الرمضاء عذاباً نكراً، فمر بهم النبي ﷺ فقال لهم: «صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة» فمات ياسر من شدة العذاب وأغلظت زوجته سمية القول لأبي جهل، فطعنها في فرجها بحربةٍ فماتتْ، وهي أول شهيدة في الإسلام، وشددواالعذاب على عمار بالحرّ تارةً، وبوضع الصخر في شدة الحر على صدره، تارة أخرى، فقالوا: لا نتركك حتى تسبَّ محمداً، وتقول في اللاتِ والعزّى خيراً، ففعل فتركوه.

فأتى النبي ﷺ يبكي فقال: ما وراءك يا عمار؟ فقال: شرٌّيا رسول الله! كان الأمر كذا وكذا. فقال: فكيف تجد قلبك؟ قال عمار: أجده مطمئناً بالإيمان، فقال ﷺ: يا عمار! إن عادوا فَعُدْ، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿إلا من أكره وقلبُه مطمئنٌ بالإيمان﴾ (١).

ولما عمَّ أذى قريش المسلمين، واشتدَّ بطشُها بهم، أذن النبي ﷺ لهم بالهجرة إلى الحبشة فراراً بدينهم، كان عمار معهم، يدفعه إلى ذلك حرصه الشديد على أن لا يفتن في دينه وإيمانه، وأن لا يقع فريسةً للعذاب بين أيدي الجبارين التي لا ترحم، وقلوبهم التي لا تلين.

ثم عاد عمار مع إخوانه لمكة عندما بلغهم إسلام عمر بن الخطاب، ولكن أذى المشركين لم يفتر، فعادوا إلى البطش والتنكيل بالمؤمنين، فأذن الرسول ﷺ لأصحابه بالهجرة للمدينة المنورة؛ ولما هاجر النبي ﷺ للمدينة وشرع في المسجد كان عمار يحمل اللبن على ظهره؛ وقد أثقل الصحابة الكرام الشابَّ المؤمن عماراً بحمل اللبن فشكا للنبي ﷺ وقال: يا رسول الله! قتلوني، يحمِّلون عليَّ ما لا يحملون، فمدَّ النبيُّ ﷺ يَدَهُ الشريفة، لينفضَ الغبار عن عمّار وقال: «وَيْحَ عمار تقتله الفئة الباغيةُ، يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار».

---

(١) جزء من الآية رقم (١٠٦) من سورة النحل. المحقق.

ولماتمَّ البناء، لم يفتْهُ عمران المسجد بالعبادة، فلازم عمارٌ المسجدَ ليظلَّ قريباً من رسول الله ﷺ مستظلاً بفيض عطفه ومحبته، وراوياً من صفاء نصحه وإرشاده. وقد شهد المشاهد والغزوات كلها مع رسول الله ﷺ، وأبلى في كل منها بلاء حسناً، خاض غمارها، مرفوعاً بإيمانه الخالص من كل شائبة، طالباً إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة. عرف النبيُّ ﷺ لعمار ذلك الفضل فكان يردّد دائماً على مسامع أصحابه قوله: «إني لستُ أدري ما قدر بقائي فيكم؟ فاقتدوا باللذين[1] من بعدي ــ يشير إلى أبي بكر وعمر ــ واهدوا هَدْيَ عمارٍ وعهد ابن أم عبد»[2] ــ أي عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما ــ وكانت شهادة رسول الله ﷺ لعمار شهادة حقٍّ وصدقٍ لم تغرَّهُ أبداً، ولم تغيّرْهُ، بل لبث على تواضعه. وقد حزن حزناً عميقاً لوفاة رسول الله ﷺ. وتمت البيعة لأبي بكر، وارتدَّ بعض الأعراب، فانضم عمار مع جيش الصديق لمحاربة المرتدين، الذين عادوا إلى دين الله بعد حربهم.

وقد أبلى عمار في حربهم ونادى المسلمين من على صخرة قائلاً: (يا معشر المسلمين! من الجنة تفرُّونَ. أنا عمار بن ياسر هلموا إليَّ). وقد قطعت أذنه، والدم يسيل وهو يحارب حتى انتصر عليهم. وقد أشترك في وقعة القادسية وتم النصر للمسلمين في العراق وبلاد فارس (إيران) فشهدها عمار شهادة صدقٍ وأبلى فيها أحسن البلاء.

وقد ولاَّهُ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إمارة الكوفة، وأرسل إلى أهلها يقول: (إني بعثتُ إليكم عَمَّارَ بنَ ياسر أميراً، وابنَ مسعود معلماً ووزيراً، وإنهما لمن النجباء، أصحاب محمدٍ من أهل بدرٍ، فاسمعوا لهما وأطيعوا).

---

(١) في الأصل (باللذين) بلام واحدة. والصواب ما أثبتناه لأنه للمثنى. المحقق.

(٢) نص الحديث في (سنن ابن ماجه) جـ ١ مقدمة باب ١١ (في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ) ص ٣٦ طبع استانبول (عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لا أدري ما قَدْرُ بقائي فيكم؟ فاقتدوا باللذين من بعدي» وأشار إلى أبي بكر وعمر. انتهى الحديث. ولم يذكر فيه (واهدوا هدي عمار وعهد ابن أم عبد) ولم أهتد لمصدر هذه الزيادة. المحقق.

وبعد فترة، عزله عمر عن إمارة الكوفة، وأحبَّ أن يَسْبرَ غورَه في ذلك الأمر، فسأله: أساءكَ عزلُنا إياكَ؟ فقال عمار: لئن قلت ذاكَ، لقد ساءتني الولايةُ بقدر ما ساءني العزلُ، وهو يعني أن الأمرَ عنده سيّان، فالرأيُ رأيُ الخليفة فيما يراه صواباً.

وأقام عمار في المدينة المنورة مجاوراً لرسول الله ﷺ حتى كانت خلافة عثمان بن عفان، وبدأ الخلافُ يذرُّ قرنَهُ ــ أي يظهر ــ بين المسلمين، وكان عمار قد بلغ من الكبر عتياً، فكان داعيةَ خير، ووساطة صلح، ولا يبالي في الحق لومة لائم، ولا يخشى إلا الله، ولما قضى عثمانُ شهيداً، وبويع علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالخلافة، انضم عمار لجيش علي رضي الله عنه وكان في وقعة صفين، فغافل أبو العارية المزني عماراً ورماهُ بسهم فقتله، واخذّ رأسه شخص ثان، واختصم الاثنان، وكلاهما يدّعي قتله، وسمعهما عمرُو بن العاص فقال: (واللهِ! إن يختصمانِ إلا في النار، لوددت أني متُّ قبل هذا بعشرين سنة).

كان عمار خامس مسلم في الإسلام وبشّره الرسول ﷺ بالجنة. رحم الله عماراً وأرضاه، وجعل الجنة مثواه ومأواه اللهم آمين.

٧٤ ــ ترجمة سعيد بن زيد رضي الله عنه

هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، ينتهي نسبه إلى لؤي بن غالب. وكنيته: أبو الأعور القرشي العدويّ، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، ومن السابقين الأولين البدريين، وهو ابن عم عمر بن الخطاب. وكان له الحظ الأوفر من الشرف والفخر، إذ شهد المشاهد مع رسول الله ﷺ، كما امتدَّ به الأجلُ، حتى شهد حصار دمشق وفتحها؛ فولاه عليها أبو عبيدة بن الجراح؛ فهو أول من تولىَّ أعمال نيابة دمشق في هذه الأمة؛ له أحاديث يسيرة، وروى عنه ابن عمر، وعروة بن الزبير وغيرهما. وكان والده زيد بن عمرو، ممن كتب الله لهم الهداية قبل طلوع شمس الإسلام، ففرَّ إلى الله من عبادة الأصنام، وولّى وجهه شطر الشام ينشد الدين القيم، ولكنه لم يظفر

بشريعة إبراهيم عليه السلام على الوجه الذي كان يؤمل، وقد أعياه البحثُ عن رجلٍ يقفه على تفاصيل تعاليمها، كما كان يرجو؛ وهو من أجل هذا الإخلاص العظيم، في طلب الدين القويم، من أهل النجاة؛ فقد شهد له رسول الله صلوات الله عليه، هذه الشهادة العالية فقال عنه: «يبعث أمة وحدة» مع أن أجله قد وافاه قبل أن يتلقَّى رسول الله ﷺ رسالة السماء.

نقل يونس بن بكير، وهو من أوعية العلم بالسيَرِ، عن محمد بن إسحاق قال: قد كان نفر من قريش (زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وعثمان بن الحارث بن أسد، وعبيد الله بن جحش، وأميمة ابنة عبد المطلب) حضروا قريشاً عند وثنٍ لهم، كانوا يذبحون عنده لعيدٍ من أعيادهم، فلما اجتمعوا خلا أولئك النفر، بعضهم إلى بعضٍ، وقالوا: تصادقوا وتكاتموا، فقال قائلهم: تعلمُنَّ والله! ما قومكم على شيء، لقد أخطأوا دينَ إبراهيم وخالفوه؛ فما وثنٌ يعبدُ، لا يضر ولا ينفع؟ فابتغوا لأنفسكم، قال: فخرجوا يطلبون ويسيرون في الأرض، يلتمسون أهل كتاب من اليهود والنصارى والملل كلها، يتطلبون الحنيفية، فأما ورقة بن نوفل فتنصَّرَ، واستحكم في النصرانية، وحصل الكتب، وعلم علماً كثيراً، ولم يكن فيهم أعدل شأناً من زيد بن عمرو، اعتزل الأوثان والملل، إلا دين إبراهيم، يوحدّ الله تعالى، ولا يأكل من ذبائح قومه. وهذه شهادة من أسماء بنت أبي بكر الصديق، تزكيّ بها زيد بن عمرو فتقول: (لقد رأيت زيد بن عمرو بن نُفَيل، قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش! والله ما فيكم أحدٌ على دين إبراهيم غيري).

كما كان زيد بن عمرو حريصاً على إحياء الموءودة، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: (مَهْ ـ أي اكفف لا تقتلها ـ أنا أكفيك مؤونتها).

روى سعيد بن زيد أنه سأل رسول الله ﷺ يوماً، فقال: يا رسول الله! إن أبي كان كما قد رأيت وبلغكَ، ولو أدركك لآمن بكَ واتبعك، فاستغفر له، قال: نعم، فاستغفر له، فإنه يبعث أمةً وحده. ولا عجب، فهذا زيد بن عمرو، يتحدث عن نفسه فيقول: شامت النصرانية واليهودية فكرهتهما، وكنتُ بالشام، فأتيت راهباً، فقصصت عليه أمري، فقال: أراكَ تريد دين

إبراهيم عليه السلام، يا أخا مكة! إنكَ تطلب ديناً ما يوجد اليوم، فالحق ببلدكَ، فإن الله يبعث من قومك من يأتي بدين إبراهيم، بالحنيفية، وهو أكرم الخلق على الله. وليس عجباً بعد هذا الحديث المنير، الذي سقناه عن زيدٍ، أن يقفو سعيد بن زيد أثره في حسن إسلامه، وراسخ إيمانه.

تزوج سعيدٌ هذا، ابنةَ عمه فاطمة أخت عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأسلم عليه الرضوان قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم، كما أسلمتْ زوجه فاطمة أخت عمر.

دخل عمرُ بن الخطاب بيتَ زوج أخته سعيد بن زيد، وابن الخطاب في جاهليته للإسلام العدوّ العنيدُ، ذو البأس الشديد، فوجد أخته فاطمة وزوجها سعيداً[1]، يقرآن صحيفةً في تدبرٍ وخشوع، عرف أن بها آيات مما ينشُر محمدٌ على أتباعه الذين آمنوا برسالته، كما عرف أن أخته وزوجها، قد اطمأنا إلى تعاليم هذا الدين الجديد، وأخذا يتعبدان بتلاوة آياته؛ فأثارتْ هذه المفاجأة بركان غضبه، وهجم على سعيد يحاول أخذ الصحيفة منه اغتصاباً وشجَّ جبهته بمفتاح كان بيده حتى أسال دمه؛ لكن سعيداً وفاطمة زوجه، أبيا على عمر لمس الصحيفة، وقراءة ما فيها إلا بعد أن يغتسل و يتطهر، فخضع بعد هذا الإصرار لمشيئتهما، ونفَّذ لهما ما أرادا، ولما تناول الصحيفة ليقرأ ما فيها، فإذا هو: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم، طه ما أنزلنا عليكَ القرآنَ لتَشقَى، إلا تذكرةً لمن يخشَى، تنزيلاً ممن خلق الأرضَ والسمواتِ العُلَيَ، الرحمنُ على العرش استوى، له ما في السمواتِ وما في الأرض، وما بينها، وما تحت الثَّرى، وإنْ تجهرْ بالقولِ فإنه يعلمُ السرَّ وأخفَى، الله لا إله إلا هوَ له الأسماء الحسنى﴾[2].

وما قرأ عمر بن الخطاب هذه الآيات البينات الكريمات، التي هزَّتْ كيانه، وملكت عقله وقلبه ووجدانه، حتى انفتل من البيت راجعاً، وجرى مسرعاً، يقول لجميع الذين يلقاهم: دلوني على محمد. وما كادت عينُه تقع على رسول الله محمدٍ ﷺ في دار الأرقم حتى دفعته يدُ الحبِّ إليه، لينطق بالشهادتين

(١) في الأصل (سعيد) بدون ألف. والصواب ما أثبتناه. المحقق.

(٢) من سورة طه الآيات من (١-٨).

بين يديه، وبإسلام عمر رضي الله عنه؛ استجاب الله تعالى دعوة رسوله: «اللهمَّ! أعزَّ الإسلام بأحد العمرين»، يعني عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام[1].

وقد شهد سعيد بن زيد رضي الله عنه أحداً والخندق والحديبية والمشاهد. ادعتْ أروَى بنت أويس: أن سعيد بن زيد أخذ شيئاً من أرضها، فخاصمتْهُ إلى مروان، فقال سعيد: أنا كنتُ آخذ من أرضها شيئاً بعد الذي سمعتُ من رسول الله ﷺ: «مَنْ أخذَ شيئاً من الأرض طُوِّقَهُ إلى سَبع أرضين؟»، قال مروان: لا أسألك بينةً بعد هذا، فقال سعيد: اللهم! إن كانت كاذبةً فأعمِ بصرها، واقتلْهَا في الأرض، فما ماتتْ حتى عميَتْ، وبينما هي تمشي في أرضها، إذ وقعت في حفرةٍ فماتَتْ.[2]

كان سعيدٌ رجلاً آدم طويلاً ــأي أسمرــ أشعر، ولم يكن متأخراً عن رتبة أهل الشورى في السابقة والجلالة، وإنما تركه عمر رضي الله عنه لئلا يبقي له فيه شائبة حظ، لأنه ختنه ــأي صهره ــ وابن عمه، ولو ذكره في أهل الشورى لقال الرافضي خلَّفَ ابن عمه، فأخرج منها ولَدَهُ وعصبتَهُ، فكذلك فليكن العهد لله تبارك وتعالى.

وقد روى الرواة: أن رسول الله ﷺ قال يوماً وهو في بعض صحابته على حراء: «اسكن حراء، فما عليكَ إلا نبي أو صديق أو شهيد» وقد كان سعيد بن زيد فيمن كانوا عليه. ألا فلتفخر روح سعيد بهذه الشهادة العالية من رسول الله. ﷺ

وقد توفي سعيد بعد نيفٍ وسبعين سنة، وغسله ابن عمرو وقيل سعد بن أبي وقاص، وقبر بالمدينة المنورة بعد أن صلى عليه عبد الله بن عمر ونزل في قبْره سعد وابن عمر عليه وعليهما وعلى جميع صحابة رسول الله سلام الله ورضوانه.

---

(١) وهو أبو جهل. المحقق.

(٢) رويت قصة أروى بعدة روايات شرحها الحافظ أبو نعيم في كتاب الحلية ج ١ ص ٩٦ وأتيت هنا بخلاصة هذه الروايات.

وروى عن رسول الله ﷺ ثمانٍ وأربعين حديثاً بالإضافة لحفظه لكتاب الله عن ظهر قلب. وبعد هجرته للمدينة آخى الرسول ﷺ بينه وبين أبي بن كعب، رضي الله عنه.

٧٥ ــ ترجمة خَبَّابُ بن الأرت رضي الله عنه

هو خباب بن خَبَّاب بن الأرت بن جندلة، بن سعد، بن خزيمة، بن كعب بن زيد، بن مناة، بن تميم، فهو تميمي في قول الأكثر، وقيل: خزاعي، وقال بعضهم: إنه تميمي النسب، خزاعي الولاء، زهري الحلف.

وأمه أم أنمار بنت سباع الخزاعية، وكنيته أبو يحيى.

وهو من السابقين الأولين إلى الإسلام، كان رضي الله عنه سادس ستة فيه؛ وقد عُذِّبَ في الله عذاباً نكراً.

قال مجاهد: أول من أظهر إسلامه، رسول الله ﷺ وأبو بكر، وخبَّاب، وصهيب، وبلال، وعمار، وأم عمَّار، فأما رسول الله ﷺ، فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر فمنعه قومه، وأما الآخرون فألبسوهم أدرع الحديد، ثم أصبروهم في الشمس، فبلغ منهم الجهدُ ما شاء الله من حرِّ الشمس والحَديد.

قال الشعبي: سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه خبَّاباً عما لقي من المشركين؟ فقال: يا أمير المؤمنين! أنظر إلى ظهري، فقال: ما رأيت كاليوم ظهر رجلٍ، قال خبابٌ: لقد أوقدتْ نارٌ وسجِّيتُ عليها فما أطفأها إلا وَدَكُ ظهري ــ أي دهنه ــ.

شهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ.

ولما هاجر رضي الله عن آخى النبي ﷺ بينه وبين تميم مولى حَرَّاش بن الصمّة، وقيل: بينه وبين جبر بن عتيك.

مرض خباب مرضاً شديداً، قال قيس بن أبي حازم رضى الله عنه دخلنا على خباب وقد اكتوى سبع كيَّات فقال: لو ما أن رسول الله ﷺ نهانا أن ندعو بالموت لدعوتُ به.

نزل الكوفة، ومات فيها، وهو أول صحابي يدفن في ظاهر الكوفة، وكان موته سنة سبع وثلاثين للهجرة.

قال سيدنا علي رضي الله عنه لما نُعي خباب له: رحم الله خبَّاباً، أسلم راغباً، وهاجر طائعاً، وعاشَ مجاهداً، وابتليَ في جسمهِ، ولم يضيّع الله أجرَ من أحسنَ عملاً.

وكان عمرهُ حين موته ثلاثاً وسبعين سنة. وروي له عن رسول الله ﷺ اثنان وثلاثون حديثاً، رضي الله عن خباب وأرضاه، وجعل الجنة مأواه.

٧٦ ــ ترجمة المقداد بن الأسود رضي الله عنه

هو الصحابي الجليل، ذو المواقف العظيمة، المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة القضاعي الكندي؛ أحد السابقين الأولين، والظافر بشهود المشاهد والغزوات كلها مع سيدنا محمدٍ ﷺ.

قيل له المقداد بن الأسود: لأنه ربي في حجر الأسود بن عبد يغوث الزهري فتبنَّاهُ. تحدث عنه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقال: أول من أظهر إسلامه سبعة، وذكر منهم المقداد، ثم قال: شهدت من المقداد مشهداً، لأن أكون صاحبه أحب إليَّ مما عدل به؛ يعني قتاله، والمقداد يقاتل على فرس المشركين يوم بدر.

كان المقداد طويلاً آدم ــ أسمر ــ ذا بطنٍ، أشعر الرأس، واسع العينين، مقرون الحاجبين، يصفر لحيته بالحناء، وقد ظلَّ طول حياته وقوراً مهيباً حتى بلغ السبعين؛ وقد زوَّجه النبيُّ ﷺ ابنة عمه ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب؛ وكانت على غاية سامية من الجمال والعقل، وكرم المحتد، وقد زاد شرفاً بهذا الزواج الذي أصبح قريباً من بيت رسول الله ﷺ.

هاجر المقداد للحبشة، ثم عاد إلى مكة وأقام بها، إلى أن بَعَثَ رسول الله ﷺ سريةً وعلى رأسها عبيدة بن الحارث، فلقوا جمعاً من المشركين عليهم عكرمة بن أبي جهل، وكان المقداد وعتبة بن غزوان قد خرجا

مع المشركين ليتوصلا إلى المسلمين، فتواقفت الطائفتان، ولم يكن قتال، فانحازَ المقدادُ وعتبةُ إلى المسلمين؛ وهكذا تمتْ لهما نعمة الهجرة بعد إذ تأخرت قليلاً عن هجرة إخوانهم السابقين الأولين.

وفي كتاب سيرة ابن هشام يتحدث ابن إسحاق عن المقداد، و يسجل له موقفاً بطولياً يكشف عن صراحة فائقة، وجرأة منقطعة النظير، لا تتوفران إلا لمؤمن صادق الإيمان قد باع نفسه لله تعالى، وجندها في سبيل نصرة دينه ورسوله، قال ابن إسحاق: أتى رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر، الخبرَ عن قريش بمسيرهم، ليمنعوا غيرهم، فاستشار رسول الله الناسَ، فقال أبو بكر فأحسن القول، وقال عمر فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال يا رسول الله! امض لما أمرت به، فنحن معكَ، والله: لا نقول لكَ كما قالتْ بنو إسرائيل لموسى؛ اذهبْ أنت وربك فقاتلا، إنا ههنا قاعدون، ولكنا نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق نبياً! لو سرت بنا إلى برك الغماد، لجالدنا معك من دونه، حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له.

وحسب المقداد فخاراً وشرفاً هذا الحديث المروي عن رسول الله ﷺ فيه، وفي ثلاثة من أصحابه: «إن الله عز وجل أمرني بحب أربعة، وفي رواية أخرى لصدر هذا الحديث: الجنة تشتاق إلى أربعة: قيل يا رسول الله! سمِّهم لنا؟ قال: عليٌّ منهم، ويقول ذلك ثلاثاً، وأبو ذرّ، والمقداد، وسلمان».

وعن سيدنا علي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قوله: لم يكن نبيٌّ إلا أعطي سبعة نجباء وزراء ورفقاء، وإني أعطيتُ أربعة عشر «حمزة وجعفر، وأبو بكر وعمر، وعلي والحسن والحسين، وابن مسعود وسلمان وعمار وحذيفة وأبو ذرّ، والمقداد وبلال».

قال المقداد: استعملني رسول الله ﷺ على عمل، فلما رجعتُ قال: كيف وجدتَ الإمارة؟ قلتُ يا رسول الله! ما ظننت إلا أن الناس كلهم خول ــ أي خدم ــ لي، والله لا أَلي على عملٍ ما دمتُ حياً.

مرض هذا الصحابي الجليل على أثر عملية جراحية لتخفيف شحم بطنه، وعلى أثرها مات في المدينة المنورة، وصلى عليه الخليفة عثمان رضي الله عنه، ودفن بالبقيع، رضي الله عنه وأرضاه وجعل الجنة مأواه.

٧٧ ــ ترجمة سلمان الفارسي

ابن الإسلام وسبب إسلامه

هو سلمان[١] ابن الإسلام، أبو عبد الله الفارسي، سابق الفرس إلى دين الله ــ الإسلام ــ صحب النبيَّ ﷺ وخدمه، وحدَّثَ عنه، روى عنه جماعة من أعلام الصحابة، كابن عباس، وأنس بن مالك، وقد أجمع الصحابة الكرام: أنه كان لبيباً حازماً، من عقلاء الرجال وعبّادهم ونبلائهم.

قال القاسم أبو عبد الرحمن: زارنا سلمانُ الفارسيُّ، فتلقيناه كما نتلقَّى الخليفة، ثم سَأَلنا عن أبي الدرداء؟ فقلنا هو مرابط، فقال: أين مرابطكم؟ قلنا: بيروت...[٢] ألا أحدثكم حديثاً يذهب الله به عنكم غرض الرباط؟ سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «رباط يوم وليلة كصيام شهر وقيامه، ومن مات مرابطاً أجيرَ من فتنة القبر، وجرى له صالح عملهِ إلى يوم القيامة».

وما أجدرنا أن نهيء لسلمان فرصة الحديث عن نشأته ومرباه، وما اكتنفه من أحداث وملابسات أفضت به إلى الإيمان بالله على يد رسول الله ﷺ؛ فإنه أصدق مَنْ يتحدَّث عن نفسه، حتى يبلغ به الحديث مداه.

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: حدثني سلمان الفارسي وأنا أسمع من فيه، قال: كنتُ رجلاً فارسياً من أهل أصبهان، وكان أبي دهقانها، وكنت أحبَّ خلق الله إليه، فاجتهدتُ في المجوسية، حتى كنت قاطن النار ــأي ملازمهاــ الذي يوقدها، لا يتركها تخبو ساعةً، وخرجتُ يوماً، أريد ضيعة أبي، فمررت بكنيسةٍ من كنائس النصارى، فسمعتُ أصواتهم فيها، وهم

(١) في الأصل (سلام) بدل (سلمان). المحقق.

(٢) لو ذكر المؤلف بعد النقط كلمة (قال) لكان أفضل ليرتبط الكلام. المحقق.

يصلُّون، فدخلتُ إليهم لأنظر ما يصنعون، فلما رأيتُهم أعجبتني صلواتُهم، ورغبتُ في أمرهم، وقلتُ: هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه؛ ثم سألتُهم أين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشام، فاحتلْتُ حتى خرجتُ مع جماعةٍ من تجار النصارى إلى الشام، ودُللتُ على الأسقف في الكنيسة، فجئته لأخدمه، وأتعلم منه، وأصلي معه، حتى حضرتهُ الوفاة، فجاءوا برجلٍ كان أعبد منه وأتقى، ما أعلمني أحببتُ شيئاً قبله حُبَّهُ. ولما ولما احتضر سألتُه أن يوصيني، فقال: اقصِدْ[1] يا بنيَّ! إلى رجلٍ بالموصل، فإنك ستجده على مثل حالي، وقد صدق؛ وهكذا تناولتني الأسفار حتى أقرتني عند عابدٍ من أهل عمورية بالروم قال لي: وقد سألته أن يوصيني قال: أي بني! والله ما أعلمه بقي أحدٌ على مثل ما كنا عليه، آمرُكَ أن تأتيه؛ ولكن قد أظلك زمانُ نبيّ يبعث من الحرم بدين إبراهيم الحنيفية، مهاجره بين حرتين، إلى أرض مسبخةٍ ذات نخيلٍ، وإن به علاماتٍ[2] لا تخفى، بين كتفيه خاتم النبوة، فيأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، فإن استطعتَ فتخلص إليه، فتوفي[3].

فمَرَّ بي ركبٌ من تجار العرب من بني كلاب، فقلتُ: أصحبكم وأعطيكم بقراتي وغنمي هذه، وتحملوني إلى بلادكم، فحملوني إلى وادي القرى، فباعوني عبداً من رجلٍ من اليهود، فرأيتُ النخلَ فعلمتُ أنه البلد الذي وصف لي، فأقمت عند الذي اشتراني، ثم أتاه رجل من بني قريظة فاشتراني منه، وقدم بي إلى المدينة فوالله! ما هو إلا أن رأيتها، فعرفتُ نعتَها؛ وأقمتُ في رِقّي أعمل في نخله، حتى بُعِثَ رسول الله ﷺ بمكة وغفلتُ عن ذلك، حتى قدم المدينة مهاجراً، فنزل في بني عمرو بن عوف وأنا أعمل لصاحبي في نخلةٍ له، فوالله! إني لفيها، إذ جاءه ابن عمٍ له فقال: أي فلان! قاتل الله بني قيلةَ ــ الأنصار ــ والله! إنهم الآن لفي قباء، مجتمعون على رجلٍ من مكة يزعمون أنه نبي[4]، فوالله! ما هو إلا أن سمعتها، فأخذني القرُّ، ورجفت بي النخلةُ حتى

(١) في الأصل (اقصُدْ) بضم الصاد. والصواب كسرها كما أثبتنا. المحقق.

(٢) في الأصل (علاماتُ) بالرفع. والصواب ما أثبتناه لأنه اسم (إن). المحقق.

(٣) (فتوفي) يعني: عابد عمورية. المحقق.

كان ذلك يوم الجمعة في ١٦ ربيع الأول بعد وصوله ﷺ للمدينة بأربعة أيام ٢ يوليو سنة ٦٣٢م.

كدتُ أسقط، ونزلت سريعاً، فأقبلتُ على عملي حتى أمسيتُ، فجمعتُ شيئاً، فأتيتهُ به وهو بقباء عند أصحابه فقلت له: بلغني أنك رجل صالح، وأن معكَ أصحاباً لك غرباء وقد كان عندي شيء من الصدقة، فرأيتكم أحقَّ مَنْ بهذهِ البلاد. فهاكَ هذا فكلْ منه؛ قال سلمان: فأمسك رسول الله ﷺ وقال لأصحابه، كلوا، فقلت في نفسي: هذه خلة مما وصف لي صاحبي، ثم رجعتُ وتحوَّل رسول الله ﷺ إلى المدينة، فجمعتُ شيئاً كان عندي، ثم جئتهُ به فقلت: إني قد رأيتكَ لا تأكل الصدقة، وأحببتُ كرامتك، فأهديتُ لك هذه هديةً، وليس بصدقةٍ، فمدَّ يدَهُ فأكل وأكل أصحابه؛ فقلت: هاتان اثنتانِ، ثم جئتُ رسول الله ﷺ وقد تبع جنازة الغرقد[1]، وحوله أصحابه، فسلّمتُ وتحولتُ أنظر إلى الخاتم في ظهره فعلم ما أردت، فألقى رداءه، فرأيتُ الخاتم، فقبلتُه وبكيتُ، فأجلسني بين يديه فحدثته بشأني كله كما حدثتك يا ابن عباس! فأعجبه ذلك، وأحبَّ أن يُسمعه أصحابهُ.

ثم شغل الرقُّ سلمان، حتى فاته مع رسول الله بدر وأحد. ولما رآه ﷺ قال له: كاتب يا سلمان! قال سلمان فكاتبتُ صاحبي على ثلاثمائة نخلةٍ أحييها له، وبأربعين أوقية، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: أعينوا أخاكم؛ فأعانوني بالنخل حتى اجتمعت لي ثلاثمائة من صغار الفسيل، قام رسول الله ﷺ فوضعها بيده الشريفة، قال سلمان: فوالذي نفس سلمان بيده! ما ماتتْ منها واحدة، وبهذا أديتُ النخل، وبقي المال، فأتي رسول الله ﷺ بمثل بيضة دجاجة من ذهب من بعض المغازي فقال: ما فعل الفارسي المكاتب؟ فدعيت له فقال ﷺ: أدّ هذه ما عليك، قلت: وأين تقع هذه يا رسول الله مما عليَّ؟ قال: خذها فإن الله سيؤدي بها عنك؛ قال سلمان: فأخذتُها فوزنت لهم أربعين أوقية، وأوفيتهم حقهم، وأعتقتُ[2]. فشهدت مع رسول الله ﷺ الخندقَ حرّاً طليقاً من كل عبودية والحمد لله رب العالمين، ثم لم يفتني معه مشهد.

---

(١) هو مقبرة أهل المدينة شرقي الحرم الشريف وقد زرته تفوح فيه النسمات العطرية.

(٢) أنظرها في كتاب (أسد الغابة) لابن الأثير في الجزء الثاني.

ولما أسلمتُ قبّل علي رأسي، وكساني أبو بكر ما كان عليه وهو يقول لي: يا سلمان! أنت مولى الله ورسوله.

كان سلمان من فضلاء الصحابة وزهادهم وكبار علمائهم، وهو الذي أشار على رسول الله ﷺ بحفر الخندق حين جاءت الأحزاب، وفيه قال رسول الله ﷺ: سلمان منّا أهل البيت، وكان يعمل الخوص بيده، ويأكل من ثمنه، وآخى الرسول ﷺ بينه وبين أبي الدرداء، وروى عنه كثير من العلماء. كان بينه وبين سعد بن أبي وقاص شيء فقال سعد: انتسبْ يا سلمان! قال: ما أعرف لي أباً في الإسلام، ولكن سلمان ابن الإسلام، ولما سمع عمر بن الخطاب ذلك، قال: وأنا عمر ابن الإسلام أخو سلمان ابن الإسلام.

توفي سلمان في سنة (٣٥) للهجرة، ودفن بالمدائن شرقي بغداد، وله مقام يزار هناك إزاء إيوان كسرى، وجاوز الثمانين من العمر. رضي الله عن سلمان وأرضاه وجعل الفردوس مثواه.

٧٨ ــ تحقيق أمنية لا بدَّ منها

أخي القاريء! إن النفس تتوق أثناء المطالعة، إلى معرفة ما يمرُّ بها، وتتشوَّق لمعرفة الشخصيات التي كان لها شرف اعتناق الإسلام عند بزوغ فجره قبل غيرها، ولم تبال بما ينالها في سبيل ذلك، بتعذيب، أو إلحاق أي أذى بها، طالما تغلغل الإيمان إلى القلوب، واطمأنت الروح للعقيدة الصحيحة، فهي تستعذب كل ألم أو أذى في سبيل ما اطمأنتْ إليه، ورست عند حقائقها، فأصبحت على يقين تام، مما اعتنقته من تعاليم الرسالة الخالدة، ودعوة الخير للعالمين، لذا فإني شرحتُ للسادة القراء بعض الشخصيات فيما مرَّ من عالم الخلود، على مرآة الصدق والمحبة، وشاشة الحق والمعرفة لبيانها، وفضل سبقها لدين الله، وقد شرحت لإخواني تراجم بعضهم، لأزيل لواعج الشوق، من نفوس القارئين، بذكر أنباء هؤلاء السادة من السابقين الأولين بين الدعوة السرية والدعوة العلنية على سبيل المعرفة؛ وأعود بعد ذكر هذه الأمنية التي لا بدَّ منها. إلى متابعة السير في حوادث أخبار حبيب الله ومصطفاه، وسيرته العطرة فأقول:

٧٩ ــ الدعوة بين الإسرار والعلن

تسير الدعوة إلى الدين الجديد قُدُماً، ويتحدَّثُ الناس عنها وعن الرسول محمد ﷺ، على أن أهل مكة من قساة الأكباد ومَنْ على قلوب أقفالُها، لم يعبئوا به أوَّل أمره، وظنوا حديثه لن يزيد على حديث الرهبان والحكماء، أمثال قُسّ بن ساعدة، وأمية، وورقة بن نوفل، وغيرهم، وأن الناس عائدون لا محالة إلى دين آبائهم وأجدادهم؛ وأن هُبَلَ واللات والعزَّى وإسافاً ونائلة اللَّذين كان العرب ينحرون عندهما، ستكون هذه الأصنام والأوثان آخر الأمر، هي صاحبة الغلبة على دعوة محمدٍ الأمين، ناسين أن الإيمان الصادقَ النابع من القلب، لا يغلبه غالب، وأن الحقَّ قد كتب له الفوز والنجاح.

٨٠ ــ الأمر الإلهي بالجهر والإعلان لدين الله تعالى

بعد بعث رسول الله ﷺ بالدين الحنيف، والدعوة إلى الله تبارك وتعالى سراً، ومضى على ذلك ثلاث سنوات، أمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ، أن يظهر ما خفي من أمره، وأن يصدع بما جاءه منه، ونزل الوحي بقول الله تعالى: ﴿وأنذرْ عشيرتك الأقربين، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين، فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون﴾(١). وأتاهُ من ربه جلَّ وعلا بقوله: ﴿فاصدَعْ بما تُؤمر وأعرضْ عن المشركين﴾(٢).

قام الرسول الكريم بأمر ربه، ودعا عشيرتَهُ إلى طعام في بيته، وحاول أن يحدّثهم داعياً إياهم إلى الله تعالى؛ فقطع عمُّه أبو لهب حديثه، واستنفر القومَ ليقوموا.

ودعاهم ﷺ في الغداة مرة أخرى، فحضروا فلما طعموا قال لهم: «ما أعلم إنساناً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، قد جئتكم

(١) من سورة الشعراء الآيات من (٢١٤-٢١٦).

(٢) من سورة الحجر آية (٩٤).

بخير الدنيا والآخرة؛ وقد أمرني ربي أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر؟». فأعرضوا عنه، وهمُّوا بتركه، لكنَّ علياً نهض، وهو لا يزل صبياً دون الحلم وقال: (أنا يا رسول الله عونُكَ، أنا حربٌ على من حاربتَ).

فابتسم بنو هاشم، وقهقه بعضُهم، وجعل نظرهم يتنقَّلُ من أبي طالبٍ إلى ابنه علي، ثم انصرفوا مستهزئين[1].

بعد هذه الدعوة الإطعامية، لعشيرته الأقربين، انتقل ﷺ إلى دعوة أهل مكة جهاراً؛ فصعد على جبل الصفا يوماً ونادى بصوته الجهوري: يا معشر قريش! قالت قريش: محمدٌ على الصفا يهتف، وأقبلوا عليه يسألون: ما له؟ قال رسول الله ﷺ: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل، أكنتم تصدقوني؟ قالوا: نعم، أنت عندنا غير مُتَّهم، وما جرَّبنا عليكَ كذباً قطُّ، قال: فإني نذيرٌ لكم بين يَدَيْ عذابٍ شديدٍ، يا بني عبد المطلب! يا بني عبد مناف! يا بني زهرة! يا بني تيم! يا بني مخزوم! يا بني أسد! إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، وإني لا أملكُ لكم من الدنيا منفعةً، ولا من الآخرة نصيباً، إلا أن تقولوا: لا آله إلا الله، أو كما قال».

فنهض أبو لهب وكان رجلاً بديناً سريع الغضب، فصاح: تَبّاً لك سائر هذا اليوم، ألهذا جمعتنا؟

وارتج على سيدنا محمدٍ ﷺ؛ فنظر إلى عمه، ثم ما لبث أن جاءه الوحيُ من ربه بقوله جلَّ شأنه: ﴿تَبَّتْ يدا أبي لهب وتبَّ، ما أغنى عنه ماله وما كسب، سيصلى ناراً ذات لهب..﴾[2].

لم يَحُلْ غضبُ أبي لهب، ولا خصومة غيره من قريش دون انتشار الدعوة الإسلامية بين أهل مكة، فلم يكن يوم إلا أسلم فيه بعضهم لله وجهه، وكان الزاهدون في الدنيا أشد على الإسلام إقبالاً، أولئك لا تلهيهم التجارة، ولا يلهيهم البيع عن التأمل فيما يدعوهم الداعي إليه، وهم قد رأوا محمداً الرسول،

---

(١) أنظر كتاب (حياة محمدٍ (ص)) ص ١٤٠.

(٢) من سورة المسد الآيات (١ و ٢ و ٣).

في غنى بمال السيدة خديجة رضي الله عنها، وفي ماله، وها هو ﷺ لا يعبأ بهذا المال والمزيد عليه والإكثار منه، بل هو يدعو إلى الحبّ والعطف والرحمة والمودة والتسامح والمساواة والعدالة. يدعو عليه الصلاة والسلام إلى الحرية العزيزة على نفس العربي، يدعو إلى عبادة الواحد الأحد، ونبذ عبادة اللات والعزّى وهبل ومناة وإساف ونائلة، تلك الأوثان الصماء التي لا تغني ولا تنفع ولا تضر.

٨١ ــ إيذاء المشركين
لأبي بكر الصديق رضي الله عنه

عبادة الأصنام مع أنها واضحة البطلان، فإن العرب كانوا متمسكين بها تمسكاً شديداً، لرسوخها في نفوسهم منذ زمنٍ طويل، فلا يطيقون سماع من يعيبها، أو يطعن فيها، بل لا يقبلون إرشاد ناصح يخاطبهم بالحسنى، و يناقشهم بالعقل والبرهان، أو على طريق علمي؛ فإذا قيل لهم: كيف تعبدون الحجارة الصماء البكماء، التي لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، ولا تعلم من يعبدها، ومن لا يعبدها؟ ثارَتْ ثائرتهم وقالوا: هذا ما وجدنا عليه آباءنا (١)، واعتدوا على أعزّ الناس لديهم، وأشرفهم وأعقلهم وأسهلهم أخلاقاً.

فلم يكن من الحكمة وأصالة الرأي أن يجهر النبيُّ ﷺ، وأصحابه القليلون بالإسلام، ويؤدُّوا شعائرهم الدينيَة أمام أمة بأسرها في بلدة واحدة هي مكة، وأهلها يومذاك متعصّبون لأصنامهم وأوثانهم تعصباً أعمى.

وقد أدرك بعض أفراد بعقلهم الثاقب، أن قومهم في خطأ مبين، فنهم من مات وهو منكر لعبادة الأصنام قبل الإسلام، ومنهم من آمن بالله، وصدَّق محمداً رسول الله عندما بلغه رسالته، كسلمان الفارسي ــ الذي شرحت سابقاً ــ قصة إسلامه، أو عندما دعاه رسول الله ﷺ إلى اتباع الدين القويم، كأبي بكر الصديق رضي الله عنه، ومن أسلم بدعائه، وغيرهم، ولم يبالوا بما يصيبهم من سخط قومهم، وإيذائهم مع ما يعلمونه من قلة عدد المؤمنين في بادىء الأمر، وقد قرأت يا أخي عنهم سابقاً.

---

(١) (آباءنا) في الأصل (أباءنا). المحقق.

أما ما وقع لأبي بكر رضي الله عنه من الأذية، فإنه كان كبيراً، وإليك يا أخي ما ذكره مؤلف إنسان العيون بقوله[1]: (إن رسول الله ﷺ، لما دخل دار الأرقم ليعبد الله تعالى هو ومن معه من أصحابه سراً؛ ألحَّ أبو بكر رضي الله عنه في الظهور[2] فقال له النبي ﷺ: يا أبا بكر! إنا قليل، فلم يزل به حتى خرج رسول الله ﷺ ومن معه من الصحابة رضي الله عنهم، وقام أبو بكر في الناس خطيباً، ورسول الله ﷺ جالسٌ، ودعا إلى رسول الله ﷺ؛ فهو أول خطيب دعا إلى الله تعالى. فثار المشركون على أبي بكر رضي الله عنه، وعلى المسلمين، يضربونهم. فضربوهم ضرباً شديداً، ووُطِيء أبو بكرٍ بالأرجل، وضُرب ضرباً شديداً، وصار عتبة بن ربيعة[3]، يضرب أبا بكرٍ بنعلين مخصوفتين، ويحرفهما إلى وجهه، حتى صار لا يعرف أنفه من وجهه، فجاءت بنو تيم يتعادون، فأجلتِ المشركينَ عن أبي بكرٍ، إلى أن أدخلوهُ منزله، ولا يشكُّونَ في موتهِ، ثم رجعوا فدخلوا المسجد، فقالوا: والله! لئن مات أبو بكر لنقتلنَّ عتبة؛ ثم رجعوا إلى أبي بكر، وصار والدهُ عثمان (أبو قحافة) وبنو تيم يكلمونه، فلا يجيبُ حتى آخر النهار؛ ثم تكلم وقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فعذلوه ــ لاموه ــ فصار يكرّر ذلك؛ فقالت أمه: والله! مالي علم بصاحبك محمد، فقال: اذهبي إلى أم جميلٍ فاسأليها عنه، فخرجَتْ إليها، وقالت لها أن تسأل عن محمد بن عبد الله فقالت: لا أعرف محمداً، ولا أبا بكر، ثم قالت: تريدين أن أخرج معكِ؟ قالت: نعم، فخرجت معها إلى أن جاءت أبا بكرٍ فوجدته صريعاً، فصاحت وقالت: إن قوماً نالوا هذا منكَ لأهل فسق، وإني لأرجو أن ينتقم الله منهم؛ فقال لها أبو بكر رضي الله عنه: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقالت له: هذه أمك تسمع، قال فلا عينَ عليكِ منها ــ أي أنها لا تفشي سركِ ــ قالت: سالمٌ هو في دار الأرقم، فقال: والله! لا أذوق طعاماً،

---

(١) في سيرة الأمين المأمون، في ج ١ ص ٤٧٥.

(٢) هذا دليل على أن أبا بكر لم يكن ضعيفاً، ودليل على قوة إيمانه بصدق رسالة النبي ﷺ.

(٣) عتبة بن ربيعة قتله حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه يوم وقعة بدرٍ كافراً.

ولا أشرب شراباً، أو آتي رسول الله ﷺ، قالت أمه: فأمهلناه حتى إذا هدأت الرِّجلُ، وسكن الناسُ، خرجنا به يتكىء عليَّ، حتى دخل على رسول الله ﷺ فرقَّ له رقةً شديدة، وأكبَّ عليه يقبّله، وأكبَّ عليه المسلمون كذلك؛ فقال أبو بكر: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! ما بي من بأس إلا ما نال الناس من وجهي، وهذه أمي برة بولدها فعسى الله أن يستنقذها بك من النار، فدعا لها رسول الله ﷺ، ودعاها إلى الإسلام، فأسلمَتْ.

لا شك أن المسلمين في ذلك الوقت كانوا في خطرٍ شديد، فقد كان لا يهدأ للمشركين بال، إلا إذا أساءوا إليهم، ولذلك كان الاستخفاء في غاية الحكمة، وبقي المسلمون مستخفين في دار الأرقم حتى كملوا أربعين رجلاً، وكان آخرهم إسلاماً عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ فلما كملوا به أربعين خرجوا وأظهروا إسلامهم.

تلك شجاعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقوة إيمانه، وصدق يقينه، لقد وقف أمام المشركين وجهاً لوجهٍ، ولم يبال بكثرتهم وعرَّض حياته للخطر، ليدعوهم إلى الحقّ، إلى عبادةِ اللهِ الواحدِ القهارِ، ونبذِ الشركِ، وخلع الوثنية، فأصيب بشر ما يصاب به إنسان وكاد يقضى عليه، فلما أفاق كان أول ما تلفظ به، السؤال عن رسول الله ﷺ؛ ولم ترتح نفسه، وتطمئن، حتى رآه بعينيه سالماً معافى؛ فأين هذا من الذين يخالفون عقائدهم، ويميلون مع الأهواء، وينضمون إلى من يأنسون فيه القوة، ويعينون على الباطل، لمتاعٍ مؤقتٍ، لا يلبث أن يزول؟

لو كان المسلمون في بادىء أمرهم متهاونين مذبذبين، لما ثبتَتْ دعائم الإسلام، وصار قويّ الأركان، متين البنيان؛ بل لقبر في مهده، لكنه ارتفع على كواهل رجال أقوياء صادقين، أدهشوا العالم بأعمالهم وجهادهم، حتى خضعت لهم أممُ الأرض، فبمثل عمل هؤلاء فليهتد المصلحون.

وأرى لزاماً عليَّ أن أذكر للسادة القراء كلمة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسبب إسلامه، وذهابه لدار الأرقم وإعلان إسلامه، لأن نفس القارىء تتوق لمعرفة ذلك فأقول:

٨٢ ــ ترجمة عمر بن الخطاب
رضي الله عنه وسبب إسلامه

هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، بن نفيل، عن عبد العزى، بن رياح[١] بن عبد الله بن قُرط، بن رزاح، بن عدي، بن كعب، بن لؤي بن غالب بن فهر العدوي القرشي. ويجتمع مع رسول الله ﷺ في كعب، فهو من أشراف مكة وعظماء قريش، وأمه: حنتمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن[٢] مخزوم، وهي أخت عمرو بن هشام (أبي جهل)، وبنت عم خالد بن الوليد.

ولد عمر في مكة، في السنة الثالثة عشرة من ميلاد رسول الله ﷺ، قبل حرب الفجار بأربع سنين، سنة (٥٨٤) م.

كنَّى رسولُ الله ﷺ عمر بن الخطاب (بأبي حفص) والحفص معناه (ولد الأسد)، وسماه أيضاً ﷺ (بالفاروق) يوم إسلامه في دار الأرقم، وبه تمَّ عددُ المسلمين يومها أربعين مسلماً[٣]، فخرجوا من الدار للحرم، وأظهروا الإسلام؛ ففرق الله تعالى بعمر بين الحقِّ والباطل.

كان عمر في صغره، يرعى الغنمَ لأبيه، فقد روى ابن عساكر في تاريخه عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أبيه قال: كنت مع عمر بن الخطاب بضيفان[٤]، فقال: كنتُ أرعَى للخطاب بهذا المكان؛ فكان فظّاً غليظاً، فكنت أرعى أحياناً، وأحتطِبُ أحياناً؛ فأصبحت أضرب الناس، ليس فوق أحدٍ[٥] إلا رب العالمين.

---

(١) في الأصل (رباح) بالباء والصواب بالياء. انظر أسد الغابة المجلد ٤ دار الشعب ص ١٤٥، والإصابة جـ ٤ المطبعة المشرفية ص ٢٧٩. المحقق.

(٢) في الأصل (من) بدل (بن). انظر المصدر السابق. المحقق.

(٣) أنظر كتاب الخلفاء الراشدون ج ٣ ص ٧٢.

(٤) اسم مكان حول مكة.

(٥) في العبارة خطأ والمصدر الذي أخذ منه المؤلف ليس تحت أيدينا. وصواب العبارة بالاجتهاد (ليس فوقي أحد إلا رب العالمين). المحقق.

ولما كبر عمر اشتغل بالتجارة، فكان يتاجر بماله أحياناً إلى بلاد الشام. وقد نشأ عمر على الشهامة والنجدة والحمية، وسداد الرأي، وكان مسموع الكلمة في قومه، وكان مشهوراً بالشدّة والبأس، عزيز الجانب، وله مكانة عظمى في قومه، مع أنه لم يكن ذا مالٍ وغنى؛ لكنه مثال أعلى، في الفصاحة والبلاغة.

هكذا كان عمر في جاهليته، وسنرى كيف كان حاله [1] في الإسلام، وإلى أي درجة بلغ به علوُّ الهمة، ومضاء العزيمة والرأي، والإخلاص في محبة الرسول الكريم، وخدمة الدين القويم.

كان المسلمون قبيل إسلام عمر، يجتمعون في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، وهي في أصل الصفا ــ كما ذكرتها سابقاً ــ مستخفين لقلّتهم وشدة قريش عليهم، وكانت الدعوة لدين الله في طور الإسرار، وكان المسلمون بحاجة إلى الاستكثار من ذوي العصبية والجرأة، وكان ممن عُرف من قريش بنفوذ الكلمة والبطش والشدة مع سموِّ المكانة: عمر بن الخطاب، وعمرو بن هشام الملقب بأبي جهل؛ وكان النبيُّ ﷺ يتوقّع خيراً للمسلمين بإسلام أحد هذين العمرين، لهذا قال ﷺ: اللهمَّ! أعز الإسلام بأحبّ الرجلين إليك: عمر بن الخطاب، أو عمرو بن هشام [2]، فاستجاب الله تعالى دعاء نبيه ﷺ بأحب الرجلين إليه فكان عمر بن الخطاب، فأسلم في ذي الحجة لمضي ست سنوات من البعثة المحمدية، بعد إسلام تسعة وثلاثين رجلاً، وثلاث وعشرين امرأة، وكان عمره حينذاك ستاً وعشرين [3] سنة.

أما سبب إسلامه، فقد جاءت فيه رواياتٌ كثيرةٌ، منها:

ما أخرجه الحافظ عز الدين الجزري في كتاب أسد الغابة، عن أسامة بن زيد أنه قال: قال لنا عمر بن الخطاب: أتحبُّون أن أعلمكم كيف كان بدء إسلامي؟ قلنا: نعم، قال: كنتُ من أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ، فبينا أنا

(١) في الأصل (كيف كان في حاله) وقد حذفنا كلمة (في) لتستقيم العبارة. المحقق.

(٢) أنظر كتاب الإصابة في تمييز الصحابة ج ٢ ص ٥١٨.

(٣) (ستا وعشرين) في الأصل (ست وعشرون). والصواب ما أثبتناه لأنه خبر كان. المحقق.

يوماً في يوم حارٍّ، في بعض طرق مكة؛ إذ لقيني رجلٌ من قريش، فقال: أين تذهب يا ابن الخطاب؟ أنت تزعم أنكَ هكذا، وقد دخل عليكَ هذا الأمر في بيتكَ، قال: قلتُ: وما ذاك؟ قال: أختُكَ قد صبأت. قال: فرجعتُ مغضباً؛ وقد كان رسول الله ﷺ يجمعُ الرجلَ والرجلين إذا أسلما، عند الرجل به قوة، فيكونانِ معه، ويصيبان من طعامه، وقد كان قد ضمَّ إلى زوج أختي رجلين، قال: فجئتُ حتى قرعتُ البابَ، فقيل: من هذا؟ قلت: ابن الخطاب، قال: وكان القومُ جلوساً، يقرأون القرآن في صحيفةٍ معهم، فلما سمعوا صوتي تبادروا واختفَوا، وتركوا أو نسوا الصحيفة من أيديهم، قال: فقامتْ أختي فاطمة بنت الخطاب[1] ففتحت لي، فقلتُ: يا عدوة نفسها! قد بلغني أنكِ صبأتِ؛ فرفعتُ شيئاً كان في يدي وضربتها به فسال الدم؛ فلما رأت المرأةُ الدمَ بكَتْ ثم قالت: يا ابن الخطاب! ما كنت فاعلاً فافعل، لقد أسلمتُ.

قال: فدخلتُ وأنامغضبٌ، وجلست على السرير، فنظرتُ، فإذا بكتاب في ناحية البيت، فقلتُ: ما هذا الكتاب؟ أعطينيه[2] وكان عمر كاتباً وقارئاً، الرحمن الرحيم. فلما مررتُ «بالرحمن الرحيم» ذعرتُ، ورميتُ بالصحيفة من يدي ثم رجعت إلى نفسي، فإذا فيها: ﴿سبَّح لله ما في السمواتِ والأرضِ وهو العزيزُ الحكيم﴾ إلى قوله تعالى ﴿وإن الله بكم[3] لرءوف رحيم﴾[4]، قال: فكلما مررتُ باسم من أسماء الله عز وجل ذُعرتُ، ثم تابعت القراءة؛ ﴿آمنوا بالله ورسوله، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾ حتى بلغتُ قوله تعالى: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ قال: فقلتُ: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول

---

(١) فاطمة بنت الخطاب أخت عمر، أسلمت قبله هي وزوجها سعيد بن زيد رضي الله عنهما، وقد شرحت سابقاً ترجمة حياته كاملة للسادة القراء ولا فائدة في ذكرها هنا مرة أخرى.

(٢) (أعطينيه). في الأصل (أعطنيه) والصواب ما أثبتناه لأن المخاطب مؤنث. المحقق.

(٣) لم يذكر المؤلف عبارة (إلى قوله تعالى «وإن الله بكم لرءوف رحيم») وقد أثبتناها لتنطبق على قول المؤلف في الهامش (والآيات من: ١-٩ في هذه الرواية). المحقق.

(٤) السورة سورة الحديد، والآيات من (١-٩) في هذه الرواية وفي غيرها سورة طه الشريفة كما هو مذكور في سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٦٧.

الله. فخرج القومُ يتبادرون بالتكبير، استبشاراً بما سمعوه مني، وحمدوا الله عز وجل، ثم قالوا: يا ابن الخطاب! أبشر، فإن رسول الله ﷺ دعا يوم الأثنين، فقال: اللهم! أعزَّ الإسلام بأحبِّ الرجلين: «إما عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام».

وإنا لنرجو أن تكون دعوة رسول الله لكَ،فأبشر. قال: فلما عرفوا مني الصدق، وقلتُ لهم: أخبروني بمكان رسول الله، فقالوا: هو في بيتٍ في أسفل الصفا، قال: فخرجتُ حتى قرعتُ الباب، قيل: من هذا؟ قلت: عمر بن الخطاب.

قال: وقد عرفوا شدتي على رسول الله ﷺ، ولم يعلموا بإسلامي، قال: فما اجترأ أحدٌ منهم أن يفتح الباب، فقال رسول الله ﷺ: افتحوا له، فإنه إن يرد الله بن خيراً يهدِهِ، ففتحوا لي، وأخذ رجلانِ بعضدي، حتى دنوتُ من رسول الله فقال: أرسلوه، فأرسلوني، فجلست بين يديه فأخذ بمجمع قميصي، فجذبني إليه، ثم قال: أسلم يا ابن الخطاب، اللهمَّ اهدِهِ، قال: قلتُ: أشهدُ أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فكبَّر المسلمون تكبيرة، سُمعت بطريق مكة.

وخلَّد شاعرُ النيل حافظ إبراهيم ذكرَى إسلام عمر فقال يخاطبه:

رأيت في الدين آراءً موفَّقةً ... فأنزل الله قرآناً يُزكيها
وكنتَ أوّلَ من قرَّتْ بصحبتهِ ... عينُ الحنيفةِ واجتازت أمانيها
قد كنتَ أعدى أعاديها فصرتَ لَها ... بنعمة الله حصناً من أعاديها
خرجتَ تبغي أذاها في محمدها ... وللحنيفة جبَّارٌ يُواليها
فلم تكدْ تسمعُ الآياتِ بالغةً ... حتى انكفأتَ تُناوِي مَنْ يُناويها
سمعتَ سورة طهَ [1] من مرتّلها ... فَزُلزلَتْ نِيَّةٌ قد كنتَ تنويها
وقلتَ فيها مقالاً لا يطاوله ... قَولُ المحبِّ الذي قد بات يطريها

(١) هذا ما ذهب إليه شاعر النيل من أخذٍ بالرواية الثانية :أن الصحيفة مكتوب فيها أوائل سورة طه وقد اشرْتُ إلى ذلك سابقاً.

و يومَ أسلمتَ عزَّ الحقُّ وارتفَعتْ عن كاهل الدينِ أثقالٌ يعانيها
وصاح فيه بلالٌ صيحةً خَشَعَتْ لها القلوبُ ولبَّتْ أمرَ باريها
فأنتَ في زمنِ المختار منجدها وأنت في زمن الصّديق منجيها
كم استراك[1] رَسُولُ الله مغتبطاً بحكمةٍ لك عند الرأي يُلْفِيها[2]

صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال لما أسلم عمر: «نزل جبريلُ عليه السلام وقال: يا محمد! قد استبشر أهل السماء بإسلام عمر». وإن المشركين قالوا: قد انتصف القومُ اليومَ منّا.

وأنزل الله تعالى على النبي ﷺ قوله: ﴿يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾[3].

و يوم أن هاجر عمر، جاء إلى الكعبة، وحولها صناديدمكة،فدخلها وطاف حولها، وصلى ركعتين وقريش مجتمعة، ثم خرج عليهم صائحاً: (إني مهاجر، فمن أراد منكم أن تثكله أمه، و يتيتَّم ولده، وتترمَّل إمرأته، فَليلقني وراء هذا الوادي؛ ثم تركهم وذهب، فلم يجسر أحدٌ أن يلقاه.

كان عمر رضي الله عنه من أشد المسلمين إخلاصاً للرسول ﷺ، وأحرصهم على نشر الإسلام؛ لازم النبيَّ ﷺ في جميع غزواته ومشاهده كلها، من بدر إلى تبوك[4]، وله فيها مواقف مشهورة مشهودة، وكان من أقوى الناس جهاداً في سبيل الله، وصبراً على المشاقّ، شديد الحرص على جماعة المسلمين، مع حرصه الشديد على حماية الدين، وحقوق الخلافة، ويوم إسلامه في[5] دار الأرقم، قال لرسول الله ﷺ: ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ قال النبي ﷺ: بلى والذي نفسي بيده! إنكم على الحق إن متُّم وإن حييتُم، قال عمر: ففيم الاختفاء يا رسول الله؟ والذي بعثك بالحق لنخرجَنَّ، فخرج رسول الله ﷺ في

---

(١) استراك: أي طلب رأيك.
(٢) يلفيها: أي يجدها.
(٣) سورة الأنفال آية (٦٤).
(٤) أنظر كتاب إتمام الوفا في سيرة الخلفا ص ٥٣ للخضري.
(٥) في الأصل (ويوم إسلامه كان في دار الأرقم). وقد حذفنا كلمة (كان). المحقق.

صفّين (حمزة) في أحدهما، (وعمر) في الآخر، ولهم كديدٌ ــ أي صوت كصوت الحوافر في الأرض الصلبة ــ وسيَّرهم كجندٍ منظّم، حتى دخلوا المسجدَ فإذا بقريشٍ، وقد أصابهم همٌّ واكتئاب، ما أصيبوا بمثلها[1]، قال عمر: فسماني رسول الله ﷺ: (الفاروق) يومئذٍ[2].

لا شكَّ أن عمر قد أسلم عند قراءته للقرآن، وتأمله في بلاغته ومعناه؛ مع أنه كان قبل إسلامه، يعذّب جارية بني مؤمل لإسلامها أشدَّ العذاب، بلا رحمة ولا شفقة، ولا يتركها إلا إذا ملَّ وكلَّ من ضربها؛ وهذا يدلُّ على أنه كان شديد البغض للإسلام، شديد التعصب لدينه الجاهلي القديم؛ وقد تعدى على أخته فاطمة بنت الخطاب، زوجة[3] سعيد بن زيد، وشجها في رأسها ــ كما مر سابقاً ــ ولم يكن أحد أن[4] يتصور أن صاحب هذا الخلق الشديد الحانق على الإسلام والمسلمين، يسلم بمجرد سماع آي الذكر الحكيم. نعم لم يكن أحدٌ يتصور ذلك، لكن هداية الله التي سبقت لعمر وكلام الله الذي تلاه، كان له في قلب عمر تأثير عجيب، ولا بدَّ أن سامع القرآن يرقُّ قلبه مهما كان قاسياً، لذا لم يسم عمر بن الخطاب، إلا الاعتراف، بأنَّ ما سمعه هو كلام الله، وليس في استطاعة البشر الإتيان بمثله، ﴿ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾. فصدَّقَ عمر بما جاء به سيدنا محمد

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه، معروف عند الكتاب وأهل السير والتاريخ وعلماء الدين، فالكلام عليه يطول، وقد شرحت لإخواني لمحة عن إسلامه وتاريخه، للاعتبار والاطلاع ويكفيه قولُ عبد الله بن مسعود فيه: (إن إسلام عمر كان فتحاً، وإنّ هجرته كانت نصراً، وإنّ إمارته كانت رحمة، وما زلنا أعزّة منذ أسلم عمر). والله في التوفيق.

---

(١) لو قال (بمثلها) أو (بمثله) لكان أفضل. المحقق.

(٢) أنظر كتاب الفتوحات الوهبية ص ٣٩ وسيرة الخلفاء ج ٣ ص ٨٠.

(٣) الأفضل (زوج) لا (زوجة). المحقق.

(٤) صواب العبارة (ولم يكن أحد يتصور) بدون كلمة (أن). المحقق.

وقد روى عن رسول الله ﷺ (٥٣٧) حديثاً، ضميمة[١] حفظه لكتاب الله تعالى، وهو الخليفة الثاني وأمير المؤمنين، قتله أبو لؤلؤة المجوسي وهو قائم في المحراب يصلي، بمؤامرة يهودية فارسية، عن عمر (٦٣) سنة ودفن بالحجرة الشريفة، مع صاحبيه (الرسول وأبي بكر) ولولا الملل لذكرت أكثر من ذلك عن هذا الخليفة التقي الورع الزاهد الأبي، ميزان العدل والمساواة.

رضي الله عنه[٢] وأرضاه، وجعل الجنة مثواه ومأواه، اللهم آمين.

٨٣ ــ ترجمة حمزة بن عبد المطلب

عم رسول الله ﷺ

هو أسدٌ من أسود الله ورسوله، وسيد من سادات المسلمين، ورث السؤدد عن آبائه، واكتسب الفضل بصادق جهاده، وانحدرت إليه الشجاعةُ العربيةُ في أصلاب أجداده؛ فكان الشهم الأبي، والفارس المعلم، والبطل المغوار، وحامي الذمار؛ ذلكم هو سيد الشهداء، أبو عمارة حمزة بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف... فهو أحد فروع الدوحة الهاشمية الباسقة، وعم رسول الله ﷺ وأخوه من الرضاعة؛ إذ أرضعتهما ثويبة، جارية أبي لهب وكان أسنَّ من رسول الله ﷺ بسنتين على الأصح، وأمه: السيدة هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة، فهي ابنة عم السيدة الفاضلة آمنة بنت وهب والدة النبي ﷺ، فهو كريم الأبوين، طاهر المعدنين، وما بالكَ بشخص يجتمع برسول لله ﷺ في جدِّهِ لأبيه، وجده لأمه؛ وقد جمع إلى شرف النسب، شرفَ الإسلام، والجهاد في سبيله، لا شكَّ أنه من خيار الناس في جاهليته وإسلامه، وأسلم في السنة الثانية من مبعثه ﷺ؛ ولما أسلم فرح بإسلامه رسول الله ﷺ فرحاً شديداً، لأنه كان أعزَّ فتًى في قريش، وأشدهم شكيمةً، وسبب إسلامه: هو أن أبا جهلٍ عدو الله ورسوله، مرَّ بالنبي ﷺ عند الصفا، فآذاه وسبَّهُ[٣] ونال منه، ورسول

(١) لم أفهم معنى هذه الكلمة ولعل صوابها (ضمنه). المحقق.

(٢) لم يذكر المؤلف كلمة (عنه). المحقق.

(٣) في الأصل (وسبه وآذاه) فحذفنا كلمة (وآذاه) منعاً للتكرار. المحقق.

الله ﷻ يقابل سفهه بالصفح، وجهله بالحلم؛ وكان هذا المشهد على مرأى ومسمع من مولاةٍ لعبد الله بن جدعان في سكن لها؛ ثم انصرف أبو جهل إلى نادي قريش بجوار الكعبة، فجلس مع قرنائه القرشيين؛ وكان حمزة رضي الله عنه، من هواة الصيد والقنص، وكان إذا رجع من قنصه، لا يذهب إلى بيته، حتى يطوف بالبيت الحرام، وفي روحةٍ من روحاته، مرَّ على الصفا، متوشحاً سيفه، متنكّباً قوسه؛ فقالت له هذه المولاة يا أبا الوليد! ــ كنيته. وكذا كنتيه أبو عمارة وأبو يعلى والأكثر أبو عمارة ــ: لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفاً من أبي الحكم بن هشام ــ تعني أبا جهلٍ ــ وجده هنا جالساً وآذاه وسَبَّهُ ونال منه ما يكرهُه، ثم انصرف عنه، ولم يكلمه محمد، وآنئذٍ تحركت عاطفة الرحم في نفس حمزة، وأخذته الشفقة على ابن أخيه محمدٍ وهو من بني هاشم كما تعلم، وأدركته لحظةٌ من لحظات التجلي الإلهي فذهب والدمُ يغلي في عروقه من شدة الغضب، ولم يلو على شيء، حتى دخل المسجد، فرأى أبا جهلٍ جالساً في القوم، فقام على رأسه، ورفع القوس وضربه، فشجَّهُ شجةً منكرة، ثم قال له: أتشتمهُ وأنا على دينه، أقول ما يقول؟ فردَّ عليَّ[1] ذلك إن استطعت، وقام رجالٌ من بني مخزوم عشيرة أبي جهلٍ لينصروه، فقالوا لحمزة: ما نراك إلا قد صبأت ــ أي دخلت في دين محمدٍ ــ فقال حمزة: وما يمنعني وقد استبان لي منه أنه رسول الله، والذي يقوله حقّ؟ والله! لا أفزع، فامنعوني إن كنتم صادقين، فقال لهم أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإني والله قد أسمعتُ ابنَ أخيه شيئاً.

انتهت هذه الملاحاة إلى هذا الحدّ؛ ولكن أمراً ذا بالٍ أهمَّ حمزةَ وأوقعه في حيرةٍ من أمره، حتى استبان له الحق؛ ذلك أنه لما رجعٍ إلى بيته، تسوَّر عليه الشيطانُ، وصار يلقي إليه بالوساوس و يقول له: أنت سيد قريش، اتبعت هذا الصابىء، وتركتَ دينَ آبائك، الموتُ خيرٌ لكَ مما صنعتَ، و بات بليلةٍ لم يبتْ بمثلها قط، من وسوسة الشيطان وتلبيساته، فلم يجد مفرّاً من أن يلجأ إلى الله

---

(١) في الأصل (فردّ على) والصواب ما أثبتناه. المحقق.

فقال: (اللهم! إن كان رشداً فاجعل تصديقه في قلبي، وإلا فاجعل لي مما وقعت فيه مخرجاً).

ولما أصبح، غدا إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي! إني وقعتُ في أمرٍ لا أعرف المخرج منه، وإقامة مثلي على ما لا أدري أشدّ، ولا أدري، أرشد هو أم غيّ شديد؟

فأقبل عليه البشيرُ النذير عليه الصلاة والسلام فذكّره ووعظه وخوّفه وبشّره، فألقى الله تعالى في قلبه الإيمان، بما سمعه من رسول الله ﷺ، وشرح صدره لذلك، فلم يلبث أن قال: (أشهد أنك صادق، فأظْهر يا ابن أخي دينك).

وقد ازداد رسول الله ﷺ بإسلام عمه، عزّة ومنعةً بين قريش، وخفَّتْ حِدَّة إيذاء المشركين له؛ وأمكنَ لصبح الدعوة الإسلامية أن يتنفس بعد ليلٍ طويل دامسٍ، ولقد أكل كبد المشركين، أن يروا المسلمين يخرجون إلى الكعبة، وفي مقدمتهم السيدان الكريمان عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنهما ليعلنوها حرباً شعواء على الشرك وأهله، و يدعوا إلى عبادة الله وحده، لا هبل ولا عزّى، بل توحيد لله الواحد الأحد، ونشر نور الهداية والتوحيد، والعرفان.

كانت حياة أسد الله، حمزة بن عبد المطلب، حياة الكفاح والجهاد، فمن يوم أن أسلم بذلَ نفسه وماله في سبيل الله، ونشر الدعوة الإسلامية، وما أن بدئت السرايا حتى عقد له رسول الله ﷺ اللواء، ويقال: إنه أول لواء عقد في الإسلام، وأرسله على رأس سرية ليقطع على أبي جهل وعيرهِ الأ بواء كان يحمل لواء رسول الله ﷺ ورايته البيضاء: حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، ولا تسل عما كان من أسد الله في غزوة بدر الكبرى، إخوة من الأنصار، فقال عتبةُ: نريد أبناء عمومتنا؛ فندب لهم رسول الله ﷺ: عبيدة بن الحارث، وحمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وثلاثتهم من بني هاشم، ولم يلبث حمزة وعلي أن أجهزا على صاحبيهما، وأعانا عبيدة بن الحارث على صاحبه، وحُمل عبيدة إلى رسول الله ﷺ تشخب ساقُه

دماً، فوسدهُ رسول الله ﷺ ساقه، وبشَّرهُ بالجنة؛ ولما التحم الجمعان: جمع المسلمين، وجمع المشركين، أبلى السيد حمزة في هذا اليوم بلاءاً مشهوداً، وأظهر من نفسه شجاعةً منقطعة النظير، وسيأتي ذكرها بعد في الغزوات. وفي غزوة أحدٍ التي ابتليَ فيها المسلمون، قاتل حمزة فيها قتال الأبطال، وما قرب منه أحدٌ من الأعداء إلا قصمه بسيفه البتّار، ورويَ أنه كان يقاتل يوم أحدٍ بسيفين، وبينما هو يجول ويصول في المعركة إذ استمكن منه (وحشي غلام جبير بن مطعم)، فرماه بحربته[1] التي لا تخطىء الهدف، فخرَّ شهيداً بعد أن رضي الله عنه ورسوله.

قال وحشي وقد سئل عن مقتل سيد الشهداء حمزة، قال: سأحدثكم ما حدثت به رسول الله ﷺ حين سألني عن ذلك: كنتُ غلام جبير بن مطعم، وكان عمه طعيمة بن عدي قد أصيب يوم بدر، فلما سارت قريش إلى أحدٍ قال لي جبير: إن قتلتَ حمزة عم محمدٍ بعمي، فأنت عتيق؛ قال: فخرجتُ مع الناس، وكنتُ رجلاً حبشياً، أقذف بالحربة قذف الحبشة، وقلما أخطىء بها شيئاً؛ فلما التقى الناسُ خرجتُ أنظر حمزة وأتبصره، حتى رأيتهُ في عرض الناس كأنه الجمل الأورق، يهدُّ الناس بسيفه هداً، ما يقوم له شيء، ثم قال: فهززت حربتي حتى إذا رضيتُ عنها رفعتها عليه، فوقعت في ثنته حتى خرجت من بين رجليه، فذهب ليقدم نحوي فغُلب، وتركته وإياها حتى مات، فأخذتُ حربتي ثم رجعتُ إلى مكة فعتقتُ؛ ومكث وحشي بمكة حتى فتحت على المسلمين، فهرب إلى الطائف، فلما خرج وفدُ الطائف إلى رسول الله ﷺ ليسلموا، عَيَّتْ عليه المذاهب، وسُدَّت في وجهه الطرق، حتى همَّ أن يذهب إلى الشام أو اليمن، وبينما هو في همٍّ، قيّضَ الله له رجلاً فقال له: ويحك، والله! إن محمداً لا يقتلُ أحداً من الناس دخل دينه وشهد شهادة الحق، فخرج حتى أتى المدينة، فوقف على مجلس رسول الله ﷺ وشهد شهادة الإسلام، فلما رآه رسول الله قال: أوحشيٌّ أنت؟ قال: نعم يا رسول الله! قال: فحدثني كيف قتلتَ حمزة؟ فحدثته، فلم يتمالك رسول الله ﷺ نفسه أن

(١) في الأصل (بحرمته) بالميم. والصواب ما أثبتناه. المحقق.

قال: ويحك، غيّب عني وجهك فلا أرينك، فكان وحشي يحرص على أن لا يري رسول الله ﷺ وجهه؛ ورسولُ الله بشر، وإنسان كامل الإنسانية، ثم هو رقيق القلب، بالمؤمنين رؤوف رحيم، فلا عجب أن طلب من وحشي أن لا يراه.

وقد كفّر وحشي بقتله[1] حمزة، فقد قتل مسيلمة الكذاب، عدو الله ورسوله. وكان عمر حمزة يوم استشهاده خمساً وخمسين سنة، وقد وقف النبي ﷺ يوم دفنه قرب أحدٍ ــ وهو معروف حتى اليوم ويزار هناك ــ وقال فيه حبيب الله ومصطفاه: لن أصاب بمثلك يا عماه أبداً، رحم الله عمي حمزة: لقد كان وصولاً للرحم، فعولاً للخيرات.

هذا هو أسد الله وأسد رسوله، وهذه كلمات في سيد الشهداء، فقد كان مثال الصدق والإيمان، والطهر والوفاء، والشجاعة والإخاء، بذل نفسه وماله في سبيل العقيدة، والثبات في مواطن الموت، والصدق عند لقاء الأعداء، فهو نبراس في قول الحق، رضي الله عن حمزة وأرضاه، وجعل الجنة مثواه ومأواه، اللهم آمين.

٨٤ ــ زعماء قريش وقادتها
يطالبون محمداً ﷺ بالمعجزات

ذاع نبأ محمدٍ وجماعته، وخروجهم لبيت الله، صفّين نظاميين، وفي طليعتها حمزة بن عبد المطلب، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما؛ وقائد الجميع محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام.

نهض حيال أمر محمدٍ ﷺ أشرافُ قريش وأمجادها، وهم أرباب المال، وأصحاب اللهو، وبدءوا يشعرون بما في دعوة محمدٍ من خطر على مكانتهم وزعامتهم، فرأوا باديء الرأي أن يحاربوه، بالحطّ من شأنه، وبتكذيبه فيما يزعم من نبوّتِهِ؛ وكان أول ما صنعوا من هذا أن أغروا به شعراءهم كابن

(١) لو قال (عن قتله) لكان أوجه. المحقق.

الزّبعرى وغيره، يهجونه و يصارعونه؛ وتولّت طائفة من شعراء المسلمين الردَّ على هؤلاء الشعراء النفعيين المأجورين، من غير أن يكون محمدٌ في حاجةٍ إلى مناقشتهم.

هناك تقدّم جماعة من المشركين، يسألون محمداً عن معجزاتهِ التي يُثبتُ بها رسالتَهُ ودعوتَهُ التي يقوم بها، معجزات كمعجزات سيدنا موسى وعيسَى وكأنهم يتصوَّرُون و يقولون فيما يتخيلون، فما بالُ محمدٍ لا يحيلُ لنا الصفا والمروة ذهباً؟ ولا ينزل عليه الكتاب الذي يتحدَّث عنه (القرآن) مخطوطاً من السماء؟ ولمَ لا يبثُوا لهم جبريلُ الذي يطول حديث محمدٍ عنه؟ ولمَ لا يحيي الموتَى؟ ولا يُسَيِّر الجبال، حتى لا تظلَّ [1] مكة حبيسة بينها؟ ولمَ لا يفجرُ ينبوعاً، أعذبَ من زمزم ماءً وهو أعلم بحاجة أهل بلده مكة إلى الماء؟.

ولم يقف أمر المشركين عند التهكّم بالمسألة في هذه المعجزات، بل كانوا يزدادون تهكماً و يسألونه: لِمَ لا يوحي إليه ربُّه أثمانَ السِّلَع حتى يضاربوا على المستقبل، وطال بهم اللّجاج، فردَّ الوحي الالهي لجاجهم بما أنزل على سيدنا محمدٍ ﷺ من قوله جل شأنه: ﴿قُلْ لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضَرّاً إلا ما شاء الله، ولو كنتُ أعلمُ الغَيب لاستكثرتُ من الخير، وما مَسَّني السوء، إن أنا إلا نذيرٌ وبشيرٌ لقوم يؤمنون﴾ [2].

نعم، ما سيدنا محمد ﷺ إلا بشير ونذير، فكيف يطالبونه بما لا يقبله العقلُ، لان ذلك من خصوصيات الله تبارك وتعالى، وهو لا يطلب منهم إلا ما يقبله العقل، بل ما يُمليه الضميرُ، ويحتّمه العقلُ؟ وكيف يطلبون إليه ما تأنف منه النفسُ الفاضلةُ، وهو لا يطالبهم إلا أن يستجيبوا لوحي النفس الفاضلة والضمير الحي؟ وكيف يطلبون إليه المعجزات، وهذا الكتاب الذي يوحى إليه، وهو الكتاب الذي يهدي إلى الحق وإلى صراطٍ مستقيم، هو معجزة المعجزات؟!

---

(١) في الأصل (تظلُ) بالضم. والصواب النصب بحتى. المحقق.

(٢) من سورة الأعراف آية (١٨٨).

٨٥ ـ القرآن هو معجزة المعجزات

يحير ألباب العرب ويتحدّاهم

القرآن الكريم، آية الله الكبرى، ومعجزته العظمى، حيَّرتْ ألبابَ العرب ببلاغة القرآن، وحسن بيانه، وغزارة معانيه؛ وقد نزل القرآن بلغتهم، وهم أهل الفصاحة والبيان، والبلاغة والعرفان، لأن القرآن كتاب ﴿لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم حميد﴾ [١]، هو كتاب لا كالكتب، هو آية لا كالآيات، هو معجزة لا كالمعجزات، هو نور لا كالأنوار، هو سرٌّ لا الأعلى إلى هذه الأرض، ولا لمحمدٍ ﷺ رسول الله، وخاتم النبيين، منه إلا تبليغه للناس بلفظه الذي تلقّاهُ عن الروح الأمين، ثم بيانه لهم بالقول والعمل، ليهتدوا به، فهو معجزٌ للخلق بلفظه ومعناه، ولفظه [٢] وأسلوبه، وهدايته وتأثيره وعلومه. لم يكن في استطاعة سيدنا محمدٍ ﷺ أن يأتي بسورة من سوره، بكسبه ولا مواهبه، من علومه ومعارفه وفصاحته وبلاغته؛ وهو ﷺ لم يكن عالماً ولا تبليغاً ممتازاً إلا به.

وهو ﷺ سيد الفصحاء والبلغاء [٣].

عجباً لهؤلاء المشركين، يطلبون من المختار معجزة، والقرآن هو معجزة المعجزات وإلى هذا أشار صاحب الهمزة [٤] بقوله:

عجباً للكفّار زادُوا ضلالاً ... بالذي فيه للعقول اهتداءُ
والذي يسألون منه كتابٌ ... منزلٌ قد أتاهم وارتقاءُ
أو لم يكفهم من الله ذكرٌ ... فيه للناس رحمةٌ وشفاءُ
أعجزَ الإنسَ آيةٌ منه والجنّ ... فهلاً يأتي به البلغاءُ
كل يوم يهدي إلى سامعيهِ ... معجزاتٍ من لفظه القراءُ

---

(١) الآية رقم (٤٢) من سورة فصلت. المحقق.

(٢) لقد كرر المؤلف كلمة (لفظه) وكان الأفضل ألا يفعل. المحقق.

(٣) أنظر الوحي المحمدي ص ١١٩ للعلامة محمد رشيد رضا رحمه الله تعالى.

(٤) الصواب (الهزيمة). المحقق.

تتحلّى به المسامعُ والأفوا ... هُ فهو الحلى والحلسواءُ
رقَّ لفظاً وراقَ معنىً فجاءتْ ... في حلاها وحليها الخنساءُ
وأرتنا فيه غوامضَ فضلٍ ... رقّةٌ من زلالهِ وصفاءُ
إنما تجتلي الوجوهُ إذا ما ... جليت عن مرآتها الأصداءُ
سورٌ منه أشبهتْ صوراً منا ... ومثل النظائر النظراءُ
والأقاويل عندهم كالتماثيل ... فلا يوهمنَّكَ الخطباءُ
كم أباتَتْ آياتُهُ عن علومٍ ... من حروفٍ أبان عنها الهجاءُ
فهي كالحبِّ والنوى أعجبَ الزّرا ... عَ منها سنابلٌ وزكاءُ
فأطالوا فيه التردّدَ والريبَ ... فقالوا سحرٌ وقالوا افتراءُ
وإذا البينات لم تُغن شيئاً ... فالتماس الهدى بهنّ عناء
وإذا ضلّت العقولُ على علمٍ ... فاذا تقولهُ الفضحاءُ

لذا خشيت قريشٌ أن ينتشر الإسلام، وينتصر النبيُّ محمد ﷺ بدينه وقرآنه، من امتداد في العشائر والقبائل، نعم خشيت قريش من هذا الانتصار، على اللات والعزى وإساف ونائلة وهبل وعبادة الأصنام.

فاتفقوا على أن يطلقوا اسماً على رسول الله ﷺ، ينفّر القبائل منه، ويشوّه سمعته، و يكون عقبة في سبيل نشر دعوته؛ فاجتمعوا بالوليد بن المغيرة، وكان ذا سنٍّ فيهم، وقد حضر الموسمُ، فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر الموسمُ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم ــ محمد ــ هذا فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويردّ قولكم بعضهُ بعضاً، فقالوا: فأنت يا أبا عبد[1] شمس فقل، وأقم لنا رأياً نقول به، قال: بل أنتم قولوا أسمع، قالوا: نقول كاهن[2]، قال: والله! ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهّان، فما هو بزمزمة الكاهن، ولا سجعه[3]، قالوا: فنقول: مجنون، قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا

(١) (عبد شمس). في الأصل (شمس) بدون كلمة (عبد). المحقق.
(٢) في الأصل (كاهناً) بالنصب. والصواب رفعه. المحقق.
(٣) الزمزمة: كلام خفي لا يفهم، والسجع أن يكون الكلام المنثور له نهايات كنهايات الشعر.

تخالطه، ولا وسوسته[1]، قالوا: فنقول شاعر، قال: ما هو بشاعرٍ، لقد عرفنا الشعر كله، رَجَزَهُ وهزجه، وقريضه ومقبوضه ومبسوطه[2]، فما هو بالشعر، قالوا: فنقول: ساحر، قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السُّحار[3] وسحرهم، فما هو بنفثه، ولا عقده[4]، قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله! إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لَعَذْق[5] وإن فرعه لجناة؟[6]، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرِفَ أنه باطل، وإن أقرب القول، لأن تقولوا ساحر، جاء بقول هو سحر، يفرّق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه[7]، وبين المرء وعشيرته؛ فتفرّقوا عنه بذلك[8]. فجعلوا يجلسون بطرق الناس، حين قدموا الموسم؛ لا يمر أحد إلا حذّروهُ إياه؛ لكنّ النتيجة جاءت عكس ذلك، فقد انتشر ذكره ﷺ في بلاد العرب، بواسطة الوفود التي أمَّتْ مكة.

وقد كان ضماد بن ثعلبة الأزدي صديقاً للنبي ﷺ في الجاهلية، وكان رجلاً يطبب الناس ويرقي، ويطلب العلم، فسمع سفهاء من فأرقيكَ؟ فأجابه رسول الله ﷺ بقوله: «الحمد لله نحمده، ونستعينه، مَنْ يهدِهِ الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلّه إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، أما بعد»؛ فقال ضمادُ له: أعدْ عليَّ كلماتك هؤلاء، فأعادهنَّ النبيُّ ﷺ ثلاثاً، فقال: والله! لقد سمعتُ قولَ الكهنةِ،

---

(١) يريد الاختناق الذي يصيب المجنون، والتخالج اختلاج الأعضاء وتحركها عن غير إرادة، والوسوسة ما يلقيه الشيطان في نفس الإنسان.

(٢) هذه كلها أنواع من الشعر.

(٣) في الأصل (السَّحار) بفتح السين المشددة. والصواب ضمها جمع (ساحر). المحقق.

(٤) إشارة إلى ما كان يفعل الساحر، من أن يعقد خيطاً ثم ينفث عليه، ومنه قوله تعالى: (ومن شر النفاثات في العقد) يعني الساحرات.

(٥) الغدق: الكثير الشعب والأطراف في الأرض.

(٦) أي فيه ثمر يجنى.

(٧) في الأصل (وزوجته). والصواب ما أثبتناه. المحقق.

(٨) أنظر كتاب (محمد رسول الله (ص)) ص ١٠٣.

وسمعت قول السحرة، وسمعتُ ناعوس البحر[1]، فمدَّ يَدَكَ أبايعكَ على الإسلام، فمدَّ النبيُّ ﷺ يَدَهُ فبايعه وأسلم[2].

٨٦ ــ طعن سيدنا محمد ﷺ على الأصنام

بدا لقريش آراء كثيرة في النيل من محمدٍ، ومن دينه الجديد، خوفاً من أن ينتصر عليهم، و يزيل عبادة اللات والعزى، وحفاظاً على مركزهم الشخصي وزعامتهم، فتفننوا في إلحاق الأذى بمحمد وجماعته ودعوته.

وبدأ سيدنا محمد ﷺ يذكر آلهة قريش ويعيبها، كما يعيب على عابديها، ويسمهم[3] بسخافة العقول، لعكوفهم على آلهة لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عن الحق شيئاً، وكان من قبل لا يذكرها ولا يذكرهم، ولكن هم بدأوا بالكلام عليه، بدأ[4] هو بدوره يشرح الحق بمنطق سليم وعقيدة صحيحة، فثارت ثائرتهم، وبدأ الصدام، وأشتدّ العراك والكلام بين محمد ﷺ والمشركين وصار الأمر جدّ عسير.

ولم يكن عم محمدٍ ﷺ، أبو طالب قد دخل في دين الله[5]، لكنه ظلَّ حامياً لابن أخيه قائماً دونه، معلناً استعداده للدفاع عنه.

٨٧ ــ قريش تفاوض أبا طالب في أمر محمد ﷺ

لما رأت قريش ان أبا طالب قد قام دون النبي ﷺ مدافعاً عنه، ومعلناً استعداده للدفاع عن محمدٍ، ولم يسلمه لهم؛ مشى رجال من

---

(١) هكذا جاء في رواية مسلم، وفي غيره: قاموس البحر وهو الصحيح، وقاموس البحر: وسطه ولجته، والمعنى: بلغت غاية الغايات.

(٢) عن المصدر السابق ص ١٠٣.

(٣) (يسمهم) أي: يصفهم. المحقق.

(٤) لو قال (فبدأ) لكان أوجه. المحقق.

(٥) هذه العبارة تشعر بأن أبا طالب قد دخل بعد ذلك في دين الله. ولكن ذلك لم يحدث. فلو قال (ولم يدخل) بدل (ولم يكن الخ) لكان أصوب. المحقق.

أشرافهم وقادتهم إلى أبي طالب: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو البَخْتَري بن هشام، والأسود بن المطلب، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، والعاص بن وائل، ونبيه ومنبّه ابنا الحجاج، وغيرهم، فقالوا يا أبا طالب! إنّ ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا، وضلّل آباءنا، فإما أن تكفَّهُ عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فقال لهم أبو طالب: قولاً جميلاً، وردَّهم ردّاً رقيقاً، فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله ﷺ لما هو عليه.

هذه هي المفاوضة الأولى، لكنها لم تثمر شيئاً، إذ ظل الرسولُ ﷺ يدعو إلى عبادة الله تعالى كما كان[1].

٨٨ ــ المفاوضات الثانية بين قريش وأبي طالب

ثم لما تباعد الرجال وتضاغنوا، وأكثرتْ قريش ذكر رسول الله ﷺ، فكّروا في مفاوضة أبي طالب مرة أخرى، فمشوا إليه، وقالوا: يا أبا طالب! إن لك سنّاً وشرفاً، وإنا قد اشتهيناك[2] أن تنهى ابن أخيك محمداً فلم تفعل، وإنا والله! لا نصبرُ على هذا من شتم آلهتنا وآبائنا، وتسفيه أحلامنا حتى تكفَّه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحدُ الطرفين، ثم انصرفوا عنه.

ومعنى ذلك أنهم هدَّدوا أبا طالب في هذه المرة، وأظهروا له العداوة؛ فعظم عليه فراق قومه وعداوتهم، ولم تطب نفسه بإسلام رسول الله ﷺ وخذلانه؛ فبعث إلى رسول الله ﷺ فأعلمه ما قالت قريش، وقال له: أبق على نفسك وعليَّ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق؛ فظنَّ رسول الله ﷺ أن عمه قد خذله، وضعف عن نصرته، فقال له: «يا عمَّاهُ! لو وضعُوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي، على أن أترك هذا الأمرَ حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته» ثم بكى رسول الله ﷺ وقام.

---

(١) أنظر كتاب محمد رسول الله ﷺ ص ١٠٤.

(٢) صواب العبارة كما في ابن هشام (وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا) أ هـ ومعنى (استنهيناك) طلبنا منك أن تنهه عنا. المحقق.

٨٩ ــ المفاوضة الثالثة بين قريش وأبي طالب

أصرّ أبو طالب على الدفاع عن ابن أخيه محمدٍ ﷺ، قياماً بالواجب عليه، نحو مَنْ تربّى في كفالته، ونشأ في بيته، وعملاً بالمروءة؛ ولكنه مع ذلك بقي على دينه، ولم يعتنق الإسلام، لذلك صارت مهمته شاقّة، ومركزه حرجاً، فأمامه قريش، متعصبةً لدينها الوثني، وقد أغضبها قيام محمدٍ ﷺ بنشر الإسلام، ومحاربة الأصنام؛ وصاحبُ الدعوة لا يثنيه عن القيام بما أمر به سخريةُ ساخرٍ، أو اضطهادُ مضطهدٍ، فلو أن أبا طالبٍ أسلم لكان دفاعُه أعظم، وحجتُه أبلغ، أمام العرب وأحكم.

فلما ولىّ، ناداه عمه أبو طالب، فأقبل عليه، وقال أبو طالب له: (اذهب يا ابن أخي! فقل ما أحببتَ، فوالله! لا أسلمك لشيء أبداً).

وأنشد قائلاً:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم	حتى أوسَّدَ في التراب دفينا
فاصدع بأمركَ ما عليكَ غضاضة	وأبشر بذاكَ وقَرَّ مِنه عيونا
ودعوتني وزعمتَ أنكَ ناصحٌ	ولقد صدقتَ وكنتَ ثَمَّ أمينا
وعرضتَ ديناً لا محالةَ أنه	من خير أديانِ البريةِ دينا
لولا الملامةُ أو حذار مسبةٍ	لوجدتني سمحاً بذاكَ مُبيناً[1]

وفي هذه المرة، مشوا إلى أبي طالب بعمارة بن الوليد، فقالوا: يا أبا طالب! هذا عمارة بن الوليد فتى قريش وأشعرهم وأجلهم فَخُذْهُ، فلكَ عقله ونصرته، فاتخذهُ ولداً، وأسلم لنا ابن أخيك، هذا الذي سَفَّهَ أحلامَنا، وخالفَ دينَكَ ودينَ آبائكَ، وفَرَّقَ جماعةَ قومك، نقتلُه؛ فإنما رجلٌ برجلٍ؛ فقال: والله! لبئس ما تسومونني، أتعطونني ابنكم أغذوهُ لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله لا يكون أبداً.

---

(١) أنظر كتاب (السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض كلام ربنا الحكيم) للعلامة الشيخ الإمام محمد الخطيب الشربيني ج ١ ص ٣٤٣.

فقال المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف: لقد أنصفَكَ قومُكَ وما أراكَ تريد أن تقبل منهم؛ فقال أبو طالب: والله! ما أنصفوني، ولكنك قد أجمعتَ خذلاني، ومظاهرة القوم عليَّ، فاصنع ما بدا لكَ.

وكل عاقلٍ يرى أن ما عرضته قريش على أبي طالب في غاية السخف. لكنهم كانوا يتلمسون الحِيلَ، للخلاص من صاحب الدعوة عليه الصلاة والسلام بأيّ حالٍ؛ فلما يئسوا من إجابة طلبهم اشتدتْ قريشٌ على من أسلم، فوثبت كل قبيلةٍ على من فيها من المسلمين يعذبونهم و يفتنونهم عن دينهم؛ وقام أبو طالب في بني هاشم فدعاهم إلى منع رسول الله ﷺ، فأجابوا إلى ذلك واجتمعوا إليه...

٩٠ ــ تعذيب المسلمين بيد المشركين بعد المفاوضات

أخذتْ قريش تؤذي النبيَّ ﷺ بعد مراجعتهم لأبي طالب وما قاموا به من مفاوضات، ويؤذون من آمن بالله تعالى وصدّق رسوله محمداً ﷺ بأنواع الإيذاء وفنون التعذيب حتى عذّبوا جماعة من المستضعفين عذاباً شديداً، وبعضهم قضى نحبه شهيداً بين يدي هؤلاء القساة من شدة تعصبهم لدينهم الوثني.

١ ــ فمن الذين عذبوا لأجل إسلامهم: بلال بن رباح وقد مر ذكره في ترجمته سابقاً.

٢ ــ ومنهم عمار بن ياسر (أبو اليقظان)، كذلك مرت ترجمة حياته سابقاً.

٣ ــ وأمه سمية، أول شهيدة في الإسلام طعنت بحربة فماتت، كما:

٤ ــ مات زوجها ياسر من شدة العذاب.

٥ ــ ومنهم خباب بن الأرت، ومرت ترجمة حياته سابقاً.

٦ ــ ومنهم صهيب بن سنان الرومي. كذلك شرحت سابقاً ترجمة حياته.

٧ ــ ومنهم عامر بن فهيرة مولى الطفيل بن عبد الله. مرت ترجمة حياته.

٨ ــ ومنهم لبيبة جارية بني مؤمل بن حبيب بن كعب، أسلمت قبل إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان يعذبها حتى تفتن ثم يدعها ويقول إني لم أدعك إلا سآمةً، فتقول: كذلك يفعل الله بك إن لم تسلم، فاشتراها أبو بكر الصديق رضي الله عنه فأعتقها.

هذه أمثلة ذكرتها للسادة القراء، عن اشتداد العذاب على هؤلاء المساكين، رجالاً ونساء.

ومما أصاب النبي ﷺ من الإيذاء، ما قاله عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، كما في صحيح البخاري: «بينا رسول الله ﷺ بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ، فلفَّ ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فجاء أبو بكر فأخذ بمنكبه فدفعه عن رسول الله ﷺ، وفي رواية: ثم قال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله».

وفي رواية البخاري: كان رسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة، وجمعٌ من قريش في مجالسهم، إذ قال قائلٌ منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائي؟ أيكم يقوم إلى جزور آل فلان فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاها، فيجيء به، ثم يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه، فانبعث أشقاهم، فلما سجد رسول الله ﷺ وضعه بين كتفيه، وثبت النبي ﷺ ساجداً، فضحكوا حتى مال بعضهم على بعض من شدة الضحك، فانطلق منطلق إلى فاطمة الزهراء، فأقبلتْ تسعى، وثبت النبيُّ ﷺ ساجداً حتى ألقتْهُ عنه. ثم أقبلتِ[1] عليهم تسبُّهم؛ فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة[2] قال: «اللهم عليك بقريش، ثلاثاً[3] ثم سمَّى فقال: اللهمَّ عليك بعمرو بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعمارة بن الوليد؛ وقد سقطوا

---

(١) لفظ (عنه ثم أقبلت) لم يذكره المؤلف. والتصحيح من حدائق الأنوار المجلد ١ ص ٣٣٦ مطبعة محمد هاشم الكتبي بدمشق الشام. المحقق.

(٢) لم يذكر في الأصل كلمة (الصلاة). والتصحيح من المصدر السابق. المحقق.

(٣) لم يذكر المؤلف كلمة (ثلاثا). انظر المصدر السابق. المحقق.

جميعهم صرعى يوم وقعة بدرٍ، ثم سحبوا إلى قليب بدر، أما عقبة بن أبي معيط فكان من أسرى بدر، وأمر رسول الله ﷺ بقتله» (١).

٩١ ـ مقاطعة قريش لمحمد ﷺ وأصحابه وعشيرته

على إثر إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وإشهاره السيف في وجوه أعداء الإسلام، شعرت قريش بأنها لن تستطيع الوقوف في وجه الدعوة، قاموا عن طريق المفاوضات فلم يفلحوا، مالوا إلى تعذيب المسلمين، أتباع محمدٍ ﷺ فلم ينجحوا؛ رأى قادتُهم أن يعمدوا إلى مقاطعة محمدٍ وأصحابه، وأخذوا يقاومونهم مقاومة سلمية، و يقاطعونهم مقاطعةً كليةً، فلا ينكحون إليهم، ولا ينكحونهم، ولا يبيعونَهم شيئاً، ولا يبتاعونَ منهم؛ وأجمعوا أمرهم على هذا، وكتبوهُ في صحيفة تعاهدوا عليها، ثم علقوها في جوف الكعبة، فلما فعلت قريش هذا، انحاز بنو هاشم و بنو المطلب إلى أبي طالب بن عبد المطلب في شعبه، ما عدا أبا لهب. وظلوا كذلك نحواً من ثلاث سنوات، يعانون أشدَّ حالاتِ الجوع والمسغبةً، ومع ذلك فهم لا يبالون بهذه القطيعة حتى كانوا يأكلون الخبط وورق الشجر، حتى إن أحدهم ليصنع كما تصنع الشاة؛ وكان فيهم سعد بن أبي وقاص؛ وروي أنه قال: لقد جعتُ حتى وطئتُ ذات ليلةٍ على شيء رطبٍ، فوضعته في فمي و بلعتهُ، ولا أدري ماهو حتى الآنَ.

ومع ذلك فإنهم كانوا لا يشكون من وقع كل هذا عليهم، حتى سئم بعضُ أشراف قريش من هذه المقاطعة؛ فعمل هشام بن عمر بن ربيعة بن الحارث، على تحريض بعض أصدقائه ومحبّيهِ على إبطالها، واجتمعوا بالحجون في أعلى مكة ليلاً، وتعاقدوا على نقض الصحيفة، وقال زهير بن أبي أمية بن المغيرة بن عمرو بن مخزوم: أنا أبدؤكم بالكلام في هذا الباب، فلما أصبحوا ذهبوا إلى أنديتهم، وجاء زهير إلى الكعبة، فطاف بها سبعاً، ثم أقبل على الناس، فقال: يا أهل مكة! أنأكل الطعام، ونلبس الثياب، و بنو هاشم هلكَى، لا يباع ولا يبتاع منهم؟ والله! لا أقعد، حتى تشقَّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة فانبرى له أبو جهل وقال: كذبتَ والله! لا تشقُّ، قال: زمعةُ بن الأسود: أنتَ والله كذاب،

---

(١) أنظر كتاب محمد رسول الله ﷺ ص ١٠٨.

ما رضينا كتابتها حيث كُتِبَتْ، قال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها، ومما كُتِبَ فيها، فقال أبو جهلٍ: هذا أمرٌ قضي بليلٍ تشوور فيه، بغير هذا المكان، وكادوا يقتتلون. كل هذا وأبو طالب جالس في ناحيةٍ من المسجد، يستمع لما يقال و يشاهد ما قد حصل، فقام بينهم وقال: يا معشر قريش! إن ابن أخي محمد بن عبد الله أخبرني أن الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش فلم تدع فيها اسماً لله إلا أثبتتهُ فيها، ونفت منها الظلم والقطيعة والبهتانِ، فهلم إلى صحيفتكم فإن كان كما قال ابنُ أخي، فانتهوا عن قطيعتنا، وانزلوا عما فيها، وإن كان كذباً دفعتُ إليكم ابنَ أخي، فقال القومُ: رضينا، وتعاقدوا على ذلك، ثم نظروا فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ، وبذلك ردَّ الله سهام قريش في نحورهم، ونصر المؤمنين عليهم، وكتب الله عليهم الخسران، فما زادهم ذلك إلا شراً وتمادياً في الضلال [1].

قال ابن هشام في سيرته [2]: قال ابن إسحاق: فلما مزّقَتِ الصحيفة و بطل ما فيها، قال أبو طالب فيما كان من أمر أولئكَ النفر الذين قاموا في نقضها يمدحهم:

ألاَ هل أتى بَحْرِيَّنَا صنعُ ربنا ... على نأيهم والله بالناس أرْوَدُ [3]

فيخبرهم أنّ الصحيفةَ مُزّقَتْ ... وأنْ كلُّ ما لم يَرْضَهُ الله مُفْسِدُ

تراوَحَهَا إفكٌ وسحرٌ مجمَّعٌ ... ولم يُلْفَ سِحْرٌ آخرَ الدهر يَصْعَدُ

تداعَى لها مَنْ ليس فيها بقرقرٍ ... فطائرُها في رأسها يَتَرَدَّدُ

وكانت كفاء وقعةٌ بأثيمةٍ ... ليُقْطَعَ منها ساعدٌ ومُقَلَّدُ

وَيَظْعَنُ [4] أهلُ المكَّتيْنِ فيهربوا ... فرائصُهم من خشية الشر تَرْعَدُ [5]

---

(١) أنظر كتاب / رسالة الإسلام ــ نور بدّد الظلام / للعلامة السيد عبد الحميدالخطيب ص ٦٧ و ٦٨.

(٢) في الجزء الأول ص ٤٠٠.

(٣) أرود: أرفق وبحرينا: المهاجرون للحبشة.

(٤) يظعن: يرحل، والفرائص: جمع فريصة، وهي بضعة في مرجع الكتف، ترعد: إذا فزع الإنسان، وتُرعَدُ: بالبناء للمجهول: تضطرب.

(٥) في الأصل (تُرعد) بضم التاء والأفضل فتحها كما أثبتناه. المحقق.

وَيُشْرِكُ حرَّاث[1] يُقَلِّبُ أمرَهُ ... أيُشهِمُ فيها عند ذاك ويُنجِدُ[2]
وتصعدُ بين الأخشبين[3] كتيبةٌ ... لها حُدُجٌ سهمٌ وقوسٌ ومَرْهَدُ
فمن يَنْشَ من حُضّارِ مكّةَ عِزَّهُ ... فعِزَّتُنا في بطن مكة أتْلَدُ[4]
نشأنا بها والناسُ فيها قلائلٌ ... فلم تَنْفَكِكْ تَزْدادُ خيراً ونُحمدُ
ونطعمُ حتى يتركَ الناسُ فضلَهم ... إذا جعلتْ أيدي المُفيضينَ تَرْعَدُ[5]
جزَى الله رهطاً بالحجون تتابعُوا ... على ملأ يهدي لحزم ويُرشدُ
قعوداً لدى خَطْمِ الحجون كأنهم ... مَقاولةٌ بل هم أعزُّ وأمجدُ
أعانَ عليها كلُّ صقرٍ كأنه ... إذا ما مشَى في زفزف[6] الدرع أحرد
جريء على جُلّى الخطوب كأنه ... شِهابٌ بكَفَّيْ قابسٍ يتوقَّدْ[7]
من الأكرمينَ من لؤيّ بن غالب ... إذا سيمب خَسفاً وجهُهُ يتربَّدُ
طويلُ النجادِ خارجٌ نصفُ ساقِهِ ... على وجههِ يُسقَى الغمام ويسعَدُ
عظيمُ الرماد سيدٌ وابنُ سيّدٍ ... يحضُّ على مَقْرى الضيوف ويحشدُ
ويبني لأبناء العشيرة صالحاً ... إذا نحنُ طُفْنا في البلادِ وَيَمْهَدُ[8]
ألَظَّ بهذا الصلح كلُّ مُبَرَّإٍ ... عظيم اللواء أمرُهُ ثَمَّ يُحمدُ
فضَوْا[9] في ليلهم ما فضَوْا ثم أصبحوا ... على مهلٍ وسائرُ الناس رُقَّدُ
ثم رجعوا سهل بن بيضاء[10] راضياً ... وسُرَّ أبو بكرٍ بها ومحمَّدُ

---

(١) حراث: مكتسب، ويقلب أمره: أي يديره بأعمال الفكر فيه، ويتهم: يأتي تهامة، وهي ما انخفض من أرض الحجاز، وينجد، يأتي نجداً، وهو ما ارتفع من أرض الحجاز.

(٢) في الأصل (ويَنجد) بفتح الياء. والصواب ضمها كما أثبتناه. المحقق.

(٣) الأخشبان: جبلان بمكة، وكتيبة: جيش، وحدجٌ: كثرة، ومرهد: رمح لين.

(٤) يريد أنه ليس في حاضري مكة من هو مثلهم في العز والمجد.

(٥) في الأصل (تُرعد) بضم التاء. والصواب فتحها كما أثبتناه. المحقق.

(٦) (زفزف الدرع): صوتها. المحقق.

(٧) القابس: الذي يأخذ قبساً من النار.

(٨) في الأصل (ويمهد) بكسر الهاء. المحقق.

(٩) في الأصل (فضوا) بالفاء والصواب كما أثبتناه. المحقق.

(١٠) هو سهل بن وهب بن ربيعة بن هلال بن ضبة بن الحارث بن فهر، يعرف بابن البيضاء وأسمها دعد بنت حجدم بن أمية بن ظرب بن الحارث بن فهر.

متى شركُ الأقدام في جلّ أمرنا ... وكنّا قديماً قبلها نتودَّدُ
وكنّا قديماً لا نقرُّ ظلامةً ... وندركُ ما شئنا ولا نتشدَّدُ[1]
فيالَ قُصيٍّ هل لكم في نفوسكم ... وهل لكمُ فيما يجيء به غَدُ
فإني وإياكم كما قال قائلٌ ... لديكَ البيانُ لو تكلمت أسودُ[2]

٩٢ ــ إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي

شاعر يحكّم عقله ويسلم

كانت قريش إذا سمعت بقدوم أحدٍ من العرب يقابلونه ويحذرونه من رسول الله ﷺ، ويصفونه بكل نقيصةٍ، خشيةَ أن يسلمَ، ويعود إلى بلاده، يدعوهم إلى الإسلام.

لكن الطفيل بن عمرو الدوسي لم يعبأ بتحذيرهم، بل حكّم عقله، وتقابل مع رسول الله ﷺ، وسمع منه القرآن، ففكّر فيه، وتذوّقه، لأنه شاعر فأسلم، وهذه قصته:

هو الطفيل بن عمرو بن طريف بن العاصن بن ثعلبة بن سُليم بن فَهْم بن غَنْم بن دوس بن عدنان بن عبد الله[3] بن زهران بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن نصر بن الأزد الدوسي، الملقب: ذا النون.

كان الطفيل بن عمرو الدوسي يحدّث: أنه قدم مكة، ورسول الله ﷺ بها، فشى إليه رجال من قريش وكان الطفيل شريفاً شاعراً ولبيباً، فقالوا يا طفيل! إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجلُ بين أظهرنا، قد أعضل بنا[4]، وقد فرّقَ جماعتَنا، وشتّتَ أمرنا، وإنما قولُه كالسحر، يفرّقُ بين الرجل وبين أبيه، وبين

---

(١) في الأصل (تنشدد). المحقق.

(٢) هذا مثل يضرب للقادر على الشيء لا يفعله. أو هو اسم شخص.

(٣) في الأصل (عدنان بن زهران) بدون ذكر (عبد الله) والتصحيح من أسد الغابة جـ ٣ ص ٧٨ باب الطاء والفاء. المحقق.

(٤) أعضل بنا: أي اشتد أمره.

الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجه[1]؛ وإنا نخشى عليك وعلى قومك، ما قد دخل علينا، فلا تكلمُهُ ولا تسمعنَّ منه شيئاً، قال: فوالله! ما زالوا بي، حتى أجمعتُ ألا أسمعَ منه شيئاً ولا أكلمه، حتى حشوتُ في أذنيَّ حين غدوتُ إلى المسجد كُرْسُفاً[2] فرقاً من أن يبلغني شيء من قوله، وأنا لا أريد أن أسمعه، قال: فغدوتُ إلى المسجد، فإذا رسولُ الله ﷺ قائم يصلّي عند الكعبة قال: فقمتُ منه قريباً، فأبَى الله إلا أن يُسمعني بعضَ قوله، قال: فسمعتُ كلاماً حسناً، فقلتُ في نفسي: وَاثُكْلَ أمي، والله إني لرجلٌ لبيبٌ وشاعرٌ، ما يخفَى عليَّ، الحسنُ من القبيح، فما يمنعني أن أسمع هذا الرجل ما يقول؟ فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلتُه وإن كان قبيحاً تركتُه، قال: فمكثتُ حتى انصرفَ رسول الله ﷺ إلى بيته؛ فاتبعتُه حتى إذا دخل بيتَه، دخلتُ عليه، فقلتُ يا محمد! إن قَوْمَك قد قالوا لي كذا وكذا للذي قالوا، فوالله! ما برحُوا يخوّفونني أمركَ، حتى سددتُ اذنيَّ بكُرْسف، لئلا أسمع قولك، ثم أبَى اللهُ إلا أن يسمعني قولَكَ، فسمعتُه قولاً حسناً، فأعرضْ عليَّ أمركَ، قال: فعرضَ عليَّ رسول الله ﷺ الإسلام، وتلا عليَّ القرآنَ، فلا والله! ما سمعتُ قولاً قطُّ أحسنَ منه، ولا أمراً أعدلَ منه، قال: فأسلمتُ، وشهدتُ شهادة الحقِّ، وقلتُ: يا نبيَّ الله! إني امرؤ مُطاعٌ في قومي، وأنا راجع إليهم، وداعيهم إلى الإسلام، فادعُ اللهَ أن يجعلَ لي آيةً، تكون لي عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه، قال: (اللهمَّ اجعلْ له آيةً) قال: فخرجتُ إلى قومي؛ حتى إذا كنت بثنية[3] تطلعني على الحاضر[4]، وقع نورٌ بين عينيَّ مثلُ المصباح قال: قلتُ اللهمَّ في غير وجهي، إني أخشى أن يظنون أنها مُثْلةٌ وقعتْ في وجهي لفراقي دينهم قال: فتحوَّلَ فوقع في رأس سَوْطي، قال: فجعل الحاضر[5] يتراءوْن ذلك النور في سوطي كالقنديل المعلّق، وأنا أهبط إليهم من الثنية،

(١) في الأصل (زوجته) والصواب كما أثبتنا. فلا يقال (زوجة) إلا في علم الميراث كما اصطلح العلماء. المحقق.

(٢) الكرسف: أي القطن.

(٣) الثنية: الفرجة بين الجبلين أو هي المكان المرتفع.

(٤) (٥) الحاضر: القوم النازلون على الماء.

قال: حتى جئتُهم، فأصبحتُ فيهم، فلما نزلتُ أتاني أبي، وكان شيخاً كبيراً، قال: فقلتُ: إليكَ عني يا أبتِ، فلستُ منكَ، ولستَ مني، قال: لِمَ يا بُنيَّ؟ قال: قلتُ: أسلمتُ وتابعتُ دين محمد ﷺ قال: أي بنيّ! فديني ديني، قال: قلتُ: فاذهب واغتسل، وطهِّر ثيابك، ثم تعالَ حتى أعلِّمَكَ ما عُلِّمْتُ، قال: فذهب فاغتسل وطهَّر ثيابه، قال: ثم جاء فعرضت عليه الإسلام فأسلم، ثم أتتني صاحبتي فقلتُ: إليك عني، فلست منك، ولست مني، قالت: لم بأبي أنت وأمي؟ قال: فرَّق بيني وبينك الإسلام، وتابعت دين محمد ﷺ قالت: فديني ديني، قال: فأسلمت وقالت: أيخاف عليَّ من (ذي الشرى[1] شيئاً)؟، فقلت: لا، أنا ضامن لذلك، ثم دعوتُ دوْساً، فأبطأوا عن الإسلام، ثم جئت إلى رسول الله ﷺ، فقلت له: يا نبيَّ الله! إنه قد غلبني على دوس الزنا[2]، فادعُ الله عليهم، فقال: «اللهمَّ اهدِ دَوْساً إليَّ»[3]، ارجعْ إلى قومك، فادعُهم وارفقْ بهم. قال: فلم[4] أزل بأرض دَوْس أدعوهم إلى الإسلام، حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وهاجروا إليه، وقضى بدراً وأحداً والخندق، ثم قدمتُ على رسول الله ﷺ بمن أسلم معي من قومي، ورسول الله ﷺ بخيبر، حتى نزلتُ المدينة بسبعين أو بثمانين بيتاً من دَوْس، ثم لحقنا برسول الله ﷺ بخيبر، فأسهم لنا مع المسلمين؛ ثم لم أزل مع رسول الله ﷺ، حتى فتح الله عز وجل مكة، فقلتُ يا رسول الله! ابعثني إلى ذي الكفين — هو صنم عمرو بن حُمَمه — حتى أحرقه فخرج إليه فجعل طفيل يقول وهو يحرقه وكان من خشب:

يا ذا الكفين لستُ من عبادِكا ... ميلادُنا أقدمُ من ميلادِكا
إني حَشَوْتُ النارَ في فؤادكا

ثم رجع إلى رسول الله ﷺ؛ فكان معه بالمدينة حتى قبض الله رسوله محمداً ﷺ، فلما ارتدت العربُ خرج مع المسلمين، فسار معهم حتى فرغوا من

---

(١) اسم صنم لهم.
(٢) هو لهو مع شغل قلب و بصر ووقوع في الإثم.
(٣) كلمة (إلي) لم تذكر بأسد الغابة. انظر المصدر السابق. المحقق.
(٤) بالمصدر السابق (قال: فرجعت فلم أزل.. الخ). المحقق.

طليحة، ومن أرض نجدٍ كلِّها، ثم سار مع المسلمين إلى اليمامة، ومعه ابنه عمرو بن الطفيل، وهناك حارب حرب الأبطال وسقط شهيداً باليمامة، رضي الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة مأواه، آمين[1].

وقد جُرح ولده عمرو ثم شفي، وفي عهد عمر بن الخطاب استشهد في وقعة اليرموك، رضي الله عنه وعن أبيه وجده.

٩٣ ــ ذلُّ عدوِّ الله ورسوله أبي جهلٍ

سبق أن ذكرتُ دعوة رسول الله ﷺ لربِّه، أن يعزَّ الإسلام بأحد الرجلين: عمر بن الخطاب، أو عمرو بن هشام؛ وشاء الله تعالى أن يسوق السعادة لعمر بن الخطاب، ويكون سيفاً قاطعاً لرقاب من حارب النبيَّ الأمين، والرسول الكريم؛ حتى ابتكرتْ قريش لحربه المقاومة السلمية بالمقاطعة التي شرحتُها، سابقاً؛ فلم يجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ميداناً للحرب والضرب، حتى هيَّأ الله من رجال قريش من نقضوا الصحيفة ومزّقوها، وأبطلتِ المقاطعة؛ وأذلّ الله تعالى أبا جهل عدو الله ورسولهُ، فظل على صلفه وغروره، وعناده وإصراره، على مقاومة الدعوة الإسلامية في الخفاء والعلانية؛ وعن طريق إذاعة السوء عن رسول الله ﷺ، دون أن يستطيع مواجهته بالاعتداء عليه؛ بل ألقى الله تبارك وتعالى في قلبه الرعب منه؛ حتى إن رجلاً من أراش بن عمرو بن الغوث قدم مكة بإبل له، فابتاعها منه أبو جهل، وماطله بأثمانها فأقبل الرجلُ حتى وقف على نادٍ من قريش، ورسول الله ﷺ جالس في ناحية من المسجد، فقال: يا معشر قريش! من رجل يؤدّيني[2]، على أبي الحكم بن هشام، فإني رجل غريب ابن سبيل، وقد غلبني على حقي؟ فقال له أهلُ المجلس: أترى ذلك الرجل الجالس؟ ــ يعنون رسول الله ﷺ ــ وهم يهزءون به، لما يعلمون عداوته[3]، بينه وبين أبي جهل ــ اذهب إليه فإنه يؤديك عليه؛ فأقبل

---

(١) أنظر قصة إسلام الطفيل هذه، في سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٠٧ وكتاب محمد رسول الله (ص) ص ١٣٨.

(٢) أي يقضيني الدين الذي عليه.

(٣) لو قال (من العداوة) بدل (عداوته) لكان أوجه. المحقق.

الأراشي حتى وقف على رسول الله ﷺ فقال: يا عبد الله! إن أبا الحكم بن هشام قد غلبني على حقّ لي عليه، وأنا رجل غريب ابن سبيل، وقد سألتُ هؤلاء القوم عن رجل يؤديني عليه، ويأخذ لي حقي منه، فأشاروا عليَّ إليك ــ ولم يعرفه بأنه رسول الله ــ فخذ لي حقي منه يرحمك الله، قال: انطلق إليه، وقام معه رسول الله ﷺ، فلما رأوه قام معه، قالوا لرجلٍ ممن معهم: اتبعه فانظر ماذا يصنع؟ فخرج رسول الله ﷺ حتى جاءه، فضرب عليه بابه، قال: مَنْ هذا؟ قال: محمد فاخرجْ إليَّ، فخرج إليه، وما في وجهه من رائحة، قد امتقع لونه، فقال: أعطِ هذا الرجلَ حقَّه، قال: نعم لا تبرح حتى أعطيه الذي له؛ فدخل ثم خرج إليه بحقه، فدفعه إليه؛ ثم انصرف رسول الله ﷺ وقال للأراشي: الحق بشأنك؛ فأقبل الأراشي حتى وقف على ذلك المجلس فقال: جزاهُ الله خيراً، فقد والله! أخذ لي حقي؛ وجاء الرجل الذي بعثوهُ معه؛ فقالوا: ويحك ماذا رأيت؟ قال عجباً من العجب، والله! ما هو إلا أن ضرب عليه بابه فخرج إليه، وما معه روحه، فقال له: أعْطِ هذا حقه، فقال: نعم، لا تبرح حتى أخرج إليه حقّه، فدخل فخرج إليه، بحقّه فأعطاه إياه، ثم لم يلبث أبو جهل أن جاء، فقالوا له: ويلك ما لك؟ والله ما رأينا مثل ما صنعت قط أبداً، قال: ويحكم، والله! ما هو إلا أن ضرب عليَّ الباب، وسمعت صوته، فملئت رعباً، ثم خرجت إليه، وإن فوق رأسه لفحلاً من الإبل، ما رأيت مثل هامته، ولا قصرته ولا أنيابه لفحل قط، والله لو أبيتُ لأكلني[1].

٩٤ ــ الهجرة[2] الأولى إلى الحبشة

في رجب السنة الخامسة من بعثته ﷺ سنة (٦١٥) م

لما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء والعذاب وما هو فيه من العافية، لمكانه من الله عز وجل، ودفاع أبي طالب عنه، وأنه ﷺ لا يقدر

---

(١) أنظر كتاب (رسالة الإسلام ــ نور بدد الظلام) ص ٦٨.

(٢) في الأصل (ذكرة الهجرة.. الخ) وقد حذفنا كلمة (ذكرة). المحقق.

أن يمنعهم من تعذيبهم[1] إياهم، قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن فيها ملكاً لا يُظلم أحد عنده، حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه».

وكان اسم النجاشي وقتئذٍ (أصحمة بن أبجر) ومعنى أصحمه بالعربية: عطية، والنجاشي لقب لكل ملكٍ يلي أمور الحبشة.

فخرجوا متسللين سراً وذلك في شهر رجب سنة خمس من بعد النبوة، سنة (٦١٥) م.

وكانوا اثني عشر رجلاً، وأربع نسوة: هم، الزبير بن العوام، وعثمان بن عفان ومعه زوجته[2] رقية بنت رسول الله ﷺ، وسهيل بن البيضاء (هو سهيل بن وهب)، وعامر بن ربيعة، ومعه امرأته ليلى بنت أبي حثمة[3]، وعبد الله بن مسعود، وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن مظعون، ومصعب بن عمير، وأبو حذيفة بن عتبة مع زوجته[2] سهلة بنت سهيل، وأبو سبرة[4] بن أبي رهم مع زوجته[2] أم كلثوم بنت سهيل، وأبو سلمة بن عبد الأسود ومعه زوجته[2] أم سلمة، رضي الله عنهم جميعاً[5].

هؤلاء هاجروا إلى الحبشة في صدر الإسلام، استجابةً لأمر رسول الله ﷺ وخوفاً من الفتنة في عقيدتهم؛ ولأن قوم الحبشة أهل كتاب، يشتركون في الإيمان بوجود الله تعالى. وظلوا بها آمنين مطمئنين نحو ثلاثة أشهر، إلى أن ترامى إلى أسماعهم، إسلام عمر بن الخطاب، واشتداد شوكة المسلمين مما اضطر قريشاً إلى أن تهادنهم، وألا تنال أحد منهم بأذى، فسارعوا بالعودة إلى مكة.

---

(١) (تعذيبهم). في الأصل (تعذيبه). المحقق.

(٢) الأصح (زوجه) بدون تاء. المحقق.

(٣) ذكر المؤلف (ليلى بنت أبي حثمة) على أنها زوج عبد الله بن مسعود وهذا خطأ. والصواب ما أثبتناه والتصحيح من سيرة ابن هشام. المحقق. هذا وقد ذكر أن اسم أبيها أبو هيثمة. وهو (أبو حثمة) كما في المصدر المذكور. المحقق.

(٤) في الأصل (سيرة) بالياء. والصواب بالباء. والتصحيح من المصدر السابق. المحقق.

(٥) أنظر (رسالة الإسلام ــ نور بدد الظلام) ص ٥٩.

وكان لهجرتهم هذه شأن عظيم في تاريخ الإسلام، فإنها كانت برهاناً ساطعاً لأهل مكة، على مبلغ إخلاص المسلمين وتفانيهم في احتمال ما يصيبهم من المشقات والخسائر والأخطار البرية والبحرية، في سبيل تمسكهم بعقيدتهم.

٩٥ ــ الهجرة الثانية إلى الحبشة

لما قدم أصحابُ النبي ﷺ مكة، من الهجرة الأولى، لسبب إسلام عمر، وإظهار الإسلام، اشتدَّ عليهم قومهم، وسطتْ بهم عشائرهم ولقوا أذى شديداً؛ فأذن لهم رسول الله ﷺ في الخروج إلى أرض الحبشة، مرة ثانية، فكانت هجرتهم هذه شاقة جداً، ولقوا من قريش تعنيفاً شديداً، ونالوهم بالأذى وقد اشتدَّ عليهم ما بلغهم عن النجاشي من حسن جواره لهم، وتخوَّفتْ قريش من حماية دولة أجنبية قوية لهؤلاء المسلمين المهاجرين؛ فقال عثمان بن عفان: يا رسول الله! فهجرتنا الأولى وهذه الآخرة إلى النجاشي ولست معنا، فقال رسول الله ﷺ: أنتم مهاجرون إلى الله وإليَّ، لكم هاتان الهجرتان جميعاً، قال عثمان: فحسبنا يا رسول الله!

وكان عِدَّةُ من خرج في هذه الهجرة من الرجال ثلاثة وثمانين رجلاً ومن النساء إحدى عشرة امرأة قرشية، وسبعاً غرائب؛ فأقام المهاجرون بأرض الحبشة عند النجاشي في أحسن جوار؛ فلما سمعوا بمهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، رجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلاً، ومن النساء ثماني نسوة، فمات منهم رجلان، وحبس بمكة سبعة.

٩٦ ــ وفد حبشي يقابل الرسول ﷺ بمكة وقريش تعترضه

قال ابن إسحاق[٢]: ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة، عشرون رجلاً، أو قريب من ذلك، من النصارى، حين بلغهم خبره من

(١) أنظر كتاب (محمد رسول الله ﷺ) ص ١٣٥.

(٢) في سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤١٨.

في أنديتهم حول الكعبة؛ فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ عما أرادوا، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله، وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا لله، وآمنوا به، وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره.

فلما قاموا عنه، اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفرٍ من قريشٍ، فقالوا لهم: خَيَّبكمُ اللهُ من ركبٍ، بعثكم مَنْ وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم، لتأتوهم بخبر الرجل ــ أي محمد ــ فلم تطمئنّ مجالسُكم عنده، حتى فارقتم دينكم وصدقتموهُ بما قال، ما نعلم ركباً أحمقَ منكم، أو كما قالوا لهم، فقالوا لهم: سلامٌ عليكم. لا نجاهلكم، لنا ما نحنُ عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نألُ أنفسنا خيراً[1]؛ و يقال: إن النفر من النصارى من أهل نجران، فالله أعلم، وفيهم نزلت هؤلاء الآيات، وهي قوله تعالى: ﴿الذين آتيناهمُ الكتابَ من قبله هم به يؤمنون وإذا يُتلى عليهم، قالوا آمنّا به، إنه الحقُّ من ربنا إنا كنّا من قبله مسلمين﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لنا أعمالُنا ولكم أعمالُكم سلامٌ عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾[2].

قال ابن إسحاق: وقد سألتُ ابن شهاب الزهري عن هؤلاء الآيات فيمن نزلت، فقال لي: ما زلتُ أسمع من علمائنا أنهنَّ أنزلْنَ في النجاشي وأصحابه، والآيات من سورة المائدة[3]: ﴿ذلك بأنَّ منهم قسّيسينَ ورُهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فاكتبْنا مع الشاهدين﴾.

٩٧ ــ آثار الهجرتين للحبشة وما تولّد منها

وثانياً، وأقاموا فيها بجوار النجاشي في أحسن جوار؛ وقد رأى رسول الله ﷺ أن يبعث معهم جعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن عُرْفطة وغيره من الصحابة، ليعملوا على نشر الإسلام في تلك الجهات، ولحق بهم من اليمن أبو موسى في

(١) أي لم نقصرها عن بلوغ الخير.

(٢) الآيات من سور القصص (٥٢-٥٥).

(٣) الرقم (٨٢-٨٣).

بضعة وخمسين رجلاً من قومه، آمنوا بمحمد ﷺ بمجرد السماع به، وهاجروا إليه، إلا أن السفينة ألقت بهم إلى الحبشة، وهناك لقوا جعفراً وصحبه، فظلُّوا معهم.

لقد كان جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه مع المهاجرين، موجباً لإثارة أفكار قريش، وحسبت له حسابه، وظنوهم موفدين من قبل محمد ﷺ إلى النجاشي، طلباً لنجدته ومعونته بجيش لقتالهم، خصوصاً وهم يعرفون أن النجاشي عدوّ لآلهتهم، وسبق له أن أرسل جيش الفيل لهدم الكعبة، بما فيها من الأصنام. إذاً لا بد من إفساد هذه الخطة، ومن أجل هذا، سارعت قريش بانتداب رجلين، من خيرة رجالها، لإحباط ذلك المسعى، وهما عمرو ابن العاص، وعمارة بن الوليد، وقيل: عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي؛ وزوَّدوهما بأنواع الهدايا الثمينة للنجاشي، وقساوسته؛ فلما بلغا الحبشة، قصدا إلى مقرّ النجاشي، واستأذنا في الدخول عليه؛ ولما مثلا أمامه سجدا له، وقدَّما له الهدايا، ثم قالا له: (إن نفراً من بني عمنا، نزلوا بأرضك، ورغبوا عنا، وعن ملتنا)قال: أين هم؟ ــولم يكن يعلم بهم من قبلــ قالا: إنهم بأرضكَ، وربما بثُّوا بين قومك سمومهم، فأمر النجاشي بهم، فأحضروا؛ فقال جعفر بن أبي طالب لصحبه: أترضون أن أتقدمكم وأكون خطيبكم اليوم؟ قالوا: بلى ــنعمــ فدخلَ وسلَّم على النجاشي، ولم يسجد له، فقال أتباع النجاشي: ما لَكَ لا تسجد للملك؟ قال: إنا لا نسجدُ إلا لله تعالى، فقال النجاشي: ما هذا الدين الذي فارقتم به قومكم، ولم تدخلوا في ديني، ولا في دينِ أحدٍ من أتباعي؟

فقال جعفر: أيها الملكُ! كنا قوماً أهلَ جاهليةٍ، نعبد الأصنامَ ونأكلُ الميتةَ، ونأتي الفواحشَ، ونقطعُ الارحامَ، ونسيء الجوارَ، و يأكلُ القويُّ منا الضعيفَ، حتى بعثَ اللهُ إلينا رسولاً منَّا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله، نوحدّهُ ونعبدُه، ونخلع ما كنا نعبدُ نحنُ وآباؤنا من دون الله، من الحجارة والأوثان، وأمرنا بالصدق والأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم، والزنا، والفواحش، وشهادة الزورِ، وأكل مال اليتيم، وقذف

المحصنات؛ وأمرنا أن نعبد الله ولا نشركَ به شيئاً، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة؛ فصدَّقناهُ وآمنَّا به، واتبعناه على ما جاء به، فعدا علينا قومُنا، فعذَّبونا، وفتنونا عن ديننا، وشقوا علينا[1]، فخرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نُظلمَ عندكَ.

فقاطعه عمرو بن العاص وقال: إنهم يخالفونك في عيسى وأمه. فقال النجاشي: ما تقولون في عيسى وأمه؟

فقال جعفر: نقول فيه ما قاله اللهُ في كتابه: إنه هو كلمةُ اللهِ وروحهُ، ألقاها إلى العذراء البتول؛ وتلا عليه قوله تعالى: ﴿ واذكُرْ في الكتاب مريمَ إذِ انتبذَتْ من أهلها مكاناً شرقياً، فاتخذتْ من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحَنا فتمثَّلَ لها بشراً سوياً، قالت إني أعوذ بالرحمن منكَ إنْ كنتَ تقياً، قال: إنما أنا رسولُ ربكِ لأهَبَ لَكِ غلاماً زكياً، قالت: أنىَّ يكونُ لي غلامٌ ولم يَمْسَسْني بشرٌ ولم أكُ بغيّاً؟ قال: كذلكِ، قال رَبُّكِ هو عليَّ هيّن، ولنجعله آيةً للناسِ ورحمةً منَّا، وكان أمراً مقضيّاً، فحملتْهُ فانتبذَتْ به مكاناً قَصيّاً، فأجاءها المخاضُ إلى جذْعِ النخلةِ، قالتْ: يا ليتني مِتُّ قبل هذا وكنتُ نسياً مَنْسيًّا، فناداها من تحتها، ألا تحزني، قد جعل ربُّكِ تحتكِ سريًّا، وهزّي إليكِ بجذعِ النخلةِ تُساقِط عليكِ رُطَباً جَنيا، فكلي واشربي وقَرّي عيناً، فإما تَرَينَّ من البشر أحداً، فقولي: إني نذرتُ للرحمنِ صوماً فلَن أكلّم اليومَ إنسيّا، فأتَتْ به قومَها تحملُه، قالوا: يا مريمُ لقد جئتِ شيئاً فَريا، يا أختَ هارونَ ما كان أبوكِ أمرأ سَوْءٍ وما كانت أمُّك بغيّا، فأشارَتْ إليه، قالوا: كيف نكلّم مَنْ كان في المهد صبيا؟ قال: إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيّاً، وجعلني مباركاً أين ما كنتُ، وأوصاني بالصلاةِ والزكاةِ ما دمتُ حيّاً، وبرّاً بوالدتي، ولم يجعلني جبّاراً شقيّا، والسلامُ عليَّ يومَ ولدتُ، ويوم أموتُ، ويومَ أبعثُ حيّاً، ذلك عيسى ابنُ مريمَ قولَ الحقِّ الذي فيه يمترون ﴾[2].

---

(١) نص العبارة من سيرة ابن هشام: (وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان، من عبادة الله تعالى. وأن نستحلّ من الخبائث. فلما قهرونا وظلمونا وضيّقُوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا: خرجنا إلى بلادك، واخترناك على مَنْ سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألاّ نظلم عندك، أيها الملك!). ولم أجد في النص لفظ (وشقوا علينا). المحقق.

(٢) من سورة مريم الآيات (١٦-٣٤).

وما كاد ينتهي جعفر من تلاوته إلى هذا الحد، حتى بكى النجاشي و بكى من حوله من الأساقفة، وقالوا: هذه كلمات تصدر من النبع الذي صدرت منه كلمات سيدنا اليسوع المسيح.

وقال النجاشي: إنَّ هذا والذي جاء به موسى[1]، ليخرج من مشكاة واحدة؛ مرحباً بكم، وبمن جئتم من عنده، أشهدُ أنه رسول الله، وأنه الذي نجده في الإنجيل، وأنه الذي بشر به عيسى، انزلوا حيث شئتم، فوالله! لولا ما أنا فيه من الملك، لأتيته، حتى أكون أحمل نعليه، وأوضِّئهُ، وآمرُ بهديهِ الآخرين، اذهبُوا فأنتم سيوم بأرضي، (قالها ثلاثاً)، ومعنى سيوم: أي الآمنون من أن يمسهم غرْمٌ. وفي هذا أُنزلَ قولُ الله تعالى: ﴿ لتجدَنَّ أشدَّ الناسِ عداوةً لِلَّذينَ آمنُوا اليهودَ والذين أشركُوا، ولتجدَنَّ أقربَهم مودةً للذين آمنُوا، الذين قالوا إنا نصارى، ذلك بأن منهم قِسّيسينَ ورهباناً وأنهم لا يستكبرون، وإذا سمعوا ما أُنْزِلَ إلى الرسولِ، تَرَى أعينَهُمْ تفيضُ من الدمع مما عَرَفُوا من الحقِّ، يقولونَ رَبَّنا آمَنَّا فاكتُبْنَا مع الشاهدينَ ﴾[2].

وانتهت هذه المقابلة بقول ملك الحبشة: رُدُّوا عليهما ــ أي على عمرو بن العاص ورفيقه ــ هداياهما فلا حاجة لي بها، فوالله! ما أخذ الله مني الرشوةَ، حين ردَّ علي ملكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناسَ فيَّ فأطيعهم فيه.

فخرجا[3]، عمرو ورفيقه من عنده مقبوحين، مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقام المسلمون عند الملك وفي أرضه بخير إقامة، وخير جار[4]، في أمنٍ ودعة، يعملون على نشر دعوتهم على مرأى ومسمع من النجاشي، ولم يعودوا إلى الحجاز إلا بعد هجرة النبيّ ﷺ إلى المدينة المنورة، وعند فتح خيبر قال عبد الله بن الحارث بن

---

(١) لعل الأرجح (عيسى) بدل (موسى) لا سيما والنجاشي كان نصرانياً. هذا ونص العبارة في سيرة ابن هشام: (إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة. انطلقا، فلا والله! إليكما، ولا يُكادون). المحقق.

(٢) من سورة المائدة آية (٨٢و٨٣).

(٣) الأصح (فخرج) بدون ألف لأن الفاعل اسم ظاهر. المحقق.

(٤) لو قال (وخير جوار) لكان أوجه. المحقق.

قيس، حين أمنوا بأرض الحبشة، وحمدوا الجوار، وعبدوا الله لا يخافون على ذلك أحداً:

يـا راكـبـاً بـلّـغا عني مُغَلْغَلَةً ... من كـانَ يرجوُ بَلاغَ اللهِ والدينِ (١)
كـلُّ امرىءٍ من عـبـاد الله مُضطهَدٍ ... بـبطنِ مكـةَ مـقـهـورٍ ومفـتـونِ (٢)
أنّـا وجـدنـا بـلادَ الله واسـعـةً ... تُـنـجي من الـذلِّ والخزاةِ والهـوَنِ
فـلا تُـقـيـمـوا على ذلِّ الحـيـاة وخـزْ ... يٍ في المـمـاتِ وغـيـب غير مـأمـونِ
إنّـا تـبـعـنـا رسـولَ اللهِ واطّـرحَـوُا ... قـولَ الـنـبـيِّ وعـالـوا في الموازينِ (٣)
فـاجـعَـلْ عذابَكَ في القوم الذين بغَوْا ... وعـائـذٌ بـكَ أن يـعـلُـو فـيـطـغوني (٤)

ثم أرسل النجاشي وفداً من خيار أصحابه، إلى الرسول ﷺ، فأكرمهم رسول الله ﷺ وأحسن وفادتهم، وبالغ في خدمتهم، حتى إن أصحابه قالوا له: نكفيك هذا يا رسول الله! فقال: هؤلاء قد خدموا صحبي يوم كانوا في الحبشة.

وعندما علم النبي ﷺ بموت النجاشي، حزن لموته وقال: إن أخاكم النجاشي قد مات، وقام وصلّى عليه.

وكان من أثر هذه المعجزة أن انتشر الإسلام في تلك الديار انتشاراً عظيماً بين الألوف منهم بمجرد الدعوة الخالصة التي قام بها جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ورفاقه بها، خلال تلك الفترة البسيطة، ولو أنهم ظلوا هنالك، مدة أطول، لم يبق في بلاد الأحباش من يعتنق غير دين محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام.

وبهذا تجلّتْ حكمة الرسول ﷺ في انبعاث بعض أصحابه إلى الحبشة، وهو في حال ضعفه، وهي أن تلك الهجرة للحبشة آتت ثمارها والحمد لله رب العالمين.

---

(١) المغلغلة: الرسالة ترسل من بلدٍ إلى بلدٍ.
(٢) المضطهد: المغلوب على أمره الذي لا يزال يؤذى، وهو الذليل.
(٣) عالوا: جاروا وظلموا.
(٤) أنظر هذه الأبيات في سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٥٣.

٩٨ ــ عتبة بن ربيعة يفاوض محمداً ﷺ بجانب الكعبة

ذكر العلامة الكبير عبد الرحمن عزام في كتابه[١]: أن عتبة بن ربيعة أخذ يفاوض محمداً ﷺ بجانب الكعبة فيقول له: يا ابن أخي! إنك منّا، حيث قد علمتَ، من البسطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيتَ قومك بأمرٍ عظيم، فرَّقْتَ به جماعتهم، وسفَّهتَ به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفَّرتَ من مضَى من آبائهم؛ فاسمع مني أعرضْ عليكَ، أموراً تنظر فيها، لعلكَ تقبل بعضها؛ فقال محمدٌ: قل يا أبا الوليد! قال عتبة: إن كنتَ إنما تريدُ بما جئتَ به مالاً، جمعنا لكَ من أموالنا، حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنتَ تريدَ به شرفاً، سوَّدناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك؛ وإن كنت تريد به مُلْكاً ملّكناكَ علينا؛ وإن كان هذا الذي يأتيك رئيّاً تراه، لا تستطيعُ رَدَّهُ عن نفسكَ، طلبنا لكَ الطبَّ، وبذلنا فيه أموالَنا، حتى نبرئكَ منه، فإنه ربما غلب التابعُ على الرجل، حتى يُداوَى منه.

فلما فرغ، قال له سيدنا محمد ﷺ: استمع مني يا أبا الوليد! ﴿بسم الله الرحمن الرحيم، حم تنزيلٌ من الرحمن الرحيم، كتابٌ فُصِّلَتْ آياتهُ قرآناً عربياً لقوم يعلمون، بشيراً ونذيراً، فأعرض أكثرُهم فهم لا يسمعون﴾[٢]. ومضَى يتلو، وكان ذلك كل جوابه لما عرضَتْ قريش.

فلو لم يكن الحقُّ الذي ملأ نفسه، هو مطلبه الأسمىٰ، لوجد في رفق قومه المخاصمين له، ما يطفىء من حماسته، و يسكن من ثورته على دينها وآلهتها.

٩٩ ــ طلبُ قريشٍ الصلحَ يومَ مَرَضِ أبي طالب

لقد شعَرتْ قريشٌ بالفشل في مقاومة الرسولِ الكريم، بكل الوسائل وأيقنت أنه لا سبيلَ لإخضاعهِ، أو استمالته؛ ولكنها كانت تزعم أنه لم يردَّها عنه، وعن التنكيل به، والقضاء عليه، إلا حماية عمه أبي طالب له؛ ثم إنها

(١) بطل الأبطال ص ٦.

(٢) الآيات (١-٤) من سورة فصلت. المحقق.

علمتْ أن أبا طالب يعالجُ أنفاسَهُ الأخيرة، عندئذٍ خشيتْ من الفضيحة تلحقها بعد موت أبي طالب، إذا هي لم تستطع أن تنال من محمد ﷺ منالاً؛ فاجتمع رهط منهم قوامه من: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهلٍ عمرو بن هشام، وأمية بن خلف، وأبو سفيان بن حرب وغيرهم، من أشراف قريش، وتداولوا في الأمر، وقرَّ رأيُهم على أن يعقدوا صلحاً مع محمد بن عبد الله ﷺ، على أساس عدم الاعتداء، ليأمت كل منهم جانب مواطنه؛ ثم مشوا إلى أبي طالب، وقالوا: يا أبا طالب! إنك منا حيث علمتَ، وقد حضركَ ما ترى، وتخوَّفنا عليكَ، وقد علمتَ الذي بيننا وبين ابن أخيكَ، فادْعُه فخذْ له مِنا، وخُذْ لنا منه، ليكفَّ عنّا[1] ونكفّ عنه؛ وليدعنا وديننا، ونَدَعَهُ ودينه؛ فبعث إليه أبو طالب فجاءه، فقال: يا ابن أخي! إن هؤلاء أشراف قومك، قد اجتمعوا لك، ليعطوك وليأخذوا منك، فقال رسول الله ﷺ: نعم كلمة واحدة تعطونيها، تملكون العرب، وتدين لكم بها العجم، فقال أبو جهل: وأبيك وعشر كلمات، قال: تقولون لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه، فصفَّقُوا بأديهم تعجباً، ثم قالوا: أتريد يا محمد أن نجعل الآلهة، إلهاً واحداً؟ إن أمرك لعجيب، ثم قال بعضهم لبعض: إنه والله! ما هذا الرجلُ بمعطيكم شيئاً مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه؛ ثم انصرفوا، فقال أبو طالب: والله! يا ابن أخي، ما رأيتُكَ سألتَهم شططاً.

وأنزل الله تعالى في هؤلاء الرّهط، الذين اجتمعوا إليه، وقال لهم ما قال، وردوا عليه ما ردوا، قوله: ﴿ص والقرآن ذي الذكر، بل الذين كفروا في عزَّة وشقاق﴾ إلى قوله: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً، إن هذا لشيء عجابٌ، وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم، إن هذا لشيء يُرادُ، ما سمعنا بهذا في الملّة الآخرة، إن هذا إلا اختلاق﴾[2].

---

(١) لم يذكر المؤلف كلمة (عنا). المحقق.

(٢) من سورة ص الشريفة الآيات (١-٧).

١٠٠ ــ وفاة أبي طالب في سنة (٦٢٠) م

كان أبو طالب بن عد المطلب من أشدّ الناس دفاعاً عن رسول الله ﷺ ــ كما علمت أيُها القارىء الكريم سابقاً ــ لكن نفسه لم تطاوعه على اعتناق الإسلام وفراق دين آبائه.

وروى أن النبيَّ ﷺ قال: «ما زالتْ قريشٌ كاعةً عني[1]، حتى مات عمي»، وكان النبيُّ ﷺ يحبُّ أن يُسلمَ عمُّه، لأنه هو الذي كفله، وذاد عنه إلى آخر لحظةٍ من حياته.

ولما اشتد مرضهُ قال له رسول الله ﷺ: يا عم! قُلْها، أستحل لكَ بها الشفاعة يوم القيامة ــ يعني قل الشَّهادة ــ فقال له أبو طالب: يا ابن أخي! لولا مخافة المسبة، وأن تظنَّ قريشٌ أنما قلتُها جزعاً من الموت لقلتُها، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿إنكَ لا تهدي من أحببتَ، ولكن الله يهدي من يشآء﴾[2] على أن الذي منعه من الإسلام، هو خوف الملام والشتم، وأنه فارق دين آبائه، واتبع دين ابن أخيه وقد ربّاهُ صغيراً؛ فالمشهور أنه مات كافراً، وكان له من الولد: جعفر، وعلي، وعقيل، وطالب، وأم هانىء واسمها فاختة، وجمانة، وكلهم أعقب إلا طالباً، وكان أبو طالب أعرج، وتوفي بعد النبوَّة بعشر سنين وقبل الهجرة بثلاث سنين، بالغاً من العمر نحو ثمانين سنة[3].

وجاء في كتاب أسد الغابة: أنه لما اشتدَّ بأبي طالب مرضُه، دعا بني عبد المطلب، فقال: إنكم لن تزالوا بخير ما سمعتم قولَ محمدٍ، واتبعتم أمرَهُ، فاتبعوه وصدقوه تُرشدوا.

ولما مات أبو طالب قال له رسول الله ﷺ: رحمك الله وغفر لكَ، لا أزال استغفر لك حتى ينهاني الله؛ فأخذ المسلمون يستغفرون لموتاهم الذين ماتوا وهم مشركون، فأنزل الله قوله: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين

---

(١) الكاعة: جمع كائع وهو الجبان، أراد أنهم كانوا يجبنون عن أذى النبي في حياته.

(١) أنظر كتاب محمد رسول الله ص ١٤٠.

(٣) جزء من الآية رقم (٥٦) من سورة القصص.

ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبيّنَ لهم أنهم أصحابُ الجحيم﴾[1].

١٠١ ــ وفاة سيدة النساء خديجة عام (٦٢٠) م

ذكر مؤلف كتاب (محمد رسول[2] الله): أن السيدة خديجة رضي الله عنها قد توفيت بعد أبي طالب، بثلاثة أيام، وقيل بأكثر من ذلك، في شهر رمضان قبل الهجرة بثلاث سنين، ولها من العمر خمس وستون سنة، وكان مقامها مع رسول الله ﷺ بعد ما تزوجها أربعاً وعشرين سنة وستة أشهر؛ ودفنها رسول الله ﷺ بالحجون، ولم تكن الصلاة على الجنائز يومئذٍ؛ وحزن عليها النبي ﷺ ونزل في قبرها؛ وقد تتابعت على رسول الله ﷺ بموت أبي طالب، وموت خديجة، المصائب، لأنهما كانا من أشد المعضدين له، المدافعين عنه؛ وكان النبيُّ ﷺ كثيراً ما يذكر خديجة بنت خويلد زوجه، ويترحّم عليها؛ ولا غرابة فهي أول نفس زكية صدَّقَتْ رسول الله ﷺ، وآمنت بما جاء به عن ربه، وقد جاء منها بأولاده كلهم، ما عدا إبراهيم ــ وقد مر سابقاً ــ ذكر أولاده منها. لذا فقد حزن عليها النبي ﷺ حزناً شديداً، لما كانت عليه من الرقة لرسول الله ﷺ، ومحاجزة الكفار عنه، لما لها من الجاه في عشيرتها بني أسد.

وبعد موت أبي طالب وخديجة، تحركت قريش، ووجهت سهامها وأذاها إلى رسول الله ﷺ[3] حتى تعمَّد أحد المشركين نثر التراب على رأسه ووجهه، كما قصَدهُ بعضُهم بطرح سلى الشاة وأقذارها عليه وهو يصلي.

وسُمي العام الذي مات فيه أبو طالب وخديجة (عام الحزن) ولم ينس رسول الله ﷺ محبته لخديجة بعد وفاتها، وكان دائماً يثني عليها؛ وقد بشرها قبل وفاتها ببشارة جبريل عليه السلام حيث قال: «بشّر خديجة ببيتٍ في الجنة من قصبٍ»[4].

---

(١) من سورة براءة آية (١١٥).

(٢) أنظر كتابه ص ١٤١.

(٣) لم يذكر المؤلف لفظ (إلى رسول الله ﷺ). المحقق.

(٤) ببيت من قصب: الزبرجد الرطب المرصع بالياقوت فهو معدٌّ للسيدة خديجة في جنة الله ورضوانه.

١٠٢ ــ سفر الرسول ﷺ إلى بلدة الطائف

وهي مدينة تقع في الجهة الشرقية من مكة المكرمة، وتبعد عنها نحواً من اثنين وسبعين ميلاً، وقيل: (٦٥) ميلاً، وهي مصيف صحي لأهل مكة مشهورة بجودة مناخها، وخصب أرضها، وفواكهها، ولا سيما العنب والموز والرمان والخوخ والإجّاص، وفيها من المناظر الطبيعية ما يفتن الرائي إليها، وقد زرتها عام (١٩٥٥) م لزيارة الصحابي الجليل ابن عم المصطفى ﷺ (عبد الله بن عباس) رضي الله عنهما ويقع مسجدها في وسط البلدة، الذي فيه الضريح.

وقد سافر إليها رسول الله ﷺ لثلاث بقين من شوال سنة عشر من المبعث سنة (٦٢٠) م ومعه مولاه زيد بن حارثة، يلتمس من ثقيف، النصرة، فعمد إلى جماعةٍ من أشراف ثقيف، ودعاهم إلى الله، فقال واحد منهم: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك؟ وقال الآخر: والله! لا أكلمك أبداً، لأنكَ إن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنتَ أعظم خطراً من أن أرَدّ عليك الكلام،ولئن كنتَ تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك.

وأغروا به[1] سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويرمونه بالحجارة ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس، وألجأوه إلى حائطٍ ــ بستانٍ ــ وقد أدموا رجليه؛ فلما اطمأنَّ ورجع عنه السفهاء، قال عليه الصلاة والسلام: «اللهمَّ! إليك أشكُو ضعْفَ قُوَّتي، وقِلَّةَ حيلتي، وهواني على الناس، اللهمَّ يا أرحم الراحمين، أنتَ ربُّ المستضعفين، وأنت ربي، إلى مَنْ تكلني؟ إلى بعيد يتجهمُني، أم إلى عدوٍ ملكتَهُ أمري، إن لم يكن بكَ عليَّ غَضَبٌ فلا أبالي، ولكنْ عافيتَكَ هي أوسعُ لي، أعوذُ بنورِ وجهكَ الذي أشرقَتْ له الظلماتُ، وصَلَحَ عليه أمرُ الدنيا والآخرة، من أن تُنْزِلَ بي غَضَبَكَ، أو يَحِلَّ عليَّ سَخطُكَ،لك العتبَى ــ أي الرضا ــ حتى ترضى، ولا حَوْلَ ولا قوةَ إلا بكَ».

وهذا الدعاء مشهور، بدعاء الطائف.

---

(١) لم يذكر في الأصل كلمة (به). المحقق.

فلما رأى ابنا ربيعة عتبةُ وشيبةُ وسمعا الدعاء، وكانا في البستان وهما يملكانه[1]، تحرّكتْ له رحمهما، فدعَوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له (عَدّاس) فقالا له: خُذْ قِطْفاً من العنب، وضَعْهُ في ذلكَ الطبق، ثم اذهَبْ به إلى ذلك الرجل، فقل له: يأكل منه. ففعل عدّاسٌ، ثم أقبلَ به حتى وضَعَهُ بين يدي رسول الله ﷺ، فلما وضع رسول الله ﷺ يَدَهُ قال: بسم الله، فنظر عداس إلى وجهه ثم قال: والله! إن هذا الكلام ما يقولُه أهلُ هذه البلدة؛ قال له رسول الله ﷺ: ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس؟ وما دينُكَ؟ قال: أنا نصراني، وأنا رجلٌ من أهل (نينوَى) — هي قرية يونس بن متى عليه السلام بالموصل — فقال له رسولُ الله ﷺ: أمن قرية الرجلِ الصالح يونس بن متى؟ قال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متّى؟ قال رسول الله ﷺ: ذلك أخي، كان نبياً وأنا نبيٌّ، فأكبَّ عداسٌ على رأس رسول الله ﷺ، يقبّلُ رأسَهُ ويديه ورجليه؛ فقال ابنا ربيعة أحدُهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءهما عداس، قالا له: ويلك يا عداس! مالك تقبّلُ رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال يا سيدي! ما في الأرض خيرٌ من هذا الرجل، لقد أخبرني بأمر لا يعلمُه إلا نبي؟ فقالا: ويحك يا عداس! لا يصرفَنَّكَ عن دينك، فإن دينك خيرٌ من دينه؛ ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف، راجعاً إلى مكة، حين يئس من خير ثقيف، فلما رجع وجد قومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه، إلا قليلاً مستضعفين ممن آمن به.

وجاء في تاريخ الطبري: أن بعضهم ذكر: أن رسول الله ﷺ لما انصرف من الطائف مريداً مكة، مرَّ به بعضُ أهل مكة، فقال له رسول الله ﷺ: هل أنت مبلغ عني رسالةً أرسلك بها؟ قال: نعم قال: ائتِ الأخنس بن شريق، فقل له: يقولُ لكَ محمدٌ ﷺ: هل أنتَ الحليف لا يجيرُ على الصريح، فأتى النبيَّ ﷺ فأخبَرهُ قال: تعودُ؟ قال: نعم، قال: ائتِ سُهيلب بن عمرو فقلْ له: إن محمداً يقولُ: هل أنت

---

(١) في الأصل (يملكانها) بالتأنيث. والصواب ما أثبتناه. المحقق.

لؤي، لا تجير على بني كعب، فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره، قال: تعودُ؟ قال: نعم، قال: ائت المطعم بن عدي فقل له: إن محمداً يقول لك: هل أنت مجيري حتى أبلغ رسالات ربي؟ قال: نعم، فلما وصل إلى المطعم وقال له: إن محمداً يقول لك هل أنت مُجيري حتى أبلغ رسالات ربي؟ قال: فليدخل، فرجع الرجل إلى الرسول ﷺ فأخبره، وأصبح المطعم قد لبس سلاحه هو وبنوه وبنو أخيه فدخلوا المسجد، فلما رآه أبو جهلٍ قال: أمجيرٌ أم متابعٌ؟ قال: بل مُجير، قال: قد أجرنا من أجرتَ؛ فدخل النبي ﷺ مكةَ وأقام بها، فدخل يوماً المسجد الحرام والمشركون عند الكعبة، فلما رآهُ أبو جهلٍ قال: هذا نبيكم يا بني عبد مناف! قال عتبةُ بن ربيعة: وما تنكر أن يكون منا نبي أو ملك؟ فأخبر بذلك النبي ﷺ أو سمعه فأتاهم فقال: أما أنت يا عتبة بن ربيعة! فوالله ما حميت لله ولا لرسوله، ولكن حميت لأنفك، وأما أنت يا أبا جهل! فوالله لا يأتي عليك غير كبير من الدهر حتى تضحكَ قليلاً وتبكي كثيراً، وأما أنتم يا معشر الملأ من قريش! فوالله لا يأتي عليكم غير كبير من الدهر حتى تدخلوا فيما تنكرون وأنتم كارهون. ويقال: إن رسول الله ﷺ أقام بالطائف أكثر من عشرة أيام، يدعوهم إلى الله، ويلتمس منهم النصرة، ولكنهم خذلوه؛ وما التمس النصرة من ثقيف إلا بعد أن توفي أبو طالب وخديجة: أضف إلى ذلك أن فريقاً من المسلمين قد هاجروا إلى الحبشة كما ذكرت سابقاً؛ ولما عاد ﷺ من الطائف لم يستطع الدخول لمكة إلا بجوار رجل كالمطعم بن عدي.

وفي رجوعه ﷺ من الطائف مرَّ به نفرٌ من جنّ نَصيبين وهو يقرأ سورة (الجنّ)(١) فاستمعوا له، وآمنوا به، ولم يشعر بهم ﷺ حتى نزل عليه قوله تعالى: ﴿وإذا صرفنا إليك نفراً من الجنّ يستمعون القرآن فلما حضروه

---

(١) الثابت أن سورة الجن نزلت بعد ذلك. بدليل مطلع السورة ﴿قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن﴾ ولم يعلم الرسول ﷺ باستماع الجنّ إليه عندما كان يقرأ بنخلة بين الطائف ومكة أثناء عودته من الطائف. المحقق.

قالوا أنصتوا، فلما قُضي ولوا إلى قومهم منذرين﴾[1] وكانوا سبعة أو أكثر[2].

١٠٣ ــ عرضُ رسول الله ﷺ نفسه على القبائل

قال ابن هشام في سيرته[3]: قال ابن إسحاق: ثم قدم رسول الله ﷺ مكة، وقومُه أشدّ ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه، إلا قليلاً مستضعفين، ممن آمَن به، فكان رسول الله ﷺ يَعْرِضُ نفسه في المواسم، إذا كانت؛ على قبائل العرب يدعوهم إلى الله وحده، ويخبرهم أنه نبي مرسل، ويسألهم أن يصدّقوهُ ويمنعوه، حتى يبيّنَ عن الله ما بعثه به.

وعن عبيد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: سمعتُ ربيعة بن عبَّاد يحدثه أبي، فقال: إني لغلامٌ شابٌّ مع أبي بمنًى، ورسول الله ﷺ يقفُ على منازل القبائل من العرب، فيقول: يا بني فلان! إني رسولُ الله إليكم، يأمركم أن تعبدُوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعُوا ما تعبدون من ما بعثني به[4]؛ قال: وخلفه رجلٌ أحول وضيء، له غديرتان[5] ــ أي ذؤابة من الشعر ــ عليه حُلّة عدنية، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله، وما دعا إليه، قال ذلك الرجلُ: يا بني فلان! إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا ــ تتركوا ــ (اللات والعزّى) من أعناقكم، وحلفاءكم من الجنّ من بني مالك بن أقيش، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تُطيعوهُ، ولا تسمعُوا منه، قال: فقلتُ

---

(١) الآية رقم (٢٩) من سورة الأحقاف. المحقق.

(٢) أنظر كتاب محمد رسول الله ص ١٤٤. وكتاب (حياة محمد) لإميل درمنغم. نقله للعربية عادل زعيتر ص ١٥٠.

(٣) الجزء الثاني ص ٣١.

(٤) في هذا الكلام نظر حيث يزعم المؤلف أن عبيد الله يخبر أن أباه العباس بن عبد المطلب قال إني لغلام شاب مع أبي (وأبوه هو عبد المطلب جد النبي ﷺ) ورسول الله... الخ والمعروف أن عبد المطلب مات والنبي طفل ابن ثمان سنوات. والصواب أن الذي حدث بهذا هو ربيعة بن عباد عن أبيه عباد كما في ابن هشام. المحقق.

(٥) الصواب (ذؤابتان). المحقق.

لأبي: يا أبتِ من هذا الذي يتبعه؟ ويردُّ عليه ما يقول؟ قال: هذا عمه عبد العزَّى بن عبد المطلب (أبو لهب).

وأتى كِنْدةَ في منازلهم، وفيهم سيد لهم يقال له: مليح، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم نفسه، فأبَوْا عليه. وأتى كلباً في منازلهم إلى بطنٍ منهم يقال لهم: بنو عبد الله، فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه، حتى إنه ليقول لهم: «يا بني عبد الله! إن الله عز وجل قد أحسن اسمَ أبيكم» فلم يقبلوا منه، ما عرض عليهم.

وأتى بني حنيفة في منازلهم، فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه فلم يكنْ أحدٌ من العرب، أقبحَ عليه رداً منهم.

وأتى بني عامر بن صعصعة، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم نفسه، فقال له رجل منهم يقال له (بيحرة بن فراس) ابن عبد الله بن سلمة بن قُشَيْر بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة: والله! لو أني أخذتُ هذا الفتى من قريشٍ لأكلتُ به العرب، ثم قال له: أرأيتَ إنْ نحنُ تابعناكَ على أمركَ، ثم أظهرَكَ الله على من خالفَكَ، أيكون لنا الأمرُ من بعدكَ؟ قال ﷺ: «الأمرُ إلى الله يضعه حيث يشآء» قال: فقال له: أفنهدفُ نحورنا ــ أي نصيرها هدفاً ــ للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمرُ لغيرنا؟ لا حاجة لنا بأمرك، فأبوا عليه، فلما صَدَرَ الناسُ، رجعَتْ بنُو عامرٍ إلى شيخ لهم، قد كانت أدركتْهُ السنُّ حتى لا يقدر أن يوافي معهم المواسم، فكانوا إذا رجعوا إليه حدَّثوهُ بما يكون في ذلك الموسم؛ فلما قدموا عليه ذلك العام سألهم عما كان في موسمهم، فقالوا: جاءنا فتًى من قريشٍ، ثم أحدُ بني عبد المطلب، يزعم أنه نبيٌّ، يدعونا إلى أن نمنعه، ونقوم معه، ونخرج به إلى بلادنا، قال: فوضع الشيخُ يديه على رأسه، ثم قال: يا بني عامر! هل لها من تَلاَفٍ؟ هل لدُنَاباها[1] من مطلب؟ والذي نفس فلان بيده! ما تقوَّلها إسماعيليٌّ قط، وإنها لحق، فأين رأيكم كان عنكم؟. وهكذا كان رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى الله تعالى، ويطلب حمايته من أعدائه.

(١) (لِدُناباها). في الأصل (لُدُناباها) بضم اللام. والصواب ما أثبتنا. المحقق.

فلما أراد تعالى إظهار دينه، وإعزاز نبيه محمد ﷺ وإنجاز موعده له، خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقي فيه النفرَ من الأنصار؛ فعرض نفسه على القبائل كما كان يصنع في كل موسم، فبينما هو عند العقبة، لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً.

١٠٤ ـ الإسراء والمعراج لحبيب الله ومصطفاه ﷺ في سنة (٦٢١)م

في هذه الفترة من الزمن وفي عام (٦٢١) م أراد الله تبارك وتعالى وهو السميع العليم، أن يمنَّ على نبيه ورسولِهِ وحبيبِهِ ومصطفاه، برحلة جوية علوية، يُريهِ فيها الكثيرَ من آياتهِ، وجليلَ قدرتهِ وعظمةَ مخلوقاتهِ؛ ليزداد علماً و يقيناً بحقيقة ما وراء هذه الكائنات الموجودة، في عالم غير منظور، هو أعظمُ بكثير مما تراهُ الناسُ بأبصارهم، وتتصوَّرُه بعقولهم، وليكون ملماً بطرفٍ مما أعَدَّهُ اللهُ من عذاب للمذنبين، حتى يكونَ لكلامه تأثيرٌ في سامعيه، ففرقٌ بين من يتكلم عن شيءٍ أمرَ به، ولم يعلم حقيقته، ومن ينذر بأمرٍ وقف عليه بنفسه، وأدرك مبلغ خطره وأذاه؛ وأراد الله تعالى أن يطلع رسولَهُ الأمينَ، على عجائب ملكوته، وأن يفرضَ عليه، وعلى أمتـه، أعلى مظاهر العبودية له سبحانه وتعالى، ففرض عليه الصلاة، التي هي عماد الدين وسنامه والصلة بين العبد الفقير، وربه القدير، القائل: ﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾[1].

فكان الإسراء والمعراج في هذه الليلة المباركة، ليلة الأثنين من شهر رجب، وهذا هو المشهور[2]، وعليه عمل الناس، وبه جزم ابن حزم وغيره؛ وكان الإسراء والمعراج قبل الهجرة بسنة.

وقد أثبتها الله في كتابه العزيز، وأشار إلى معجزة الإسراء بقوله: ﴿سبحانَ الذي أسرَى بعبدِهِ ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، الذي باركنا حوله، لِنُرِيَهُ من آياتِنَا، إنه هو السميعُ البصيرُ﴾[3].

---

(١) جزء من الآية رقم (١٠٣) من سورة النساء.

(٢) لم يثبت حدوث الإسراء في شهر رجب. المحقق.

(٣) من سورة الإسراء الشريفة آية (١).

أيها السادة القراء! إن العرب لا تستعمل كلمة (سبحانَ) إلا لإظهار تعجبها من الأمر الغريب، وهو هنا، ما أشار إليه بقوله: ﴿الذي أسرى بعبده ليلاً...﴾وذكر الله السبب في هذا الإسراء بقوله: ﴿لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾، كما أشار الله تبارك وتعالى إلى المعراج في سورة النجم الشريفة، في معرض الإخبار عن رؤية نبيه محمد ﷺ لجبريل على صورته الحقيقية مرة أخرى في السماء، كما رآه في الأرض بغار حراء من قبل، حيث قال الله تعالى: ﴿ولقد رآه نَزْلَةً أخرَى، عند سدرة المنتهى، عندها جنةُ المأوَى، إذ يغشى السدرة ما يغشى، ما زاغ البصر وما طغَى، لقد رأى من آيات ربِّه الكبرى﴾ (١).

إذاً فلا جدال في صحة الإسراء والمعراج.

اللهُ جلَّ شأنهُ، هو المسيطر على الكون والخلائق، وهو المهيمنُ على السُّنَنِ الكونية، والقوانين الأرضيَّة والسماوية: ﴿بديعُ السمواتِ والأرض، وإذا قضَى أمراً، فإنما يقولُ له كن فيكون﴾ (٢). وقال جل وعلا: ﴿وما قَدَرُوا الله حقَّ قدرِه، والأرضُ جميعاً قبضتُه يومَ القيامةِ، والسموات مطويَّات بيمينهِ، سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ (٣).

ومن آياتِ قدرته سبحانه وتعالى، آية الإسراء والمعراج، التي يحتفل المسلمون في جميع أقطار العالم بذكراها (٤)، فتهتز مشاعرهم لجلال قدسيتها ومغزاها، وجليل آثارها ومرماها.

وفي هذا الحادث العظيم، آيات بينات، وعظات بالغات، فإن هذا الرسول الأمين، الذي بعثه الله رحمة للعالمين، وهادياً للخلق أجمعين، جيلاً بعد جيل، إلى يوم القيامة؛ قد أراد اللهُ له الكمال، بأن يجعله سبحانه وتعالى في سعةٍ من

---

(١) من سورة النجم الشريفة الآيات (١٣-١٨).

(٢) الآية رقم (١١٧) من سورة البقرة. المحقق.

(٣) الآية رقم (٦٧) من سورة الزمر. المحقق.

(٤) وما كان سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين مع شدة حبهم لرسول الله ﷺ ما كانوا يحتفلون بالإسراء والمعراج. المحقق.

العلم، والإحاطة بأسرار الكون والملكوت، وأن يبلغ به في أنواع المعارف الكونية درجةً لا يدرك إلا الله مداها، و يصل به إلى درجةٍ من الفضل، لا يناها أحدٌ سواه عليه الصلاة والسلام، وفي ذلك تثبيتٌ لفؤادهِ، وقوةٌ له على تبليغ رسالته العالمية الخالدة. فالإسراء والمعراجُ: مظهرٌ للقدرة الإلهية، وتكريمٌ وكمالٌ لسيدنا محمدٍ ﷺ نبي الإنسانية، وحفاوة كبرى، بوضع ركن عظيم من أركان الإسلام وقواعد الشريعة المحمدية، وهو فريضة الصلاة.

كرم اللهُ عبدَه محمداً ﷺ بما لم يكرّم به نبياً قبله، فدعاهُ إلى حضرته القدسية، وإلى رحلةٍ مباركةٍ في ملكوت السموات والأرض، وقد أرسل اللهُ إليه، أمينه جبريل عليه السلام لمرافقتهِ، فيحمله على البراق محفوفاً بالقدرة الإلهية، والعناية الربانية؛ وسرَى ليلاً من المسجد الحرام، إلى المسجد الأقصى؛ ليرى من آيات الله، ما شاء اللهُ أن يرَى، فتطوى له الأرض بأمر الله، ويخضع الهواء، فيصل إلى بيت المقدس، و يلتقي هناك بإخوانه من الأنبياء والمرسلين، و يصلي بهم إماماً، في المسجد الأقصى؛ ثم يزيد الله تعالى عليه في الفضل والتكرم فيرفعه إلى السموات العلى، كما يروي الحديث: العلامة ابن الخطيب الشربيني في تفسيره السراج المنير في الجزء الثاني ص ٢٣٥، كما عدّد أحاديث متنوعة الروايات وكلها تثبت أن الإسراء والمعراج كان بروح وجسد النبي ﷺ، وعليه الأكثرون، وتواترت الأخبار الصحيحة على ذلك.

جاء في كتاب الشفاء للقاضي عياض: أنه ذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه ﷺ أسريَ بجسده، وفي اليقظة، وقال: هذا هو الحق، وهذا قول عبد الله بن عباس، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك، وحذيفة بن اليمان، وعمر بن الخطاب، وأبو هريرة، ومالك بن صعصعة، وأبي حبة البدري، وعبد الله بن مسعود، والضحاك، وسعيد بن جبير، وقتادة، وابن المسيب، وابن شهاب، وابن زيد، والحسن وإبراهيم ومسروق ومجاهد، وعكرمة وابن جريج رضي الله عنهم.

وقد عقدت مجلة لواء الإسلام اجتماعاً في سنة ١٣٧٣هـ وفي شهر رجب ص ٦٩٠ وحضره كبار علماء الأزهر ومن علماء سورية، نحو[1] من عشرين، و بحثوا

(١) في الأصل (نحواً) بالنصب. والصواب ما أثبتناه. المحقق.

هذا البحث مفصلاً، وكتبوا خلاصة جلستهم متفقين: (اتفق رأي الحاضرين: على أن الإسراء كان بالروح والجسد، وأما المعراج فقد اتفق الحاضرون على أن الأدلة الواردة فيه تحتمل الأمرين، وبعض الحاضرين يرجح أن المعراج كان بالروح والجسد، وبعضهم يرجح أنه كان بالروح فقط، وبعضهم توقف. وقال: إن واقعة المعراج سواء كانت بالروح أو الجسد لها معناها في سمو الرسالة المحمدية، وإشعار النبي ﷺ أنه: إن أهانه قومُه فهو موضع إجلال الجن والملائكة). اهـ.

وأما قول القلة من العلماء القائلين: أنه ما أُسريَ إلا بروحه، وحكى ذلك ابن جرير الطبري في تفسيره، عن حذيفة أنه قال: ذلك رؤيا، وأنه ما فقد جسد رسول الله ﷺ وإنما أسري بروحه، وحكى هذا القول عن عائشة وعن معاوية، وحديث عائشة ليس بإثبات لأنها لم تكن حينئذٍ زوجةً[1] لرسول الله ﷺ وهي القائلة: (والله! ما فقد جسد رسول الله ﷺ ولكن عرج بروحه) وأن معاوية ابن أبي[2] سفيان يقول بقول عائشة.

وأجبنا بما هو الثابت: أن عائشة كانت صغيرة[3]، ومعاوية لم يكن يومها مسلماً، كما هو مصرح في كتاب طبقات ابن سعد في الجزء السابع ص ٤٠٦. والقول قول الجمهور: إذ لا فضيلة للحالم ولا مزية للنائم. لذا فإني أقول مصرحاً: إن الأدلة كثيرة منها:

١ ــ لو كان الإسراء والمعراج رؤيا منامية أو بالروح فحسب فلا فضيلة للحالم، ولا مزية للنائم، فقد يرى الإنسان نفسه[4] طائراً في الهواء، أو غائصاً في الماء ثم يقصّ[5] علينا فلا نستغرب رؤياه ولا نتعجب من حديثه.

---

(١) الأصح (زوجاً). المحقق.

(٢) في الأصل (معاوية بن سفيان) بدون كلمة (أبي). المحقق.

(٣) وأيضاً عائشة لم ترو حديثاً عن رسول الله ﷺ بما تقول وإنما هي مجتهدة. وكل مجتهد يخطىء ويصيب. المحقق.

(٤) لم يذكر المؤلف كلمة (نفسه). المحقق.

(٥) (ثم يقص). في الأصل (وقص). المحقق.

٢ ــ القرآن الكريم ينص بقوله: ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ﴾ أي محمد. ولفظ العبد، يشمل الجسد والروح معاً، والقرآن لم يقل بجسده ولا بروحه، بل قال: بعبده.

٣ ــ والآية تقول: (سبحان) والعرب لا تستعمل كلمة (سبحان) إلا لإظهار تعجبها من الأمر الغريب، وحادث الإسراء والمعراج غريب.

٤ ــ إن الإسراء والمعراج آية ناطقة بقدرة الله، ومنكرها لا يقدّر قدرة الخالق وهو المتصرف بالكائنات علوها وسفليها.

٥ ــ والإسراء والمعراج معجزة شاهدة على صدقه، ولا يسعنا إنكارها لأنها أمر خارق للعادة، يؤتى بها للتصديق، وكأن الله العلي القدير يقول: صدق عبدي فيما يحدثكم، فلو كانت رؤيا منامية، أو بالروح فحسب، لما كانت معجزة.

٦ ــ ولو كانت مناماً، لأخبر النبيُّ ﷺ بذلك أصحابه.

٧ ــ ولو كانت مناماً أو بالروح، لما استغربته قريش، ولما تعجبت منه، ولا عارضت رسول الله ﷺ، وأنكرته عليه، وما كانت الآثار التي رآها عن الزناة وشربة الخمر والمغتابين والنمامين وأكلة السحت والربا، لها أي تأثير.

٨ ــ ثم الروح لا تحمل على البراق يا معشر أولي الألباب[1]. والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى أسرى بعبده محمد ﷺ من المسجد الحرام، إلى المسجد الأقصى، كما أخبر عباده، وكما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أن الله حمله على البراق، كما يحمل الآن راكب السفينة الفضائية بصاروخ إلى القمر والمريخ حسب علمه الحديث وهو بشر ــ فما بالك بقدرة القادر سبحانه. حمله على البراق، حتى أتى به بيت

(١) ويضاف إلى الأدلة التي ذكرها المؤلف دليل آخر وهو شربه ﷺ ماء الإناء في طريق عودته، وإرشاده العير على ناقتهم الضالة أثناء ذهابه إلى بيت المقدس، وتصديق العيرين لهذين الخبرين كما صحت بذلك الروايات. ودليل آخر وهو أنه لو كان رؤيا منامية ما كذب القوم وما ارتدّ من ارتدّ من ضعاف الإيمان. المحقق.

المقدس، فصلى بقدسه الحرام، بالأنبياء والرسل، فأراه مولاه من الآيات؛ قال الفخر الرازي في تفسيره: قال أهل التحقيق: إن الذي يدل على أنه تعالى أسرى بروح محمدٍ وجسده من مكة إلى المسجد الأقصى، القرآن والخبر، أما القرآن فهذه الآية: ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً.. ﴾ وتقرير الدليل أن العبد اسم لمجموع الجسد والروح، فوجب أن يكون الإسراء حاصلاً لمجموع الجسد والروح. أما الخبر فهو الحديث المروي في الصحاح وهو مشهور، وهو يدل على الذهاب من مكة إلى بيت المقدس، ثم منه إلى السموات العلى. ا هـ.

والمعراج به ﷺ ليطلع على عجائب الملكوت. كما قال تعالى: ﴿لنريه من آياتنا الكبرى[1]﴾ ثم رؤياه ﷺ لجبريل عند سدرة المنتهى في العالم العلوي، رآه كما رآه في العالم الأرضي فهو قوله تعالى: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى﴾ وقد حظي بخطاب رب العزة حيث أوحى إليه بفريضة الصلاة.

١٠٥ ــ تأثير خبر الإسراء في قريش

لما أصبح رسولُ الله ﷺ، أخبر الناس بما رآه فصدَّقه الصديقُ أبو بكر رضي الله عنه وكلُّ من آمنَ به، إيماناً قوياً؛ وكذَّبه المشركون، واستوصفوهُ مسجدَ بيتِ المقدس لأنهم يعرفونه، فوصفه لهم، وسألوه عن أشياء في المسجد، فمثل بين يديه، فجعل ينظر إليه و يصفه، ويعدُّ أبوابه لهم باباً باباً، فيطابق ما عندهم، وسألوه عن عيرٍ لهم فأخبرهم بها، و بوقت قدومها، فكان كما أخبر.

ويروى أنه ﷺ لما رجع إلى مكة من ليلته، أخبر بمسراه أم هانىء بنت أبي طالب، أخت عليّ رضي الله عنه، وأنه يريد أن يخرج إلى مقامه ﷺ، فتعلَّقَتْ بردائه أمُّ هانىء وقالت: أنشدك الله يا ابن عم! أن لا تحدّث بها قريشاً فيكذّبك من صدقك، فضرب بيده على ردائه، فانتزعه منها؛ قالت: وسطع نورٌ عند فؤاده كاد يخطف بصري، فخررتُ ساجدة، فلما رفعتُ رأسي فإذا هو قد خرج. قالت: فقلتُ لجاريتي (نبعة) وكانت حبشية: اتبعيه، وانظري ماذا يقول، فلما رجعت أخبرتني أن رسول

(١) لم يذكر المؤلف لفظ (الكبرى). المحقق.

الله ﷺ انتهى إلى نفر من قريش في الحطيم، وفيهم مطعم بن عدي، وأبو جهل بن هشام، فأخبرهم بمسراه.

ولما قصَّ رسول الله ﷺ خبر الإسراء على جمع من قريش، أعظموا هذا الإسراء، وصار بعضهُم يصفّق وبعضهم يضع يده على رأسه تعجباً ــ فلو كان الإسراء رؤيا منامية لما كانت مستغربة، ولما أحدثت تلك الضّجة وكذبه المسلمون، اللهم إلا من كان منهم قوي العقيدة ثابت الإيمان، قال مطعم بن عدي: إن أمرَكَ قبل اليوم كان أمراً يسيراً، غير قولك اليوم، هو يشهد أنك كاذب، نحن نضرب أكبادَ الإبل إلى بيت المقدس، مصعداً شهراً، ومنحدراً شهراً، أتزعم أنك أتيتَهُ في ليلةٍ واحدة، واللاَّتِ والعزَّى! لا أصدقك، وما كان هذا الذي تقول قط؛ فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يامطعم! بئس ما قلتَ لابن أخيك، جبهتَهُ وكذَّبْتَهُ؛ أنا أشهد أنه صادق.

وفي رواية: فسعى رجال من المشركين إلى أبي بكر رضي الله عنه فقالوا: هل لكَ إلى صاحبك محمد؟ يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس قال: وقد قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن قال ذلك لقد صدق، قالوا: أتصدقه أنه ذهب إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم، إني لأصدقه فيما هو أبعد من تلك، أصدقه في خبر السماء في غدوة وروحة [1]، فقال مطعم: يا محمد! صف لنا بيتَ المقدس، فقال أبو بكر رضي الله عنه: صف لي يا رسول الله! فإني قد جئته؛ فجاءه جبريل عليه السلام بصورته ومثاله، فجعل يقول: باب منه في موضع كذا، و باب منه في موضع كذا، وأبو بكر رضي الله عنه يقول: أشهد أنك رسول الله، حتى أتَى على أوصافه.

وهذه هي الأحاديث الواردة في صحيح البخاري الخاصة بالإسراء والمعراج مشروحة في الهامش، شرحاً موجزاً نقلاً عن القسطلاني. «عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: لما كذبني قريش، قمتُ في الحجر، فجلا الله لي بيت المقدس، فطفقتُ أخبرهم عن آياته ــ أي علاماته ــ وأنا أنظر إليه».

---

(١) لعل الصواب (أو روحة). المحقق.

١٠٦ ــ المعراج وما حدث فيه

المعراج بكسر الميم معناه العروج والصعود من الأرض للسماء. عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما، أن نبيَّ الله محمداً ﷺ، حدَّثهم عن ليلة أسري به قال: «بينما أنا في الحطيم، وفي رواية: في الحجر، مضطجعاً، إذ أتاني آت ــ هو جبريل ــ فقد قال: وسمعته[1] يقول فشق ما بين هذه إلى هذه، قال الراوي: من ثُغْرَةِ نحرِه إلى عانته فاستخرج قلبي، ثم أتيت بطستٍ من ذهب، مملوءة إيماناً، فغُسل قلبي، ثم أعيد؛ ثم أتيتُ بدابة دون البغل، وفوق الحمار أبيض؛ قال الراوي: وهو البراق، يضع خطوه عند أقصَى طرفِهِ، فحملتُ عليه؛ فانطلق بي جبريل حتى أتَى السماءَ الدنيا، فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معكَ؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء، ففتح ــ أي خازنها ــ فلما فلما خلصْتُ فإذا فيها آدم، فقال: هذا أبوكَ وآدم فسلّم عليه، فسلمتُ عليه فردَّ السلام ثم قال: مرحباً بالابن الصالح، ثم صعد بي إلى السماء الثانية، فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل ومن معكَ؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصتُ إذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة، قال: هذا يحيى وعيسى فسلّم عليهما، فسلمتُ فردَّا، ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معكَ؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً، فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خلصتُ إذا يوسف، قال: هذا يوسف فسلّم عليه، فسلمتُ عليه فردَّ، ثم قال مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح؛ ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معكَ؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خلصتُ إذا إدريس، قال: هذا إدريس فسلم عليه، فسلمتُ عليه فردَّ، قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء

(١) لعل الصواب (أو سمعته) ويكون الشك من الراوي. المحقق.

الخامسة؛ فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معكَ؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصتُ فإذا هارون، قال: هذا هارون فسلم عليه، فسلمتُ عليه فردَّ، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معكَ؟ قال: محمد قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً، فنعم المجيء جاء، فلما خلصتُ فإذا موسى، قال: هذا موسى فسلّم عليه، فسلمتُ عليه فردَّ ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، فلما تجاوزتُ بكى، قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بُعث بعدي يدخل الجنةَ من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي ــ ليس بكاؤه حسداً حاشا لله بل أسفاً على ما فاته من الأجر ــ ثم صعد بي إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معكَ؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً فنعم المجيء جاء، فلما خلصتُ فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك إبراهيم فسلّم عليه، فسلمتُ عليه فردَّ السلام، فقال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح[1]، ثم رفعتُ إلى سدرة المنتهى[2]، فإذا نبقها[3]، مثل قلال هجر[4]، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، قال: هذه سدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار، نهران ظاهران، ونهران باطنان، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات، ثم رفع لي البيتُ المعمورُ، فإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف مَلَكٍ، ثم أتيتُ بإناءٍ من خمر، وإناءٍ من لبنٍ، وإناءٍ من عسلٍ، فأخذتُ اللبنَ، فقال: هي الفطرة التي أنتَ عليها وأمتك، ثم فرضتْ عليَّ الصلاة، خمسين صلاة كل يوم وليلة، ولما رجعتُ، فررتُ على موسى فقال: بِمَ أمرتَ؟ قلتُ: أمرتُ بخمسين صلاة كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة

---

(١) هنا استشكال برؤية الأنبياء في السموات مع أن أجسادهم مستقرة في قبورهم بالأرض، أجيب: بأن أرواحهم تشكلت بصورة أجسادهم أو أحضرها الله القادر لملاقته ﷺ في تلك الليلة الشريفة.

(٢) هي التي ينتهي إليها ما يعرج من الأرض فيقبض منها.

(٣) النبق: ثمرها.

(٤) هجر: اسم بلد والمراد أن ثمرها كبير كقلال هجر. وهي معروفة عند المخاطبين.

كل يوم، وإني والله! خبرتُ الناسَ قبلك، وعالجتُ بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فرجعتُ فوضع عني عشراً، فرجعتُ إلى موسى، فقال مثله، فرجعتُ فوضع عني عشراً، فرجعتُ إلى موسى فقال: مثله، فرجعتُ فوضع عني عشراً، فرجعتُ إلى موسى فقال مثله، فوضع عني عشراً، فأمرت بعشر صلوات كل يوم فرجعت فقال مثله، فرجعتُ فأمرتُ بخمس صلوات كل يوم، فرجعتُ إلى موسى فقال: بما أمرتَ قلتُ: بخمسٍ كل يوم، فقال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني جربتُ الناسَ قبلكَ، وعالجتُ بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربكَ فاسأله التخفيف لأمتكِ، قلتُ: وسألتُ ربي حتى استحييت ولكن أرضى وأسلم، قال: فلما جاوزت ناداني منادٍ: (أمضيتُ فريضتي، وخففتُ عن عبادي)[1].

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناكَ إلا فتنةً للناس﴾[2]، قال: هي رؤيا عين أريها رسولُ الله ﷺ ليلة أسري به إلى بيت المقدس[3].

وبذلك تمسَّكَ من قال: كان الإسراء في المنام، ومن قال في اليقظة فسَّر الرؤيا بالرؤية من قوله أريها ليلة أُسريَ به؛ والإسراء كما ذكرتُ سابقاً: إنما كان في اليقظة، لأنه لو كان مناماً أو بالروح فقط ما كذّبتْهُ قريش، ولما تعجبوا منه، وإذا كان الإسراء في اليقظة كان المعراج في تلك الليلة لزم أن يكون في اليقظة أيضاً إذ لم يقل أحدٌ أنه نام لما وصل بيت المقدس، ثم عرج به وهو نائم، وإنما كان في اليقظة، وهذا ما ندين به ونلقى الله عليه.

١٠٧ ــ هل رأى رسول الله ﷺ ربه ليلة الإسراء؟

اختلف كثير من العلماء في هذه المسألة، وأنا أختار بحث الرؤية[4] هذه ما

---

(١) هذه من أقوى الأدلة وما يستدل به، على أنه ﷺ كلمه ربه ليلة الإسراء بغير واسطة، كما كلم موسى تكليماً، وأرى خليله إبراهيم ملكوت السموات والأرض.

(٢) جزء من الآية رقم (٦٠) من سورة الإسراء. المحقق.

(٣) أنظر كتاب (محمد رسول الله ﷺ) ص ١٥٣.

(٤) لعل الأرجح (في بحث الرؤية) بزيادة كلمة (في). المحقق.

جاء في كتاب العلامة محمد رضا (محمد رسول الله ص ١٥٣) قوله: أنكرت عائشة رضي الله عنها رؤية رسول الله ﷺ ربّه ليلة الإسراء، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه رآه بعينه، ومثله عن أبي ذر وكعب رضي الله عنهما، وكان الحسن رحمه الله تعالى يحلف على ذلك، ومن القائلين بالرؤية: عبد الله بن مسعود، وأحمد بن حنبل، وجماعة من الصحابة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (أتعجبون أن تكون الخلّة لإبراهيم والكلام لموسى، والرؤية لمحمد ﷺ؟).

وعن عكرمة: سئل ابن عباس رضي الله عنهما، هل رأى محمد ﷺ رَبَّهُ؟ فقال: نعم، قال النووي في شرح صحيح الإمام مسلم: والأصل في الباب حديث ابن عباس حبر الأمة، والمرجوع إليه في المعضلات، وقد راجعه ابن عمر رضي الله عنهما في هذه المسألة وراسله، هل رأى محمد ﷺ ربه؟ فأخبره أنه رآه؛ ولا يقدح في هذا حديث عائشة رضي الله عنها، فإنها لم تخبر أنها سمعت النبيَّ ﷺ يقول: لم أرَ ربي، وإنما ذكرت ما ذكرت متأولةً لقول الله تعالى: ﴿وما كان لبشر أن يكلّمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً﴾[1] ولقول الله تعالى: ﴿لا تدركهُ الأبصارُ﴾[2].

والصحابي إذا قال قولاً، وخالفه غيرُه منهم لم يكن قوله حجة، وإذا صحت الروايات عن ابن عباس في إثباتِ الرؤية وجب المصير إلى إثباتها، فإنها ليست مما يدرك بالفعل و يؤخذ بالظنّ، وإنما يتلقى بالسماع، ولا يستجيز أحدٌ أن يظن بابن عباس أنه تكلم في هذه المسألة بالظن والاجتهاد، وقد قال معمر بن راشد حين ذكر اختلاف عائشة وابن عباس، قال: ما عائشة عندنا بأعلم من ابن عباس، ثم إن ابن عباس أثبتَ شيئاً نفاه غيره، والمثبت مقدم على النافي.

والراجح عند أكثر العلماء: أن رسول الله ﷺ رأى ربّهُ بعيني رأسه ليلة الإسراء.

---

(١) جزء من الآية رقم (٥١) من سورة الشورى. المحقق.

(٢) جزء من الآية رقم (١٠٣) من سورة الأنعام. المحقق.

نقول: وقد خالفت عائشة رضي الله عنها ابنَ عباس رضي الله عنهما في هل كان الإسراء بالجسد أو بالروح فقالت عائشة: والله! ما فقد جسدُ رسول الله ﷺ، ولكن صعد بروحه، وابن عباس يقول: إنه إسراء بالجسد وفي اليقظة؛ وهذا ما ذهب إليه معظم الصحابة، أما ما يتصوره بعضهم في أن معجزة لرسول الله، لا تدرك بالفعل، كجميع المعجزات، وهل يعقل أن إنساناً[1] دار حول الأرض مرات في ساعات، أو بأن إنساناً[1] وصل إلى القمر والمريخ وزهرة وعطارد، يكاد أن لا يصدق، ولكن في عصرنا هذا، عصر الذرة فإننا نصدق كما نسمع في الراديو والتلفزيون عبر الأثير، فهذا إنسان يتوصل لما ذكرت بما وهبه الله من علم، فما بالك بالخالق القادر والحكيم المبدع سبحانه الذي دعا عبده ورسوله ليطلع على عجائب الكون وما غاب عن بني الإنسان، وجعل ذلك معجزة لرسوله ﷺ، وبياناً على قدرته؟ ولو كانت هاتان الرحلتان[2] بالروح أو بالمنام لصرح به ﷺ، ولما كذّبته قريش، وحدث ما قرأته سابقاً.

ورحم الله تعالى البوصيري القائل:

فَطَوى الأرضَ سائراً والسَّما ... واتِ العُلَى فوقها له إسراءُ
فَصِفِ الليلةَ التي كان للمخـ ... ـتارِ فيها على البُراقِ استواءُ
وترقّى به إلى قاب قوسيـ ... ـنِ وتلك السيادة القعساءُ
رتبٌ تسقطُ الأماني حسرى ... دونها ما وراءهنَّ وراءُ
ثم وافى يحدّثُ الناسَ شكراً ... إذ أتتْهُ من ربّهِ النعماءُ

ورحم الله أميرَ الشعراء أحمد شوقي، مخلداً ذكرى الإسراء والمعراج فقال:

يا أيها المُشْرى به شرفاً إلى ... ما لا تَنالُ الشمس والجوزاءُ
يتساءلون وأنت أظهرُ هيكل[3] ... بالرُّوح أم بالهيكل الإسراءُ

---

(١) في الأصل (إنسان) والصواب ما أثبتناه لأنه اسم (أن). المحقق.
(٢) (هاتان الرحلتان) في الأصل (هاتين الرحلتين). والصواب ما أثبتناه. لأن الأول مبتدأ والثاني صفة فهما مرفوعان. المحقق.
(٣) الهيكل: هو الجسم والصورة والشخص.

بهما سَمَوْتَ مُطَهَّرَيْنِ كلاهما ... نورٌ وروحانيةٌ وبهاءُ
فَضْلٌ عليكَ لذي الجلالِ وَمِنَّةٌ ... والله يفعلُ ما يرَى و يشاءُ
تَغْشى[1] الغيوبَ من العوالم كلَّما ... طُويَتْ سماءٌ قَلَّدَتْكَ سماءُ
في كل منطقةٍ حواشي نورِها ... نونٌ وأنتَ النقطةُ الزهراءُ
أنتَ الجمالُ بها وأنتَ المجتلى ... والكفُّ والمرآة والحسناء
اللهُ هَيَّأ من حظيرةِ قُدْسِهِ ... نُزلاً لذاتِكَ لم يَجُزْهُ علاءُ
العرشُ تحتكَ سُدَّةٌ وقوائماً ... ومناكبُ الرُّوحِ الأمينِ وِطاءُ
والرسلُ دُونَ العرشِ لم يُؤذَنْ لهم ... حاشا لغيرِكَ مَوْعِدٌ ولقاء

١٠٨ ــ عبرة الإسراء والمعراج

في الليلة السابعة والعشرين من شهر رجب، أسري بالرسول الأمين[2]، إلى بيت المقدس، وعرج به إلى السموات، وفرضت عليه وعلى أمته الصلوات الخمس، وقد كان في هذا الحادث، عظات بينات، وآيات كريمات، فذلك سيدنا محمد ﷺ، الذي أرسله الله لهداية الخلق أجمعين، وهيَّأه للأمم جيلاً بعد جيل، لا مناص له من أن يكون واسع العلم، بعيد الاطلاع، قد بلغ من مختلف المعارف، ما لا يدرك أحد مداه، ووصل إلى درجةٍ من الفضل، لا تتفق لسواه، ليكون في ذلك تثبيتٌ لفؤاده وعونٌ له على مراده: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله، لنريه من آياتنا إنه هو السميعُ البصيرُ﴾[3] وهاهم أولاء فتيةُ قريش المردة المفتونون الذين يكذبون محمداً، ويأخذونه بضروب الإعنات والتهكم، وبجانبهم المؤمنون الصادقون، الذين أشربتْ قلوبهُم حبَّ الإيمان، ووهبهم ربُّهم حلاوة اليقين؛ ألم يكن هؤلاء في حاجة إلى معجزة من معجزات الله، تزيد المؤمنين إيماناً، وتملأ قلوب المنافقين كفراً وبهتاناً؟

---

(١) تغشى المكان: تأتيه.

(٢) ليس هناك دليل صحيح يثبت أن حادث الإسراء كان ليلة السابع والعشرين من شهر رجب. المحقق.

(٣) الآية رقم (١) من سورة الإسراء. المحقق.

يقول علماء السير: إن الرسول ﷺ لما أصبح، أخبر الناس بما رآه، فصدَّقه الصديقُ أبو بكر رضي الله عنه ــ كما شرحت ــ كما صدَّقه كلُّ من امن به إيماناً قوياً، وكذَّبه الكفارُ، واستوصفوهُ مسجد بيت المقدس، فوصفه لهم، وسألوه عن أشياء في المسجد، فمثل بين يديه وجعل ينظر إليه ويصفه، ويعد أبوابه، فيطابق ما عندهم، وسألوهُ عن عيرٍ لهم ــ قافلة ــ فأخبرهم بها، وبوقت قدومها، فكان كما أخبر؛ ولم يكن هذا الاختبار كافياً لمن في قلبه مرض، فكان مثاراً لعجبهم، وباعثاً على سخريتهم؛ أما الصادقون في إيمانهم، فقد هرعوا يصدّقونه، وعمدوا إلى الإفك يدفعونه. وكان إمام هؤلاء، أبا بكر صاحب محمدٍ ﷺ وخليله؛ وقد سماه الرسول ﷺ في ذلك اليوم (بالصدّيق). وما أجدر ذلك البطل العظيم بهذا اللقب العظيم، فهو الذي جادل عن صاحبه محمدٍ ﷺ ونافح عنه، وحامى عن الحق ودافع.

سعى إليه رجال من قريش فقالوا: هل لكَ إلى صاحبك، يزعم أنه أسري به الليلةَ إلى بيت المقدس؟ قال أبو بكر: لئن قال ذلك لقد صدق، قالوا: أتصدقه أنه ذهب إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك: أصدقه في خبر السماء في غدوة وروحة (١).

وهل يثني المصلحين تكذيبٌ، أو يرجعهم لَومٌ أو تثريبٌ؟

كلا إنهم ماضون في أمرهم، واصلون إلى غرضهم، مهما تألَّبَ عليهم الناس، أو صدهم الوسواس، لقد رجع الرسولُ ﷺ من ليلته إلى مكة فأخبر بمسراه أم هانىء بنت أبي طالب، أخت سيدنا علي رضي الله عنه وقال: إنه يريد أن يخرج إلى قومه ويخبرهم بذلك لأنه ما أحبَّ أن يكتم قدرة الله؛ وما هو دليلٌ على علوّ مقامه. فتعلَّقَتْ بردائه وقالت: أنشدك الله يا بن عم، أن لا تُحدِّث بها قريشاً، فيكذبك من صدقك؛ فضرب بيده على ردائه، فانتزعه منها، قالت: وسطع نور عند فؤاده كاد يخطف بصري، فخررت ساجدةً، فلما رفعت رأسي، فإذا هو قد خرج.

---

(١) [illegible] العبارة (في غدوة أو روحة). المحقق.

وهنا علم الناس آية الإسراء: ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون، وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجْساً إلى رجسهم، وماتوا وهم كافرون﴾ (١).

وهل كانت الرسالة التي أعدت لكل مضطربٍ من الأرض تعلم الناس، وتلهمهم وتبصرهم في الآفاق، وفي أنفسهم: قاصرة على هذا العالم الأرضي، وهي تريد أن تشرح لهم ملكوت السموات، ليكونوا من الموقنين؟

لقد عرج بالرسول الأمين ﷺ إلى السموات؛ فرأى من آيات الله الباهرة، ونفحاته الظاهرة، ما قَصَّهُ على قومه، وشرح السبع الطباق وعلَّمهم أن الوجود لا يحده هذا النطاق، فسبق ﷺ الناسَ إلى معرفة العجائب، واخترق حجاب الكون، فشرح لبني عصره، ما ولدتْهُ العصورُ من المخترعات الحديثة، والإبداعات والغرائب؛ وكان ذلك تأييداً من الله الكريم للنبي الأمي اليتيم، ومصداقاً لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وعلمكَ ما لم تكن تعلمُ وكان فضلُ الله عليكَ عظيماً﴾ (٢).

وعلى هذا ذهب المحققون، وقالوا:

ورآه ومـــا رآه ســـواه رؤيـــة العين يـقـظـةً لا المـرائي

ونحن لا يهمنا ذلك بما يهمنا(٣) أن نقتفي سنته وطريقته ونقبس من مشكاة هديه، ونستفيد مما كان عليه من الصبر والأناة واليقين والتحمل عملاً بقول الله تعالى: ﴿ولكم في رسول الله أسوة حسنة﴾(٤) وبذا نكون من العاملين بشريعته، سائرين على هديه والله الموفق والمعين لما يحبه ويرضاه منا، ويسعدنا به عليه الصلاة والسلام.

حـظـي المـسـجـد الحـرام بمشـا ة ولم يـنـس حـظَّـه إيـلـيـاءُ
ثم وافى يحـدّثُ الـنـاسَ شـكـراً إذ أتـتْـهُ مـن ربـه الـنـعـمـاءُ

---

(١) جزء من الآية رقم (١٢٤) والآية رقم (١٢٥) من سورة التوبة. المحقق.
(٢) جزء من الآية رقم (١١٣) من سورة النساء. المحقق.
(٣) لو قال (بقدر ما يهمنا) لكان أوجه. المحقق.
(٤) الصواب ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ الآية (٢١) من سورة الأحزاب. المحقق.

قال الإمام النووي: والراجح عند أكثر العلماء أن رسول الله ﷺ رأى ربه بعين رأسه[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في إثبات الرؤية: يجب المصير إلى إثباتها[2]. ولا يجترىء أحدٌ أن يظن في ابن عباس وهو حبرها[3] والمحقق في أحكام شريعتها أن يتكلم في هذه المسألة بالظن والاجتهاد، بل على وجه اليقين؛ ولما سئل الإمام أحمد رضي الله عنه عن رؤياه ﷺ أجاب: نعم رآه، وإن رؤيا الأنبياء حق.

وقلت: هذا لا يهمنا، ولكن يهمنا الاهتمام بشريعة الله ومتابعة رسول الله ﷺ[4] وعلى الله الاتكال والحمد لله رب العالمين.

١٠٩ ــ فريضة الصلاة المفروضة على محمد ﷺ وأمته

فرضت الصلوات الخمس ليلة الإسراء، قبل الهجرة بسنةٍ، ولا خلاف في ذلك كما هي الآن، في عدد الركعات وهو الأصح.

والصلاة هي فريضة قائمة، وشريعة ثابتة، عرفت فرضيتها بالكتاب في قوله تعالى: ﴿وأقيموا الصلاة﴾ وقوله تعالى: ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا﴾[5] وقوله تعالى: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾[6] كل هذه الآيات الشريفة؛ تدل على فريضتها[7] والمحافظة عليها وهي كونها خمسة[8]، لأنه أمر بالمحافظة عليها وعطف عليها الصلاة الوسطى، وجاء في السنة المطهرة

---

(١) لعل العبارة (بعيني رأسه). المحقق.

(٢) لو قال: (ويجب المصير إلى رأي ابن عباس في إثبات الرؤية) لكان أوضح وأوجه. المحقق.

(٣) الأفضل (وهو حبر الأمة) لأن المقام مقام إظهار. المحقق.

(٤) لم يذكر في الأصل (ﷺ). المحقق.

(٥) جزء من الآية رقم (١٠٣) من سورة النساء. المحقق.

(٦) جزء من الآية رقم (٢٣٨) من سورة البقرة. المحقق.

(٧) الأصح: (فرضيتها) لا (فريضتها). المحقق.

(٨) الصواب: (ووجوب المحافظة عليها وكونها خمسة الخ). المحقق.

أن النبي ﷺ قال: «إن الله فرض على كل مسلم ومسلمة في كل يوم وليلة خمس صلوات».

وحكمة مشروعيتها: التذلل والخضوع بين يدي الله تعالى ومناجاته بالقراءة والذكر، والدعاء، واستعمال الجوارح في خدمة الله تبارك وتعالى، وهي أفضل العبادات البدنية الظاهرة.

جاء في رسالة الصلاة لابن سينا: إن الصلاة تشبه النفس الإنساني الناطق بالأجرام الفلكية، والتعبد الدائم للحق المطلق سبحانه، طلباً للثواب السرمدي، قال رسولنا الكريم: «الصلاة عماد الدين» والدين هو تصفية النفس الإنساني من الكدورات الشيطانية والهواجس البشرية، والإعراض عن الأعراض الدنيوية الدَّنية، والصلاة هي التعبد للصلة الأولى، والمعبود الأعظم الأعلى؛ فعلى هذا لا يحتاج إلى تأويل قوله تعالى: ﴿وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدون﴾[1] ليعرفوني[2]، لأن العبادة هي المعرفة، أي عرفان واجب الوجود، وعلمه بالسر الصافي، والقلب النقي، والنفس الفارغة.

فإذاً: حقيقة الصلاة علم الله[3] سبحانه وتعالى بوحدانيته ووجوب وجوده، وتنزيه ذاته، وتقديس صفاته في سوانح الإخلاص في صلاته، وأعني بالإخلاص: أن تعلم صفات الله بوجهٍ لا يبقى للكثرة فيه مشرع، ولا للإضافة فيه منزع فمن فعل هذا فقد أخلص وصلَّى وما ضلَّ وما غَوَى، ومن لم يفعل، فقد افترى وكذبَ وعصَى، والله أجلُّ وأعلَى وأعَزُّ من ذلك وأقوى. اهـ.

قال رسول الله ﷺ: «لا إيمان لمن لا صلاة له، ولا إيمان لمن لا أمانة له». وقال: «صلُّوا كما رأيتموني أصلّي». قال الله تعالى: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر، والله يعلمُ ما تصنعون﴾[4].

---

(١) الآية رقم (٥٦) من سورة الذاريات. المحقق.

(٢) في الأصل (ليعرفون) بدون ياء وهو جائز ولكن إثبات الياء في مثل السياق المذكور أوضح. المحقق.

(٣) (علم الله) هو من إضافة المصدر إلى مفعوله. المحقق.

(٤) جزء من الآية رقم (٤٥) من سورة العنكبوت. المحقق.

١١٠ ــ ردُّ شبهة مفتراة على رسول الله ﷺ

يروي بعض علماء السيرة (حديث الغرانيق) وهوحديث منقوض من عموم جوانبه، ولا صحة له، لأنه ينقض ما لكل نبي من العصمة في تبليغ رسالات ربه؟ ومن العجيب والله! أن يأخذ به بعضُ كتاب السيرة، وبعض المفسرين المسلمين؛ ولما سئل عنه ابن إسحاق قال: إنه من وضع الزنادقة، لكن بعض الذين أخذوا به، حاولوا تمويهه، فاستندوا إلى الآيات ﴿وإن كادوا ليفتنونك... ﴾[1] وإلى قوله: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنّى ألقى الشيطانُ في أمنيته، فينسخ الله ما يلقي الشيطانُ ثم يُحكم الله آياتهِ، والله عليم حكيم، ليجعل ما يلقي الشيطانُ فتنةً للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم، وإن الظالمين لفي شقاق بعيدٍ﴾[2].

تمسك بهذا الحديث المستشرقون والملحدون وخصوم الإسلام ويقولون هذا محمد يتلو على العرب حديث الغرانيق في سورة النجم ويصطادون بالماء العكر، ويكذبون على الله ورسوله بقولهم: (أفرأيتم اللاتَ والعزي، ومناة الثالثة الأخرى، تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترجى). هذا من وضع أعداء الله، ولا صحة لها البتة، وردت على ستة روايات مختلفة مما يدل على أنها موضوعة لا صحة لها، وأن الحديث في هذا الشأن موضوع، وأنه من وضع الزنادقة، كما قال ابن إسحاق، وان الغرض منه التشكيك في صدق تبليغ محمدٍ ﷺ رسالات ربه.

ثم إن اللات والعزى أسماء سماها المشركون ما أنزل الله بها من علم أو سلطان فكيف يحتمل أن يجري السياق بما يأتي من شفاعتها وأن لها رجاء عند الله؟ اللهم هذا بهتان عظيم.

وإن العقول السليمة لا تصدق بمدح ما ذمه القرآن من اللات والعزى، ولا يقول به إنسان، وقد ظهر أن حديث الغرانيق مفترى من ألفه ليائه، ولا صحة

---

(١) جزء من الآية رقم (٧٣) من سورة الإسراء. المحقق.

(٢) من سورة الحج آية (٥٢ و ٥٣).

له، وهو كما قال ابن إسحاق من وضع الزنادقة لغاياتهم وصدَّقه من يستسيغون كل غريب وكذب من جماعاتهم.

وساق العلامة مفتي الديار المصرية الشيخ محمد عبده رداً مفحماً على هؤلاء، يفنّد قصة الغرانيق فقال: تلك[1] أن وصف العرب لآلهتهم بأنها الغرانيق لم يرد في نظمهم ولا في خطبهم، ولم ينقل عن أحدٍ أن ذلك الوصف كان جارياً على ألسنتهم، وإنما ورد الغرنوق والغرنيق على أنه اسمٌ لطائر مائي أسود أو أبيض، والشاب الأبيض الجميل، ولا شيء من ذلك يلائم معنى الآلهة أو وصفها عند العرب[2].

ومن دراستنا لحياة سيدنا محمد ﷺ منذ طفولته وصباه وشبابه لم يُجَرَّب عليه الكذب قط حتى سمي بالأمين، ولما بلغ الخامسة والعشرين من عمره، وكان صدقه أمراً مسلماً به عند الناس جميعاً، حتى لقد سأل قريشاً يوماً بعد بعثه: أريتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل أكنتم تصدّقوني؟ فكان جوابهم: نعم، أنت عندنا غير متَّهم، وما جربنا عليكَ كذباً قط.

فالرجل الذي عُرف بالصدق في صِلاته بالناس منذ نعومة أظفاره إلى كهولته، كيف يصدّق إنسان أنه يقول على ربه ما لم يقل، ويخشى الناسَ، والله أحق أن يخشاه؛ هذا أمر مستحيل يُدرك استحالته الذين درسوا هذه النفوس القوية الممتازة التي تعرف الصلابة في الحق، ولا تداجي فيه لأي اعتبار.

وهنا يتساءل العاقل: متى رجع سيدنا محمدُ ﷺ لقريش وبينه وبينهم عداء مستحكم بلغ ذروته، ويخبرهم عما يغضب مولاه ويعارض دعوته ويقول لهم حديث الغرانيق المارّ ذكره؟ إنه الكذب الصريح على صاحب البعثة وليس له أي سندٍ من الصحة كما بينتهُ لكَ يا أخي القارىء فيما مضى، من أنه حديث موضوع مردود على من قاله، وليس له شيء من الصحة على الإطلاق.

---

(١) لعل الصواب (ذلك) لا (تلك). المحقق.

(٢) أنظر حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل ص ١٦٢.

وقد نوهتُ عنه بذكرى له هنا، حتى أرد هذا الافتراء عن سيد الرسل والأنبياء، عليه الصلاة والسلام. فليتنبه لهذا وليحرص المسلم على تكذيبه وعدم صحته.

١١١ ــ عرض الرسول ﷺ نفسه على القبائل القادمين إلى مكة في موسم الحج

أخْفَى رسول الله ﷺ رسالته بادىء الأمر كما أمره الله تعالى ثم أعلنها بأمر الله تعالى، في السنة الرابعة من النبوة الشريفة، ودعا إلى الإسلام عشر سنين، يوافي المواسم كل عام، يتبع الحجاج في منازلهم بمنًى، والموقف، يسأل عن القبائل قبيلةً قبيلةً، و يسأل عن منازلهم، و يأتي إليهم في أسواق الموسم، وهي عُكاظ، ومجَنّة، وذو المجاز؛ وكانت العرب إذا حَجَّتْ تقيم بعكاظ شهر شوال، ثم تجيء إلى سوق مجنة تقيم فيه عشرين يوماً، ثم تجيء إلى سوق ذي المجاز فتقيم به أيام الحج؛ وكان ﷺ يعرض نفسه عليهم، ويدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالة ربه، وكان يطوف على الناس في منازلهم و يقول: «يا أيها الناس! إن الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً»، وكان أبو لهبٍ يمشي وراءه و يقول: إن هذا يأمركم أن تتركوا دينَ آبائكم؛ وروى ابنُ إسحاق أنه ﷺ عرض نفسه على كندة وكلب؛ وعلى بني حنيفة، وبني عامر بن صعصعة، فقال له رجل منهم: أرأيت إن نحنُ بايعناكَ على أمركَ، ثم أظفركَ اللهُ على من خالفكَ، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء» فقال له قائل: أنقاتل العرب، دونكَ، فإذا أظفركَ اللهُ كان الأمر لغيرنا؟ لا حاجةَ لنا بأمرك، وأبوا عليه؛ فلما رجعت بنو عامر إلى منازلهم وكان فيهم شيخ أدركه السنُّ لا يقدر أن يوافي معهم الموسم ــ وقد تقدمت هذه القصة ــ فلما قدموا عليه، سألهم عما كان في موسمهم؟ فقالوا: جاءنا فتًى من قريشٍ أحد بني عبد المطلب يزعم أنه نبي يدعونا أن نمنعه، ونقوم معه، ونخرج به إلى بلادنا، فوضع الشيخ يده على رأسه، ثم قال: يا بني عامر! هل لها من تلافٍ؟ والذي نفس

فلان بيده! ما يقولها كاذباً من بني إسماعيل قط[1]، وإنها لحق، وإن رأيكم غاب عنكم.

وروى الواقدي: أنه ﷺ أتى بني عبس، وبني سليم، وبني محارب، وفزارة، ومرة، وبني النضر، وعذرة، والحضارمة فردُّوا عليه ﷺ أقبح ردٍّ، وقالوا: أسرتك وعشيرتك، أعلم بك حيث لم يتبعوك، ولم يكن أحد من العرب أقبح عليه من بني حنيفة وهم أهل اليمامة قوم مسيلمة ومن أقبح القبائل في الرد عليه ﷺ ثقيف، ومن ثم جاء في الحديث الشريف: «شر قبائل العرب بنو حنيفة وثقيف» ولا زال عليه الصلاة وإنما أريد منعي من القتل حتى أبلغ رسالة ربي، فلم يقبله ﷺ أحد من تلك القبائل، ويقولون: قوم الرجل أعلم به، أترون أن رجلاً يصلحنا وقد أفسد قومه؟

١١٢ ــ بدء إسلام الأنصار ــ بيعة العقبة

خرج رسول الله ﷺ يعرض نفسه على قبائل العرب وحجَّاجهم كما كانت عادته في كل موسم؛ فبينما هو عند العقبة بمنى، التي تضاف إليها جمرة العقبة، وهي على يسار القاصد منًى من مكة، إذ لقي رهطاً من الأوس والخزرج، كانوا يحجون فيمن يحج من العرب وهما قبيلتان مشهورتان عظيمتان من العرب، في المدينة يثرب، وقد لقبهم رسول الله ﷺ بالأنصار بعد هجرته لهم وقد منعوه ونصروه؛ وكان الذين لقيهم من الخزرج هم: أبو أمامة أسعد بن زُرارة، وعوف بن الحارث ويعرف بابن عفراء وهما من بني النجار، ورافع بن مالك بن العجلان، وعامر بن عبد حارثة وهما من بني زُريق، وقطبة بن عامر بن حديدة من بني سلمة وعقبة بن عامر بن نابىء من بني غنم، وجابر بن عبد الله بن رباب من بني عبيدة؛ فعرض النبي ﷺ عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، فقبلو ذلك منه، وأثر في قلوبهم، وكان اليهود مع الأوس والخزرج بالمدينة،

(١) العبارة الواردة (ما تقولها إسماعيليّ قط) وهي أدق وأوجز. المحقق.

وكانوا أهل كتاب، والأوس والخزرج أهل شرك وأوثان، وكانوا إذا كان بينهم شيء تقول اليهود: إنَّ نبياً سيبعث الآن، قد أظلَّ زمانه، نتبعه، فنقتلكم معه، قتل عادٍ وإرم، وكانوا يصفونه لهم بصفاته، فلما قدموا المدينة ذكروا لقومهم النبيَّ ﷺ ودعوهم إلى الإسلام فأسلم كثيرون منهم، حتى إذا كان العام المقبل، وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، وذلك سنة اثنتي عشرة من النبوة، (٦٢١) م فلقوه بالعقبة، فبايعوه بيعة النساء؛ وسميتْ بذلك، لأنها كانت على الأمور التي ورد ذكرها في سورة الممتحنة خاصة ببيعة النساء، وهذه هي الآية الشريفة:

﴿يا أيها النبيُّ إذا جاءكَ المؤمناتُ يُبايِعْنَكَ على أن لا يشركْنَ بالله شيئاً، ولا يسرقْنَ، ولا يزنينَ، ولا يقتلنَ أولادهنَّ، ولا يأتينَ ببهتان يفترينه بينَ أيديهنَّ وأرجلهنَّ، ولا يعصينك في معروفٍ، فبايِعْهُنَّ واستغفر لهنَّ الله إن الله غفورٌ رحيمٌ﴾[1].

وبعد أن تَمَّتْ هذه البيعة، بعث رسول الله ﷺ معهم، (مصعب بن عمير بن هاشم) يقرئهم القرآن، ويعلّمهم الإسلام، وكان يسمى مصعب بالمدينة، المقرىء، فأسلم على يده سعد بن معاذ، وأسيد بنُ حضير، وكان سعد من أجلّ رؤسائهم، ثم فشا فيهم الإسلام، ولم تبقَ دارٌ من دور الأنصار إلا فيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد وخطمة ووائل وواقف، وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت وهو صيفي وكان شاعراً لهم وقائداً، يسمعون منه ويطيعونه، فوقف بهم عن الإسلام، ولم يزل على ذلك حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة.

١١٣ ــ بيعة العقبة الثانية للأنصار

اتفق جماعة من الأنصار، للقاء[2] النبي ﷺ مستخفين، لا يشعر بهم أحدٌ، فوافوا مكة في الموسم في ذي الحجة مع كفار قومهم، واجتمعوا

---

(١) الآية رقم (١٢). المحقق.

(٢) الأفضل (على لقاء). المحقق.

به، وواعدوه أوسط أيام التشريق[1]، فلما كان الليلُ خرجوا بعد مضي ثلثهِ، يتسلَّلونَ، حتى اجتمعوا بالعقبة، وحضر معهم عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر، وأسلم تلك الليلة، وجاءهم رسول الله ﷺ ومعه عمُّه العباس بن عبد المطلب، وكان لا يزال على دين قومه، وأحبَّ أن يتوثق لابن أخيه، وكان أول من بايع تلك الليلة، وهو أول من تكلم، فقال: يا معشر الخزرج! إن محمداً منا حيث قد علمتم في عزٍّ ومنعةٍ، وإنه قد أبَى إلا الانقطاع إليكم، فإن كنتم ترون أنكم تفون له بما دعوتموهُ اليه ومانعوه، فأنتم وذلك، وإن كنتم ترونَ أنكم مسلموه، فمن الآن فدعوهُ فإنه في عزٍّ ومنعةٍ.

فقال الأنصارُ: قد سمعنا ما قلتَ، فتكلَّمْ يا رسول الله وخُذْ لنفسكَ وربكَ ما أحببت؛ فتكلَّم ﷺ، وتلا القرآن ورغب في الإسلام، ثم قال: تمنعونني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم، وكان للبراء بن معرورٍ في تلك الليلة المقام المحمود في الإخلاص والتوثق لرسول الله ﷺ إذ أخذ بيده وقال: والذي بعثك بالحق! لنمنعنَّك مما نمنع منه[2] ذرارينا، فبايْعنا يا رسول الله! فنحن! والله أهل الحرب، فاعترض الكلام أبو الهيثم بن التيهان حليف بني عبد الأشهل، فقال يا رسول الله! إن بيننا وبين الناس حبالاً وإنا قاطعوها ــ يعني اليهود ــ فهل عسيت إن أظهرك الله عز وجل أن ترجع إلى قومك وتَدَعَنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ وقال: بل الدم الدم، والهدم[3] الهدم، أنتم مني، وأنا منكم، أسالم من سالمتم، وأحارب من حاربتم؛ وكانت عدة الذين بايعوا في تلك الليلة سبعين رجلاً، وامرأتين: نسيبة بنت كعب أم عمارة، وأسماء بنت عمر بن عدي من بني سلمة ــ وقد بايعتا من غير مصافحةٍ ــ واختار منهم رسول الله ﷺ اثني عشر نقيباً، يكونون على قومهم، تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس، وقال لهم: أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحوارين لعيسى بن مريم،

---

(١) وهي ثلاثة أيام بعد النحر، لأن لحم الأضاحي يشرق فيها للشمس أي يشرر وقال ابن الأعرابي: سميت بذلك لأن الهدي والضحايا لا تنحر حتى تشرق الشمس.

(٢) في الأصل (به) بدل (منه) والتصحيح من سيرة ابن هشام. المحقق.

(٣) في الأصل (الهدم) بدون واو قبلها والتصحيح من سيرة ابن هشام. المحقق.

وأنا كفيل على قومي.

والنقباء هم: (١) سعد بن عبادة، (٢) أسعد بن زرارة، (٣) سعد بن الربيع، (٤) سعد بن خيثمة، (٥) المنذر بن عمرو، (٦) عبد الله بن رواحة، (٧) البراء بن معرور، (٨) أبو الهيثم بن التيهان، (٩) أسيد بن حضير، (١٠) عبد الله بن عمرو بن حرام، (١١) عبادة بن الصامت، (١٢) رافع بن مالك.

فلما بايعوا النبيَّ ﷺ رجعوا إلى المدينة، فكان قدومهم في ذي الحجة، فأقام رسول الله ﷺ بمكة بقية ذي الحجة والمحرم وصفر، وهاجر إلى المدينة في شهر ربيع الأول، وقدمها لاثنتي عشرة ليلة خلت منه؛ وقد كانت قريش لما بلغهم إسلام من أسلم من الأنصار، اشتدوا على من بمكة من المسلمين، فأصابهم جهد شديد؛ فأمر النبي ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة، فخرجوا أرسالاً، حتى لم يبق أحدٌ من المسلمين بمكة مع رسول الله ﷺ إلا أبو بكر وعلي بن أبي طالب فإنهما أقاما بأمره، وكان ﷺ ينتظر أن يؤذن له في الهجرة. وإسلام الأنصار له شأن كبير في تاريخ الإسلام، بل في تاريخ حضارة الدنيا، ومدنية البشرية.

ولا بد لي أن أتكلم عن هؤلاء النقباء ليكون القارىء على اطلاع من تاريخ حياتهم.

١١٤ ــ ترجمة النقيب سعد بن عبادة، سيد الخزرج رضي الله عنه

قيس الأنصاري الخزرجي الساعدي المدني، وهو النقيب الكبير سيّد الخزرج. له أحاديث يسيرة عن النبي ﷺ، لا تتجاوز العشرين، وروى عنه سعيد بن المسيّب والحسن البصري.

قال ابن سعد في طبقاته الكبرى: كان سعد بن عبادة يتهيأ للخروج إلى غزوة بدر، يأتي دور الأنصار، وهو السيد المطاع فيهم، يحضهم على الخروج،

فَنُهش (١) فأقام، فقال النبي ﷺ: «لئن كان سعد ما شهد بدراً، لقد كان حريصاً عليها».

وحكى ابن سعد: كان سعدٌ عقيباً نقيباً سيداً جواداً؛ ولما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، كان سعدٌ يبعثُ إليه كل يوم جفنةً من ثريد اللحم، أو ثريد اللبن أو غيره فكانت جفنة سعدٍ تدور مع رسول الله ﷺ في بيوت أزواجه.

و يقول ابن سيرين: كان سعد بن عبادة يرجع كل ليلة إلى أهله بثمانين من أهل الصفة يُعَشِّيهِمْ؛ وفيه يقول عروة: كان سعد بن عبادة يقول: (اللهمَّ! هَبْ لي حمداً ومجداً، اللهمَّ! لا يصلحني القليل ولا أصلح عليه).

وكان سعد بطلاً شجاعاً، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان لواء رسول الله ﷺ مع علي بن أبي طالب، ولواء الأنصار مع سعد بن عبادة. وقال أنس يكشف لنا عن شجاعة سعدٍ فيقول: لما بلغ رسول الله ﷺ إقفال أبي سفيان قال: أشيروا عليَّ، فقام أبو بكر، فقال: اجلس، فقام سعدُ بنُ عُبادة فقال: لو أمرتنا يا رسول الله أن نُخيضَها البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد (٢) لفعلنا.

وتحدث ابن عباس عن رسول الله ﷺ يوم بدر فقال: قال رسول الله ﷺ يوم بدرٍ: «من جاء بأسير فله سَلَبُه» (٣) فجاء أبو اليَسَر بأسيرين، فقال سعد بن عبادة: يا رسول الله! حرسناك مخافةً عليك، فنزل قولُه تعالى: ﴿يسألونك عن الأنفال (٤)، قل الأنفالُ لله والرسول، فاتقوا الله، وأصلحوا ذات بينكم، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾ (٥).

---

(١) نهشه الكلب أو الذئب إذا عضه.

(٢) برك الغماد: موضع بناحية اليمن.

(٣) في الأصل (سكبَه) بفتح الباء. والصواب ضمها كما أثبتنا. المحقق.

(٤) الأنفال: غنائم الحرب.

(٥) من سورة الأنفال آية (١).

ولما أفاء الله على رسوله في إحدى الغزوات كثيراً من الغنائم، اختص بها نفراً من المهاجرين، ولم يكن للأنصار منها شيء، فوجدَ الأنصار لذلك في أنفسهم، وانتشرت القالة فيهم، فأمر النبي ﷺ أن يجمع الأنصار، ولما حضروا قال: ألم آتكم ضُلاَّلاً فهداكمُ الله؟ وعالةً فأغناكم الله؟ وأعداء فألّف الله بين قلوبكم؟

قالوا: بلى لله ورسوله المنّ والفضل؛ ثم قال ﷺ: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ قال: والله! لو شئتم لقلتُم، فلصَدَقْتُم[1]: أتيتنا مُكَذّباً فصدقناك، وفقيراً فآويناك، ومخذولاً فنصرناكَ، فقالوا جميعاً: اللهُ ورسولهُ أمَنُّ وأفضلُ.

ثم قال: أتجدون عليَّ يا معشر الأنصار! في لعاعةٍ[2] من الدنيا تألّفتُ بها قلوبَ قومٍ ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار! أن يذهب الناسُ بالشاء والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟

فوالله لولا الهجرة لكنتُ امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شِعْباً، وسلكت الأنصار شِعْباً، لسلكتُ شِعْبَ الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار، هنالك بكى القوم حتى أخْضَلُوا[3] لحاهم[4]، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً.

قال ابن سعد: كان سعد بن عبادة يكتب في الجاهلية، ويحسنُ العوم ــ السباحة ــ والرمى، وكان مَنْ أحْسنَ ذلك، سمي الكامل، وكان سعدٌ كآبائه ينادي الناس على الطعام، يقول: من أحبَّ الشحم واللحم فليأت أطْعَمَ دُلَيم بن حارثة[5].

---

(١) في الأصل (ولَصُدِّقْتَكم). والصواب ما أثبتناه. المحقق.
(٢) لعاعة: زهرة.
(٣) في الأصل (أخْضَلُوا) بتشديد اللام المضمومة. والصواب ما أثبتنا. المحقق.
(٤) أخضلوا لحاهم: أي بلّوها بالدموع.
(٥) دليم جد سعد بن عبادة بن دليم ابن حارثة.

وهكذا عاش سعد بن عبادة سيد الخزرج عيشة الأبرار، ومات ميتة الأبرار، رضي الله عنه وأرضاه وجعل الجنة مأواه.

١١٥ ــ ترجمة سعد بن معاذ

سيد الأوس رضي الله عنه

سعد بن معاذ بن النعمان بن امرىء القيس بن زيد بن عبد الأشهل بن جشم بن الحارث. هو سيد الأوس، وكنيته: أبو عمرو، أسلم بالمدينة بين العقبتين، على يد المقرىء مصعب بن عمير، وقد شهد بدراً وأحداً والخندق، فرمي فيه بسهم عاش شهراً، ثم انتقض جرحُه، فمات، رماه حبّاب[1] بن قيس عرّق الله وجهه في النار. وضرب له رسول الله ﷺ خيمة في المسجد، فكان يعوده كل يوم؛ روى الترمذي وصححه النسائي من حديث جابرٍ قال: رمي يوم الأحزاب سعد بن معاذ، فقطعوا أكحله، فحسمه رسول الله ﷺ بالنار فانتفخت يده فتركه، فنزفه الدم فحسمه أخرى، فانتفخت يده، فلما رأى ذلك، قال سعيدٌ: اللهم! لا تخرج نفسي حتى تقر عيني من بني قريظة، فاستمسك عرقُه، فما قطر قطرة حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأرسل إليه، فحكم أن تقتل رجالُهم، وتسبَى نساؤهم، يستعينُ بهنَّ المسلمون، فقال رسول الله ﷺ: أصبت حكمَ الله فيهم، وكانوا أربعمائة، فلما فرغوا من قتلهم، انفتق العرقُ فمات سعدٌ شهيداً، روى الإمام مسلم في صحيحه من حديث جابر قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول وجنازة سعدٍ بين أيديهم: «اهتزَّ له عرش الرحمن».

وروى البخاري في صحيحه في حديث البراء، أن النبي ﷺ أتي بثوب من حريرٍ، فجعلوا يعجبون من لينه، فقال النبي ﷺ: «لمناديل سعد بن معاذٍ في الجنة أحسن من هذا»[2].

---

(١) في تاريخ الطبري جـ ٣ ص ٤٩ الطبعة الأولى بالمطبعة المصرية اسمه (حبان) بالنون لا بالباء (ابن قيس بن العرقة) أحد بني عامر بن لؤي. المحقق.

(٢) أنظر كتاب طرح التثريب في شرح التقريب ج ١ ص ٥٢.

ولما سمع الناس بوفاة سعدٍ، اجتمعوا وشيعوه وكان رسول الله ﷺ يسير مع المشيعين بجنازة سعدٍ رضي الله عنه.

وكان بعض المنافقين يسيرون بجنازة سعد، فقالوا: والله إن سعداً كان بادناً ــ أي سميناً ــ وما حملنا جنازة أخف منه؟ فبلغ ذلك إلى النبي ﷺ فقال: إن لسعدٍ حملةً غيركم والذي نفسي بيده! لقد استبشرت الملائكة بروح سعدٍ، واهتزَّ له العرش فرحاً.

وكانت أم سعدٍ رضي الله عنها تسير وراء جنازته وهي تقول:

ويــــل أم ســـعــــدٍ ســعــــداً ... صـــــرامـــــةً وجـــــداً
وســــــؤدداً ومجـــــــداً ... وفـــــارســـــاً مُـــعَـــدّاً
ســــدَّ بـــــه مـــــســـــدّاً ... يَـــقُـــدُّ هـــامـــاً قـــدّاً

وكان رسول الله ﷺ يسمعهم ويقول: «كل نائحة تكذب إلا نائحة سعد»، ثم مضوا به إلى مرقده الأخير، فلما فرغوا من دفنه، سبّح رسول الله ﷺ فسبَّح الناس معه، ثم كبَّر فكبروا فقال بعض الصحابة، ممَّ سبحت يا رسول الله؟ وكانوا لم يروا ذلك من قبل، فقال النبي ﷺ: لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبرُه حتى فرجه الله عنه، وإن للقبر لضمَّةً، لو كان أحدٌ منها ناجياً لكان سعد بن معاذ.

مضى سعد رضي الله عنه إلى ربه قرير العين، مشهوداً له بالصلاح من رسول الله ﷺ، وقد خدم الإسلام ودافع عنه، وبذل النفس والنفيس من أجل رفع راية الإسلام عاليةً خفاقةً.

مضى سعدٌ، وقد خسر المسلمون بوفاته بطلاً من أبطالهم؛ ودعامة قوية يرتكزون عليها أيام الجهاد والكفاح، وعنصراً من أكرم عناصر الرجال؛ وقد بكاه الصحابة الكرام، وحزنوا على فقده، وقد رثاه حسان بن ثابت فقال:

لـقد سجمتْ[1] من دمع عيني دمعةٌ ... وحـقَّ لـعـيني أن تـفـيـضَ على سـعـد

(١) (سَجَمْتْ العينُ الدَّمعَ. وسَجَمَتْ السحابةُ الماء: تَسْجِمُهُ وتَسْجُمُهُ سَجْماً وسُجُوماً وسَجَمَاناً: وهو قَطَرانُ الدَّمع وسَيَلانُه قليلاً كان أو كثيراً. لسان العرب. المحقق.

قتيل ثوىَ في معركٍ فُجعتْ به ... عيونٌ ذوارى الدمع دائمة الوجدِ
على ملّةِ الرحمن وارث جنةٍ ... مع الشهداء وفْدُهَا أكرمُ الوفدِ
فإن تكُ قد وَدَّعْتَنَا وتركتَنَا ... وأمسيتَ في غبراء مظلمةِ اللَّحْدِ
فأنتَ الذي يا سعد ابْتَ بمشهدٍ ... كريمٍ وأثواب المكارم والحمدِ
بحكمكَ في حيي قريظة بالذي ... قضَى اللهُ فيهم ما قضيتَ على عمدِ
فوافق حكم الله حكمُكَ فيهم ... ولم تعفُ إذْ ذُكرت ما كان من عهدِ
فإن كان ريبُ الدهر أقصاكَ في الأ ولى [1] ... شرَوْا [2] هذه الدنيا بجنّاتِها الخلدِ
فنعم مصيرُ الصادقينَ إذا دعوا ... إلى الله يوماً للوجاهة والقصدِ

رضي الله عن سعد بن معاذ وأرضاه، وجعل الجنة مثواه ومأواه آمين.

١١٦ ــ ترجمة النقيب سعد بن مالك رضي الله عنه

هو سعد بن مالك بن سنان بن ثعلبة بن عبيد بن الأبجر الخزرجي الأنصاري أبو سعيد الخدري رضي الله عنهما.

بايع سعدٌ الرسولَ ﷺ تحت الشجرة، وغزا الغزوات مع النبي ﷺ، وكان أبوه قد استشهد يوم أحدٍ رضي الله عنه.

كان سعد بن مالك رضي الله عنه من أهل الصفة [3]، و يروي أبو سعيدٍ أن أباه سعداً [4] كان في ضيق عيش وقد شكى إليه أهلُه [5]، فخرج إلى رسول الله ﷺ ليسأل لهم شيئاً، فوافقه على المنبر وهو يقول: «أيها الناس! قد

---

(١) (الأولى) بقصر ضمة الهمزة أي لا ينطق بالواو ومعناه: (الذين). المحقق.

(٢) (شرَوْا): باعوا. المحقق.

(٣) كما ذكره المحدث أبو نعيم في كتابه (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء) ج ١ ص ٣٦٩.

(٤) أبو سعيد الخدري: هو سعد بن مالك) وأبوه (مالك) لا «سعد» فليتأمل. المحقق.

(٥) في العبارة بعض اللَّبس. ونصّ عبارة الرياض المستطابة ص ٩٩ تحقيق عبد الله الأنصاري وعبد التواب هيكل (روي عنه) أي: عن سعد بن مالك (قال: أتيت النبيَّ ﷺ، أسأله شيئاً ــ وكان أبي قُتل يوم أحد وتركنا بغير مال ــ فلما رآني قال: «من يستعفّ يعفّه الله. ومن يستغنِ يُغْنِه الله» فقلتُ: ما أراد غيري، فرجعتُ. المحقق.

آنَ لكم أن تستعفُّوا من المسألة، فإنه مَنْ يستعفف يعفّه الله، ومن يستغن يُغْنِهِ الله، والذي نفس محمدٍ بيده! ما رُزِقَ عبدٌ من رزق أوسع من الصبر، وإن أبيتم إلا [1] تسألوني لأعطينكم ما وجدتُ».

١١٧ ــ ترجمة النقيب أسيد بن حُضير رضي الله عنه

هو النقيب أسيد بن حضير بن سماك بن عتيك الأنصاري الأشهلي رضي الله عنه؛ كنيته: أبو عتيك، وبه كنَّاهُ النبي ﷺ، وقيل: أبو يحيى، وقيل: أبو حضير؛ أسلم على يد مصعب بن عمير، وكان أحد النقباء ليلة العقبة، واختلف في شهوده بدراً، قال النبيُّ ﷺ: «نعم الرجل أسيد بن حضير».

وقال له: تلك الملائكة نزلت لقراءتكَ، ولو مضيتَ لرأيتَ العجائب.

وهو الذي أضاءت عصاه في ليلة ظلماء، هو وعبَّاد بن بشر، كما في صحيح البخاري؛ وقالت عائشة رضي الله عنها: (كان أسيد بن حضير من أفاضل الناس).

روى عنه أنس بن مالك، وأبو سعيد الخدري، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وغيرهم.

توفي سنة عشرين وصلَّى عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه. قاله ابن نمير [2].

١١٨ ــ أول سفير لرسول الله ﷺ لأهل المدينة

مصعب بن عمير رضي الله عنه

هو مصعب بن عمير الداري المحب المقرىء، أول الدعاة بأمر سيدنا محمدٍ رسول الله ﷺ؛ روى أبو الأسود عن عروة بن الزبير؛ أن الأنصار لما سمعوا من رسول الله ﷺ قوله، وأيقنوا واطمأنت نفوسهم إلى دعوته، فصدَّقوه وآمنوا به،

---

(١) لعل الأرجح (إلا أن تسألوني). المحقق.

(٢) أنظر كتاب (طرح التثريب في شرح التقريب) ج ١ ص ٣٥.

كانوا[1] من أسباب الخير، وواعدوه الموسم من العام القابل، فرجعوا إلى قومهم، بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعثْ إلينا رجلاً من قبلك؛ فيدعو الناس إلى كتاب الله، فإنه أدنى أن يتبع، فبعث إليهم رسول الله ﷺ (مصعب بن عمير أخا بني عبد الدار، فنزل ببني غنم على أسعد بن زرارة يحدثهم، ويقصُّ عليهم القرآن الكريم، فلم يزل مصعب عند سعد بن معاذ يدعو ويهدي الله على يديه، حتى قلَّ دار[2] من دور الأنصار إلا أسلم فيها ناسٌ لا محالة، وأسلم أشرافهم، وأسلم عمرو بن الجموح وكسرت أصنامهم، ورجع مصعب بن عمير رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ وكان يدعى المقرىء[3].

وروى ابن شهاب قال: لما بايع أهل العقبة رسول الله ﷺ فرجعوا إلى قومهم، فدعوهم سراً، وأخبروهم برسول الله ﷺ والذي بعثه الله به، وتلوا عليهم القرآن، بعثوا إلى رسول الله ﷺ معاذ بن عفراء، ورافع بن مالك: أن ابعثْ إلينا رجلاً من قبلك، فليدعُ الناس بكتاب الله فإنه قمن — أي حقيق — أن يُتَّبَعَ، فبعث إليهم رسول الله ﷺ (مصعب بن عمير) أخا بني عبد الدار، فلم يزل عندهم يدعو آمناً، ويهديهم الله على يديه، حتى قلَّ[4] دار من دور الأنصار إلا قد أسلم أشرافُهم، وكان المسلمون أعزَّ أهل المدينة؛ وكان أول من جمع الجمعة بالمدينة بالمسلمين قبل أن يقدمها رسول الله ﷺ.

وفي رواية عبيد بن عمير قال: لما فرغ رسول الله ﷺ يوم أحد مرَّ على مصعب بن عمير رضي الله عنه مقتولاً على طريقه فقرأ: (من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه)[5] الآية.

---

(١) كان ينبغي أن يقول (وكانوا) بالواو في أوله، لأن قوله بعد ذلك (بعثوا إلى رسول الله) خبر (أن) الواردة في أول الكلام. المحقق.

(٢) (حتى قلّ دار الخ). كان ينبغي أن يقول: (حتى لم تبق دار.. الخ). المحقق.

(٣) أنظر كتاب حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم ج ١ ص ١٠٦.

(٤) الصواب (حتى لم تبق دار.. الخ). المحقق.

(٥) جزء من الآية رقم (٢٣) من سورة الأحزاب. المحقق.

وعن عبيد بن عمير رضي الله عنه قال: مرَّ رسول الله ﷺ على مصعب بن عمير حين رجع من أحدٍ، فوقف عليه وعلى أصحابه، فقال: «أشهدُ أنكم أحياء عند الله، فزوروهم وسلموا عليهم، فوالذي نفسي بيده! لا يسلّم عليهم أحدٌ إلا ردُّوا عليه إلى يوم القيامة».

وعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «نظر النبيُّ ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهابُ كبشٍ قد تمنطق به فقال النبي ﷺ: انظروا إلى هذا الرجل الذي قد نوَّر الله قلبهُ، لقد رأيته بين أبوين يغذوانه، أطيب الطعام والشراب، فدعاهُ حبُّ الله ورسوله إلى ما ترون» (١).

هذه شهادة النبي ﷺ (٢) بمصعب بن عمير، وشهادة أصحابه إلى ما كان عليه هذا الصحابي الجليل منذ بزوغ فجر الإسلام لنهاية استشهادة في أحد، فرضي الله عنه وأرضاه وجعل الجنة مأواه.

١١٩ ــ ترجمة جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه

جابر بن عبد الله الأنصاري الخزرجي السلمي رضي الله عنه، قال جابر: غزوت مع رسول الله ﷺ تسع عشرة غزوة، ولم أشهد بدراً ولا أحداً، منعني أبي لصغر سني، فلما قُتل أبي لم أتخلَّف عن رسول الله ﷺ في غزوة قط؛ وقال أيضاً: أنا وأبي وخالي من أصحاب بيعة العقبة، وكان أبوه أحد النقباء رضي الله عنهم جميعاً.

كان جابر من أصغر الصحابة سناً، وكان من سادتهم وفضلائهم المتحفين بحب رسول الله ﷺ؛ روى عن رسول الله ﷺ ألفاً (٣) وخمسمائة وأربعين (٣) حديثاً.

توفي بالمدينة المنورة بعد أن كُفَّ بصرهُ سنة ثلاث وسبعين وهو ابن أربع وتسعين سنة من عمره، وصلّى عليه أبان بن عثمان وكان والي المدينة.

---

(١) عن المصدر السابق ج ١ ص ١٠٨.

(٢) الأفضل (لمصعب) باللام بدل الباء. المحقق.

(٣) في الأصل (ألف) و(أربعون) والصواب ما أثبتناه. لأنه مفعول به منصوب. المحقق.

وجابر رضي الله عنه آخر الصحابة موتاً بالمدينة المنورة[1]. رضي الله عن جابر وأرضاه وجعل الجنة مأواه، آمين.

١٢٠ ــ ترجمة العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه

العباس بن عبد المطلب، هو عم سيدنا محمد ﷺ، كان العباس يحبه حباً جماً، ولم يتأخر عن نصرته، وكان أكبر في السنّ من رسول الله ﷺ بثلاث سنين، وأسلم العباس في العام الثامن الهجري على أصح الروايات؛ ومن مظاهر حُبّه لرسول الله كلمتهُ التي مرتْ في بيعة العقبة الثانية؛ وهاجر النبي ﷺ وبقي العباس بمكة، حتى جاءت غزوة بدر، وأعدت قريش عدتها للقضاء على الإسلام والمسلمين، خرج العباس مكرهاً لقتال ابن أخيه الذي يحبه، ويضمر له كل خير، ولكن قريشاً أرغمته على الخروج وإطعام جيش المشركين وكانوا نحواً من ألف، ونادى الرسول ﷺ في جيشه: «إني عرفت أناساً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي منكم أحداً منهم فلا يقتله» ومن لقي أبا البحتري بن هشام فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، إنما أخرج مستكرهاً، وقد وقع في الأسر، أسره رجل من الأنصار يسمونه (أبا اليسر) وأوثقه بالحبال وساقه إلى معسكر الأسرى، وقد أرسل النبي ﷺ يقول له: «أفدِ نفسك يا عباس وابني أخيك عقيل ونوفل وحليفك عتبة» فقال العباس: احسب لي يا رسول الله ما أصبتم مني عشرين أوقية من مال كان معي، وكان معه يوم أسر عشرون أوقية فأخذها منه المسلمون نفلاً، فقال له الرسول مبتسماً: لا، ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك، ثم دفع العباس الفداء.

كان العباس معظماً في الجاهلية والإسلام، وكان إليه أمر السقاية في الجاهلية، ولقي النبيُّ ﷺ في سفر الفتح العباس وبنيه مهاجراً إلى المدينة، فرجع مع النبي ﷺ لمكة وكان سبب رجوعه، تسكين الشر وحقن الدماء، وبعد

(١) أنظر كتاب دليل الفالحين شرح رياض الصالحين ج ١ ص ٥٢.

الفتح خرج إلى حنين وثبت مع النبي ﷺ حين انهزم الناس عنه، وكان النبي ﷺ يعظّمه ويبجلّه، ولما رآه في طريق الهجرة قال ﷺ وهو فرح بإسلام عمه وبنيه: يا عم! هجرتك آخر هجرة، كما أن نبوّتي آخر نبوّة.

ولما ضاق المسجد بالمصلين، وقام عمر بن الخطاب بتوسعته، تقدم العباس بداره لأن المسجد بحاجة إليها وهي تدخل في التوسعة وقال: إني أتصدق بها على المسلمين أوسع عليهم في مسجدهم.

وفي عام الرمادة استسقى عمر بن الخطاب وأخذ معه العباس، ولما دعا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ربه قائلاً: اللهم! إنا نتقرَّبُ إليك بعم نبيك ﷺ، ودموع العباس تتساقط على لحيته، ودعا الله تعالى فما أن أتم دعاءه حتى شاهد الناس في السماء سحابة وما هي إلا دقائق معدودات حتى نزل الغيث وسقى الناس، فالتفَّ الناس حول العباس يقولون: هنيئاً لك ساقي الحرمين: وفي ذلك يقول حسان بن ثابت:

سأل الإمام وقد تتابع جدبُنا ... فسقى الغمامُ بغرّة العباسِ
عم النبي وصنو والدهِ الذي ... ورث النبي بذاكَ دون الناس
أحيا الإله به البلاد فأصبحت ... مخضرَّة الأخباب بعد اليابس[1]

روى من الأحاديث عن رسول الله ﷺ خمسة وثلاثين حديثاً، وتوفي بالمدينة المنورة في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه يوم الجمعة ١٢ شهر رجب سنة اثنتين أو أربع وثلاثين للهجرة، ودفن بالبقيع، وعمره (٨٩) سنة، وصلى عليه عثمان ودخل قبره ولده عبد الله بن عباس رضي الله عنه. ذكر علماء السير: أن العبّاس كان[2] إذا مرَّ بعمر بن الخطاب أو عثمان بن عفان، وهما راكبان، نزلا حتى يجاوزهما إجلالاً واحتراماً لعم رسول الله ﷺ؛ وكان سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقبل يد العباس ويقول: يا عم! ارضَ عني.

---

(١) في هذا البيت نظر، من حيث الوزن، وشطره الثاني غير مفهوم. المحقق.
(٢) (كان إذا مر) لم يذكر في الأصل لفظ (كان). المحقق.

١٢١ ــ ترجمة النقيب الشاعر

عبد الله بن رواحة رضي الله عنه

هو عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرىء القيس بن ثعلبة الخزرجي الأنصاري، شهد مؤتمر العقبة، وكان ليلتئذ نقيب بني الحارث بن الخزرج، شهد بدراً وأحداً والخندق والحديبية وخيبر، وعُمرة القضاء، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ إلا الفتح ــ أي فتح مكة ــ وما بعدها فإنه كان مستشهداً في غزوة مؤته.

وهو أحد الأمراء في غزوة مؤتة، وهو خال النعمان بن بشير رضي الله عنه وكان أول خارج إلى الغزوات، وآخر قادم.

وقد اشتهر بالحرب والبطولة والفداء، وكان أحد الشعراء المحسنين، الذين يردون الأذى عن رسول الله والإسلام والمسلمين.

قال الزبير بن العوام رضي الله عنه: أعوذ بالله أن يأتي يومٌ لا أذكر فيه عبد الله بن رواحة، كان إذا لقيني يقول: ياعويمر! اجلس، فلنؤمن ساعةً، فنجلس، فنذكر الله ما شاء، ثم يقول: ياعويمر! هذا الإيمان. وهو الذي شجّع المسلمين في غزوة مؤتة على لقاء الكفار وكان المسلمون ثلاثة آلاف، والكفار مائتي ألف.

وفي الصحيحين عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان في حرٍّ شديد، حتى أن أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر، وما فينا صائمٌ إلا رسول الله ﷺ، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنه.

وفي عبد الله بن رواحة، وحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وهؤلاء هم شعراء الرسول ﷺ، نزل قول الله تبارك وتعالى: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذكروا الله كثيراً﴾[1].

---

(١) جزء من الآية رقم (٢٢٧) من سورة الشعراء. المحقق.

آخى الرسول ﷺ بينه، وبين المقداد بن الأسود رضي الله عنه. ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: «رحم الله عبد الله بن رواحة، إنه يحب المجالس التي تتباهى بها الملائكة».

قال ابن إسحاق في سيرته: إنّ الرسول ﷺ حين دخل مكة في عمرة القضاء، دخلها وعبد الله بن رواحة آخذ بخطام ناقته وهو يقول:

خلّوا بني الكفار عن سبيلهِ ... خلّوا فكلُّ الخيرِ في رسولهِ
يا رب إني مؤمن بقيله (أي بقوله) ... أعرفُ حقَّ الله في قبوله
نحنُ قتلناكم على تأويله ... كما قتلناكم على تنزيله
ضرباً يزيلُ الهامَ عن مقيله ... ويذهلُ الخليلَ عن خليله

بعث رسول الله ﷺ بعثة إلى مؤتة[1]، في جمادى الأولى، سنة ثمان من الهجرة، واستعمل عليهم زيد بن حارثة وقال: إن أصيب زيد، فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر، فعبد الله بن رواحة على الناس؛ فلما ودّعَ عبد الله بن رواحة مع من ودّع من أمراء رسول الله ﷺ بكى، فقالوا ما يبكيك يا بن رواحة؟ فقال: أما والله! ما بي حب الدنيا، ولا صبابة بكم، ولكني سمعتُ رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله عز وجل، يذكر فيها النار، وهي قوله تعالى: ﴿وإنْ منكم إلا واردُها، كان على ربك حتماً مقضيّاً﴾[2] فلستُ أدري كيف لي بالصدر بعد الورود؟ فقال المسلمون: صحبكم الله ودفع عنكم، وردّكم إلينا صالحين، فقال عبد الله بن رواحة:

لكنني أسألُ الرحمنَ مغفرةً ... وضربةً ذات فرغٍ تقذفُ الزبدا[3]
حتي يقال إذا مرُّوا على جدثي ... يا أرشد الله من غازٍ وقد رشدا

---

(١) مؤتة: قرية من أرض البلقاء من الشام ــ قرب معان في الأردن الآن ــ وتسمى تلك الغزوة أيضاً غزوة جيش الأمراء، وذلك لكثرة جيش المسلمين فيها وما لاقوه من الحرب الشديدة مع الكفار.

(٢) الآية رقم (٧١) من سورة مريم. المحقق.

(٣) ذات سعة والزبد هنا الدم.

ثم إن القوم تهيئوا للخروج، فأتى عبد الله بن رواحة رسول الله ﷺ فودَّعه، ثم قال:

أنتَ الرسولُ فمن يُحرم نوافلَه ... والوجهَ منه فقد أزرَى به القدرُ
فثبَّتَ اللهُ ما آتاكَ من حسنٍ ... في المرسلين ونصراً كالذي نُصروا
إني تفرستُ فيكَ الخيرَ نافلةً ... فراسةً خالفَتْ فيك الذي نظروا

يعني المشركين، ثم مضوا حتى نزلوا «معان» من أرض الشام ــ بلدة في الأردن ــ فبلغ الناس، أن هرقل قد نزل أرض البلقاء في مائة ألف من الروم وانضمَّ إليهم من قبائل لخم، وجذام، والقين وبهراء وبلى، مائةُ ألف منهم، فصاروا مائتي ألف، فقال المسلمون نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدوِّنا، فإما أن يمدَّنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره، فنمضي له؛ فقام عبد الله بن رواحة يشجِّع الناس ويقول: يا قوم! والله إن التي تكرهون للَّتي خرجتم تطلبون، الشهادة، وما نقاتلُ الناسَ بعدَد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا اللهُ به، فانطلقُوا، فإنما هي إحدى الحسنين: إما ظهور وإما شهادة، فقال الناسُ: قد والله صَدَقَ ابنُ رواحة. فمَضَى الناسُ يقاتلون وقد نفخ ابنُ رواحة في روحهم، وألهب من حماستهم، وأشعل من حميتهم.

ثم التقى الناس واقتتلوا؛ فقاتل زيدُ بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى قُتل؛ ثم أخذ الراية جعفر بن أبي طالب فقاتل بها حتى قُتل، فأخذ الراية عبد الله بن رواحة.

جاء في شرح القسطلاني على صحيح البخاري: أنه لما أخذ اللواء عبد الله بن رواحة فقاتل فأصيب أصبعه، فارتجز وأنشد:

هل أنتِ إلا إصبع دميتِ ... وفي سبيل الله ما لقيتِ
يا نفسُ إلا تُقتلي تموتي ... هذي حياض الموتِ قد صُليتِ
وما تمنيت فقد لقيتِ ... إن تفعلي فعلهما هديتِ

وقد تمثّل النبيُّ ﷺ بالبيت الأول، فقد أخرج الإمامُ البخاري في صحيحه من طريق جُندب رضي الله عنه يقول: بينما النبيُّ ﷺ يمشي إذ أصابه حجرٌ فدميت أصبعهُ فقال:

هل أنتِ إلا إصبعٌ دميتِ ... وفي سبيل الله ما لقيتِ

قال في شرح القسطلاني: والصحيح أنه يجوز له عليه الصلاة والسلام أن يتمثل بالشعر و ينشده حاكياً له.

قال حسان بن ثابت يبكي عبد الله بن رواحة وصاحبيه:

فلا يبعدنَّ الله قتلى تتابعوا ... بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفرُ
وزيدٌ وعبد الله حين تتابعوا ... جميعاً وأسبابُ المنيةِ تَخْطِرُ
غداة مضوا بالمؤمنين يقودهم ... إلى الموت ميمونُ النقيبة أزهرُ
فطاعَنَ حتى مالَ غير موسدٍ ... بمعترك فيه قناً متكسِّرُ
فصار مع المستشهدين ثوابه ... جنان وملتفُّ الحدائقِ أخضرُ

هكذا انتهت حياةُ عبد الله بن رواحة؛ المؤمن الصابر الذاكر البطل مستشهداً في سبيل الله، مخلصاً له في جهاده، متفانياً في رفع منار دينه، وإرضاء ربه، رضي الله عنه وأرضاه وجعل الجنة مأواه.

١٢٢ ــ ترجمة الشاب المبايع للرسول ﷺ

معاذ بن جبل رضي الله عنه

هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عائذ [١] بن عدي الأنصاري الخزرجي المدني البدري؛ كان في طليعة السبّاقين إلى الإسلام؛ فقد شهد بيعة العقبة شاباً أمرد؛ قال عطاء: أسلم معاذ بن جبل وله من العمر ثمان عشرة سنة؛ وأمه هند بنت سهل من بني رفاعة؛ وقد شهد بدراً وعمره إحدى وعشرون سنة، وهو أحد علماء الصحابة.

---

(١) في الأصل (عائد) بالدال. والصواب بالذال. والتصحيح من أسد الغابة مجلد ٥ ص ١٩٤.

وكان معاذ طويل القامة، حسن الثغر والمنطق، عظيم العينين، أبيض جعداً؛ وله أحاديث عدة، روى عنه ابن عمر وابن عباس وجابر وأنس وغيرهم من أجلة الصحابة، قال ابن مسعود: إن معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يكن من المشركين؛ إنا كنا لنشبه معاذاً بإبراهيم عليه السلام.

روى قتادة عن أنس قال: جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ أربعة كلهم من الأنصار: (أبي بن كعب، وزيد، ومعاذ بن جبل، وأبو زيد) وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «خذوا القرآن من أربعة: من ابن مسعود، وأبي، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبي حذيفة».

وعن أنس مرفوعاً: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدها في دين الله عمر، وأصدقها حياء عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ، وأفرضهم زيد، ولكل أمةٍ أمين، وأمينُ هذه الأمة أبو عبيدة».

وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: معاذ بن جبل أعلم الناس بحرام الله وحلاله.

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: لو أدركتُ معاذاً، ثم وليتُه ثم لقيتُ ربي فقال: من استخلفتَ على أمة محمدٍ؟ لقلت: سمعتُ نبيَّك وعَبدكَ محمداً ﷺ يقول: يأتي معاذ بن جبل بين يدي العلماء برتوة (١).

قال معاذ رضي الله عنه: لما بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن، قال لي: كيف تقضي إن عرض قضاء؟ بما في كتاب الله، فإن لم يكن فبما قضَى به رسُولُ الله، قال معاذ: فسألني رسول الله قائلاً: فإن لم يكن فيما قضى به الرسول؟ قلتُ: أجتهد رأيي ولا آلُو؛ فضرب صدري وقال: «الحمد لله الذي وفَّق رسول رسول الله لما يُرضي رسول الله»؛ وروى عن رسول الله ﷺ (١٥٧) حديثاً.

وقد دعا له النبي ﷺ، فقد روى عاصم بن حميد قائلاً: إن معاذ بن جبل لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن خرج يوصيه، ومعاذ راكب، ورسول الله ﷺ

(١) برتوة: أي برمية سهم وقيل: مد البصر.

يمشي تحت راحلته؛ فلما فرغ قال ﷺ يا معاذ! إنك عسى ألا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمرَّ بمسجدي ومقامي؛ فبكى معاذ خَشيعاً لفراق رسول الله ﷺ، فقال له الرسول: لا تبكِ يا معاذ! إن البكاء من الشيطان[1]، ثم دعا له بقوله: «حفظك الله من بين يديك ومن خلفك، وذرأ عنك شرَّ الإنس والجنّ».

وعن أبي موسى أن رسول الله ﷺ لما بعثه ومعاذاً إلى اليمن، قال لهما: «يَسِّرا ولا تُعَسِّرا، وتطاوعا ولا تُنفِّرا».

روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نعم الرجل أبو بكر، نعم الرجل عمر، نعم الرجل معاذ بن جبل».

ويقول معاذ: لقيني رسول الله ﷺ فقال: يا معاذ! إني لأحبك في الله، قلتُ: وأنا والله يا رسول الله أحبُّك في الله، قال: أفلا أعلمك كلمات تقولهنَّ دبر كل صلاة: «رب أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن طاعتك».

وروى موسى بن علي بن رباح عن أبيه قال: خطب عمر بن الخطاب بالناس بالجابية فقال: من أراد الفقه فليأتِ معاذ بن جبل. وكان عمر يقول حين خرج معاذ بن جبل إلى الشام: لقد أخل خروجه بالمدينة وأهلها في الفقه، وفيما كان يفتيهم به، ولقد كنتُ كلمتُ أبا بكرٍ أن يحبسه لحاجة الناس إليه، فأبَى علي وقال: رجل أراد وجهاً ــيعني الشهادةــ فلا أحبسه، قلتُ: إن الرجلَ ليرزق الشهادة وهو على فراشه.

وهذا أبو سلمة الخولاني يقول: دخلتُ مسجدَ حمص، فإذا فيه زهاء ثلاثين كهلاً من الصحابة، وإذا فيهم شاب أكحل العينين برّاق الثنايا، ساكت، فقلت: من هذا؟ قيل: معاذ بن جبل. فوقعت محبتهُ في قلبي[2].

---

(١) في ثبوت هذا الكلام عن رسول الله ﷺ نظر. فقد ثبت أنه ﷺ بكى في بعض المواطن وأباح البكاء. المحقق.

(٢) أنظر كتاب طرح التثريب في شرح التقريب ج ١ ص ١١٣.

وفي رواية الموطأ عن أبي إدريس الخولاني قال: دخلتُ مسجد دمشق فإذا فتىً برَّاقُ الثنايا، وإذا الناسُ معه، فإذا اختلفوا في شيء أسندوهُ إليه، وصدَرُوا عن رأيه، فسألتُ عنه، فقيل: هذا معاذُ بنُ جبلٍ رضي الله عنه، فلما كان من الغد هجرتُ ــ أي بكرّت للمسجد ــ فوجدتهُ قد سبقني بالتهجير، ووجدته يصلي، فانتظرتُه حتى قضى صلاته ثم جئتهُ من قِبَل وجهه، فسلمتُ عليه ثم قلتُ: والله! إني لأحبُّكَ لله، فقال: آلله؟ فقلت: الله، فقال: آلله؟ فقلتُ: آلله، فأخذ بحبوة ردائي فجبذني إليه، فقال: أبشر فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: وجبتْ محبتي للمتحابين فيَّ، والمتجالسين فيَّ، والمتزاورين فيَّ، والمتباذلين فيَّ» حديث صحيح. رواه مالك بإسناد صحيح[1].

هذا هو الشاب الذي أسلم وعمره ثمان عشرة سنة، وشهد العقبة وبدراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وتوفي في طاعون عمواس بناحية الأردن بين الرملة والقدس، وقبره بغوربيان وعمره ثمان وثلاثون[2] سنة، رضي الله عن معاذ وأرضاه وجعل الجنة مأواه.

١٢٣ ــ ترجمة النقيب عبادة بن الصامت رضي الله عنه

النقيب عبادة بن الصامت رضي الله عنه هو أبو الوليد عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن ثعلبة بن غنم بن سالم بن عوف بن عمرو بن الخزرج الأنصاري الخزرجي، شهد العقبة الأولى والثانية مع رسول الله ﷺ، وهو أحد النقباء الأثني عشر، وشهد بدراً وأحداً والخندق وبيعة الرضوان وسائر المشاهد، وكان نقيباً على قوافل بني عوف بن الخزرج، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين أبي مرثد الغنوي، واستعمله النبي ﷺ على الصدقات لأمانته وثقة النبي ﷺ به، وكان يعلم أهل الصفة القرآن الكريم، ولما فتح الشام، أرسله

---

(١) أنظر دليل الفالحين شرح رياض الصالحين ج ٢ ص ٢٦٠.

(٢) في الأصل (وثلاثين) بالياء. والصواب بالواو لأنه مرفوع. المحقق.

عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومعاذاً وأبا الدرداء، ليعلموا الناس القرآن بالشام ويفقهوهم[1] بالدين. روى عن رسول الله ﷺ مائة وواحداً وثمانين[2] حديثاً؛ روى البخاري في تاريخه عن محمد بن كعب القرظيّ قال: جمع القرآن في زمن النبي ﷺ خمسة من الأنصار، فذكر منهم عبادة بن الصامت رضي الله عنه؛ وأرسله عمر إلى حمص يعلمهم القرآن ويفقههم في الدين، فأقام بها، ثم خرج بعد موت معاذ إلى فلسطين فمات بها بالرملة سنة أربع وثلاثين، وعمره اثنان وسبعون عاماً. وقيل مات سنة خمس وأربعين.

قال الإمام الأوزاعي: أول من ولي قضاء فلسطين عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وكان فاضلاً فقيهاً عالماً كريماً جميلاً طويلاً جسيماً. قال الهيثم بن عدي: توفي عبادة بن الصامت في خلافة معاوية. رضي الله عن عبادة وأرضاه وجعل الجنة مأواه.

١٢٤ ــ ترجمة النقيب البراء بن معرور رضي الله عنه

هو أحد النقباء السابقين إلى الإسلام، والمبايعين لرسول الله ﷺ في العقبة يوم اجتماعهم في موسم الحج، وكان البراء بن معرور الخزرجي رضي الله عنه شيخاً مسناً، وله مقام كبير عند معارفه وأهل بلده، ولما عرض الرسول ﷺ نفسه على من يبايعونه على الإسلام بأن يحموه من الأعداء ويمنعوه[3]؛ أخذ البراء بيد النبي ﷺ وعاهده على ذلك باسم الحاضرين جميعاً؛ وقد اختاره النبي ﷺ نقيباً لبني سلمة، وللبراء شهرة في تاريخ الإسلام، وقد طلب من النبي ﷺ تحويل القبلة، لأنه كان يستقبل الكعبة في صلاته، فأجابه النبيّ ﷺ: لقد كنت على قبلة لو صبرت عليها، فرجع إلى قبلة رسول الله ﷺ

---

(١) في الأصل (ويفقهونهم) بإثبات النون. والصواب حذفها لأن المضارع منصوب وهو من الأفعال الخمسة. المحقق.

(٢) في الأصل (وأحد وثمانون). والصواب ما أثبتناه. المحقق.

(٣) في الأصل (يحمونه ويمنعونه) والصواب بحذف النون فيها لأن كليهما من الأفعال الخمسة منصوب بحذف النون. المحقق.

واستقبل الشام ــ أي بيت المقدس القبلة الأولى ــ غير أنه عندما حانت منيته، طلب أن يدفن متجهاً نحو الكعبة.

وتوفي البراء بن معرور في شهر صفر، قبل أن يصل النبي ﷺ إلى المدينة يوم هجرته بشهر.

أوصى البراء قبل موته بأن ثلث ممتلكاته للنبي ﷺ [1]. رضي الله عن البراء بن معرور وأرضاه وأسكنه فسيح الجنان.

١٢٥ ــ ترجمة أبي بن كعب الأنصاري الخزرجي رضي الله عنه

هو أبي بن كعب، بن قيس بن عبيد بن عبد يزيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج الأكبر، الأنصاري الخزرجي، القارىء المدني.

شهد أبي بن كعب العقبة الثانية في السبعين من الأنصار، وشهد بدراً وغيرها من المشاهد مع رسول الله ﷺ وروى عن رسول الله ﷺ مائة حديث وأربعة وستين حديثاً. منها ما رواه الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أنس رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ قرأ على أبي بن كعب سورة ﴿لم يكن الذين كفروا﴾ وقال: أمرني الله عز وجل أن أقرأ عليك».

وهذه منقبة عظيمة لأبي، لم يشاركه فيها غيره.

توفي بالمدينة المنورة، ودفن بها، سنة ثلاثين في خلافة عثمان رضي الله عنه، ولكن الأكثر على أنه مات في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه والقول الأول لأبي عثمان الأصفهاني، والثاني لابن عبد البر، والقول الأول هو الصحيح [2].

---

(١) أنظر كتاب (دائرة المعارف الإسلامية) المجلد الثالث ص ٤٨١.
(٢) أنظر كتاب (دليل الفالحين شرح رياض الصالحين) ج ١ ص ٣٧٢.

وجاء في كتاب حلية الأولياء[1]: عن أبي بن كعب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أبا المنذر[2] آية من كتاب الله معك أعظم؟ قلت: الله ورسوله أعلم[3]. قال: «أبا المنذر! أي آية من كتاب الله معك أعظم؟» قلتُ: ﴿الله لا إله إلا هو الحيُّ القيومُ﴾ فضرب صدري وقال: ليهنك العلم أبا المنذر!).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال لأبي ابن كعب: إن الله عز وجل أمرني أن أقرأ عليك، قال أبي: الله سمّاني لك؟ قال: نعم، الله سمّاك لي، فجعل أبيّ يبكي.

وعن قيس بن عباد قال: قدمتُ المدينة للقاء أصحاب محمد ﷺ فلم يكن فيهم أحدٌ أحبَّ إليَّ من لقاء أبي بن كعب، فقمتُ في الصف الأول، فخرج فلما صلّى حدّث، فما رأيتُ الرجال ملحتْ أعناقها إلى شيء متوحها إليه، فسمعته يقول: هلك أهل العقدة ــ يريد رجال البيعة ــ ورب الكعبة! قالها ثلاثاً، هلكوا ولهلكون، أما إني لا آسى عليهم، ولكني آسى على من يهلكون من المسلمين.

وعن أبي بن كعب قال: كان رسول الله ﷺ، إذا ذهب ربع الليل قال: «يا أيها الناس! اذكروا الله جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموتُ بما فيه» يقولها ثلاثاً.

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: ألا أعلمك كلمات مما علمني جبريل عليه السلام؟ قلتُ: نعم يا رسول الله! قال: «قل اللهمّ! اغفر لي خطايا[4]،

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج ١ ص ٢٥٠.

(٢) في الأصل (أبا المنذر آية) بدون كلمة (أي). والتصحيح من حلية الأولياء جـ ١ ص ٢٥٠. المحقق.

(٣) من أول (الله ورسوله أعلم) إلى (قلت) لم يذكر في الأصل. وقد نقلناه من المصدر المذكور. المحقق.

(٤) الذي أحفظه (خطئي) لا (خطاياي) فليتحقق. المحقق.

وعمدي، وهزلي، وجدّي، ولا تحرمني بركة ما أعطيتني، ولا تفتنّي فيما حرمتني».

رضي الله عن أبي بن كعب وأرضاه، وجعل الجنة مثواه ومأواه آمين.

١٢٦ ـ ترجمة الشاعر المبايع لرسول الله ﷺ
كعب بن مالك رضي الله عنه

هو كعب بن مالك الصحابي الأنصاري الخزرجي، وهو أحد شعراء الرسول ﷺ الذين كانوا يردُّون عنه الأذى، ويذبُّون عن أعراض المسلمين ويدافعون عن كرامتهم، وكانوا ثلاثة: حسان بن ثابت، وعبد الله ابن رواحة، وكعب بن مالك رضي الله عنهم، فكان حسان يقبل على الأنساب، وابن رواحة يعيّرهم بالكفر، وكعب يخوفهم الحرب.

شهد كعب بن مالك مؤتمر العقبة الثالثة مع الأنصار، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين، يقول كعب: ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ العقبة، وحين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدرٍ، وإن كانت غزوة بدر أذْكَرُ في الناس منها.

شهد الغزوات كلها ما عدا بدراً وتبوك؛ كان لكعب موقف كبير في غزوة أحد، يصوّر لنا شجاعته وتفانيه في محبة رسول الله ﷺ، والدفاع عن الإسلام دفاع المستميت المتفاني، وموقف آخر في تبوك يدل على إيثاره للفقراء على نفسه، وميله إلى الإحسان في سبيل الترفيه عن البائسين والمساكين، والخروج عن جُلِّ ماله ليكفر عن ذنبه، ويتطهّر من خطيئته.

والشاعر أو الفنان متى رزق الإيثار ومحبة الجميع، وترفع عن الأثرة والأنانية، كَمُلَتْ إنسانيتهُ، وصفتْ قريحتُه، وزكَتْ نفسُه، وسما فنُّه، وصدقَ إلهامُه.

فلا غرابة إذن، إذا جاء شعر كعب بن مالك صافي الديباجة، صادق العاطفة، يشعر القارىء له بحرارة إيمانه، وتوثب حماسته، وقوة يقينه، وواقعيّة وصفه، لذا جاء شعره في الحرب محبباً إلى النفوس المؤمنة، مثيراً للهمم

المجاهدة، قَلَّ من يدانيه في هذا الباب، أما موقفه المجيد في غزوة أحدٍ. فذلك عندما تَفَرَّقَ المسلمون في القتال، وولّى من ولّى، ونادى من المشركين من نادى بأن محمداً قُتل، فاشتغل كل واحدٍ من المسلمين بهمِّه والذبِّ عن نفسه؛ أما كعب بن مالك فأخذ يبحث عن رسول الله ﷺ ليبشّر المؤمنين. فقد روى الطبراني برجال ثقات عن كعب قال: لما كان يومُ أحدٍ، وصرنا إلى الشعب، كنتُ أول من عرف رسول الله ﷺ فقلت: هذا رسول الله؛ فأشار إليَّ بيده: أن اسكُتْ؛ ثم ألبسني لامته ــ أي درعه ــ ولبس لامتي: فلقد ضربت حتى جُرحتُ بضعاً وعشرين جرحاً، كل من يضربني يحسبني رسول الله ﷺ.

وموقف الإيثار في غزوة تبوك، كان حين تخلّف كعبٌ مع مَنْ تخلّف من المسلمين، وكانوا ثلاثة، وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وقد أبطأت بهم النية من غير شكٍّ، ولا ارتياب، فقال رسول الله ﷺ: لا تكلمُنَّ أحداً من هؤلاء الثلاثة، ليذيقهم مرارة بطئهم، وغصَّة تخلّفهم، وتأنيب ضميرهم، فاعتزل المسلمون كلامهم مدة خمسين ليلة، حتى إذا ضاقَتْ عليهمُ الأرضُ بما رَحبَتْ، وضاقتْ عليهم أنفسُهم، وظنُّوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه، ثم تاب عليهم ليتوبوا.

فأنزل الله توبتهم في القرآن.

فأقبل كعب بن مالك حتى وافى الرسول ﷺ فقال له: يا كعب! أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذُ ولدتْك أمُّك، فقال: أمن عندك يا رسول الله! أو من عند الله؟ قال: من عند الله، وتلا عليه الآيات فقال كعب: يا رسول الله! إن من تمام توبتي أن أنخلع من مالي صدقةً، فقال له ﷺ: أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك، قال: فالثلثان؟ قال ﷺ: لا، قال: فالنصف؟ قال: لا، قال: فالثلث؟ قال: نعم.

توفي كعب كما ذكر في كتاب الاستيعاب: في زمن معاوية سنة خمسين، وقيل: سنة ثلاث وخمسين للهجرة، وهو ابن سبعٍ وسبعين وكان قد عمي في آخر عمره.

أما شعره فقد قال في يوم أحد يردُّ على شعراء المشركين:

فلما التقينا ودارت بنا الرحى ... ولينا لأمر جمَّه الله مُدفَعُ
ضربناهم حتى تركنا سراتهم ... كأنهم بالقاع خُشْبٌ مُصَرَّعُ
لبئس الطريدة استفيضنا عشيةً ... كأن ذكانا جمرُ نارٍ تلفَّعُ
عدلنا إليهم ضارعاً موجفين كأنهم ... هِجانٌ هراقت ماءه الريحُ مقلعُ
ورحنا وأخرانا بطاء كأننا ... أسودٌ على لحم بسيشة طُلَّعُ
فنلنا ونال القوم منا ورِمنا ... فهلنا ولكن ما لدى الله أوسعُ
ونحنُ أناسٌ لا نرى القتلَ سُبَّةً ... على كل مَنْ يحمي الذِّمارَ ويمنعُ
بنو الحرب لا نعيا بشيء نقوله ... ولا نحن مما جرَّت الحربُ نجزعُ
بنو الحرب إن نظمُر فلسنا بفُحَّش ... ولا نحن من أظفارها نتوجَّعُ

وقال: يبكي حمزة بن عبد المطلب، وقد قُتل رضي الله عنه في يوم أحد:

بكيتُ بعيني وجُودَ لها بُكاها ... وما يُغني البكاء ولا العويلُ
على أسد الإله غداةَ قالوا ... أحمزةُ ذاكمُ الرجلُ القتيلُ
أصيبَ المسلمونَ به جميعاً ... هناكَ وقد أصيبَ به الرسولُ
أبا يعلَى لكَ الأركانُ هُدَّتْ ... وأنتَ الماجدُ البرُّ الوَصُولُ
عليكَ سلامُ ربكَ في جنانٍ ... مخالطُها نعيمٌ لا يزولُ

ولما خرج رسول الله ﷺ في شعبان سنة أربع إلى بدر الآخرة، وهي موعد أبي سفيان؛ فأقام عليه الصلاة والسلام ثماني ليال ينتظر أبا سفيان، وخرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مجنَّة، ثم بدا له في الرجوع فقال: يا معشر قريش! إنه لا يُصلحكم إلا عامٌ خصيبٌ، ترعونَ فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن، وإن عامكم هذا عامُ جدب، وإني راجعٌ فارجعوا؛ فرجع الناسُ، فسمّاهم أهلُ مكة جيش السويق، يقولون: إنما خرجتم تشربون السويق.

فقال كعب بن مالك يسجّلُ على المشركين خُلفهم الموعد، وفرارهم، وهزيمتهم:

وَعَدْنَا أبا سفيانَ بدراً فلم نجد ... لميعادهِ صدقاً وما كان وافيا
فأقسمُ لو وافيتَنا فلقيتَنا ... لأبْتَ ذميماً وافتقدتَ الموالِيا
عصيتُم رسولَ الله أفّ لدينكم ... وأمركم السَّيْء الذي كان غاويا
فإني وإن عنفتموني لقائلٌ: ... فِدى لرسولِ الله أهلي ومالِيا
أطعناهُ لم نَعْدِلْهُ فينا بغيره ... شهاباً لنا في ظلمةِ الليلِ هاديا

ولما كان عام الأحزاب (قريش وغطفان وبنو قريظة) وردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً، قال النبيُّ ﷺ: مَنْ يحمي أعراض المسلمين؟ فقال كعب: أنا يا رسول الله! ثم أنشد:

لقد علم الأحزابُ حين تألَّبُوا ... علينا وراموا دينَنا ما نوادعُ
أضاميمُ من قيس بن عَيلان أصفقت ... وخندف لم يدروا بما هو واقعُ
ينودوننا عن ديننا و ينودهم ... عن الكفر والرحمن راءٍ وسامعُ
إذا غايظونا في مقامٍ أعانَنا ... على غيظهم نصرٌ من الله واسعُ

فرضي الله عن كعب وأرضاه وجعل الجنة مأواه آمين.

١٢٧ ــ ترجمة نسيبة بنت كعب بن عمرو بن عوف أم عمارة الأنصارية رضي الله عنها

جاء في كتاب (أعلام النساء)[٢]، صحابية جليلة، ومجاهدة كبيرة، ذات صلاح ودينٍ ونسكٍ واجتهادٍ، واعتمادٍ على النفس، أسلمت قديماً وحضرت ليلة العقبة، وبايعت النبي ﷺ، وشهدت أحداً مع زوجها (غزية بن عمرو، وابنيها)[٣]، فخرجت في أول النهار تريد أن تسقي الجرحى، فانتهت إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه والدولة والريح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون

(١) لعل كلمة (بن) زائدة. والعبارة (قيس عيلان). المحقق.
(٢) ج ٥ ص ١٧١ لعمر رضا كحالة.
(٣) وجاء في كتاب الاستيعاب: أنها شهدت أحداً مع زوجها زيد بن عاصم، ومع ابنيها حبيب وعبدالله.

انحازت إلى رسول الله ﷺ بالسيف، وأخذت ترمي بالقوس حتى خلصت إليها الجراح، وذلك لما ولّى الناسُ عن رسول الله ﷺ، وقد أقبل ابن قميئة وهو يصيح: دلُّوني على محمدٍ، فلا نجوت إن نجا؛ فاعترض له مصعب بن عمير ونافر معه، وقد كانت أم عمارة فيهم، فضربها ضربةً، وضربتْهُ على ذلك ضربات، ولكن كان عليه درعان، فاتَّقى بهما ضرباتها.

وحدثتْ أمُّ عمارة عن وقعة أحدٍ فقالت: انكشف الناسُ عن رسول الله ﷺ، فما بقي إلا نفرٌ ما يتممون عشرة، وأنا وابناي وزوجي بين يديه، نذبُّ عنه ﷺ، والناس يمرُّون منهزمين، ورآني ﷺ لا ترس لي معي، فرأى رجلاً مولياً معه ترس، فقال لصاحب الترس: القِ ترسك إلى من يقاتل، فألقى ترسه، فأخذته[1]، فجعلتُ أترس به عن رسول الله ﷺ، وإنما فعل بنا الأفاعيل أصحاب الخيل، لو كانوا رجالة مثلنا أصبناهم إن شاء الله، فيقبل رجلٌ عليَّ على فرس، فضربني وتترستُ له فلم يصنع سيفُه شيئاً وولّى، وأضربُ عرقوب فرسه فوقع على ظهره، فجعل النبيُّ ﷺ يصيح يا ابن أمّ عمارة! أمك أمك. قالت: فعاونني عليه حتى أوردتهُ شعوب ــ أي الموت ــ.

وظلّتْ أم عمارة تقاتل، وتداوي الجرحى وتسقيهم الماء حتى جُرح ابنها عبيد بن زيد. وجعل دمه يسيل، وهي لاهية عنه، بقتال الأعداء، حتى نادى رسول الله ﷺ ابنها، فقال: اعصب جرحك. فتنبَّهتْ إلى ابنها، وأقبلت إليه ومعها عصائب حقويها، وقد أعدتها للجراح، فربطتْ جُرْحَهُ، والنبي ﷺ واقف ينظر إليها، ثم قالت أم عمارة لابنها: بنيَّ! انهض فضارب القوم، فجعل النبي ﷺ يقول: ومَنْ يطيق ما تطيق أم عمارة؟ ثم أقبل الرجلُ الذي ضرب ابنها فقال رسول الله ﷺ هذا ضارب ابنك، قالت: فاعترضتُ له، وضربته بساقه فبرك، قالت: فرأيت رسول الله ﷺ يبتسم حتى رأيتُ نواجذه وقال: استقدْتِ يا أم عمارة! ثم أقبلُوا يعلونه بالسلاح حتى أتوا على نفسه، فقال النبي ﷺ: الحمد لله الذي أظفرك، وأقرَّ عينك من عدوك، وأراك ثأرك بعينك.

---

(١) في الأصل (فأخذته أم عمارة فجعلت الخ). والصواب ما أثبتناه. المحقق.

وفي رواية: أن رسول الله ﷺ كان يقول: لمقام نسيبة اليوم، خير من مقام فلان وفلان، وكان يراها يوم أحد تقاتل أشد القتال، وإنها لحاجزة ثوبها على وسطها حتى جُرحت ثلاثة عشر جرحاً، وكان ﷺ يقول: إني لأنظر إلى ابن قميئة وهو يضربها على عاتقها، وكان أعظم جراحها فداوتهُ سنةً، ثم نادَى منادي رسول الله ﷺ إلى حمراء الأسد، فشدَّتْ عليها ثيابها، فما استطاعت من نزف الدم، ولقد مكثوا ليلتهم يضمدون الجراح حتى أصبحوا؛ فلما رجع رسول الله ﷺ من الحمراء ما وصل رسول الله ﷺ إلى بيته، حتى أرسل إليها عبد الله بن كعب المازني يسأل عنها، فرجع إليه يخبرهُ بسلامتها، فسرَّ بذلك النبيُّ ﷺ، وقيل لأم عمارة: يا أم عمارة! هل كنَّ نساء قريش يومئذٍ يقاتلن مع أزواجهنَّ؟ فقالت: أعوذ بالله، لا والله ما رأيتُ امرأة منهنَّ رمت بسهم أو حجرٍ، ولكن رأيت معهنَّ الدفوف يضربْنَ، ويذكرون القومَ قتلى بدر، ومعهنَّ مكاحل ومراود، فكلما ولّى رجلٌ تكعكع ناولته إحداهنَّ مروداً ومكحلة ويقلْنَ: إنما أنت امرأة، ولقد رأيتهنَّ ولَّيْن منهزمات مشمرات، ولها عنهنَّ الرجالُ أصحاب الخيل ونجوا[1] على متون خيلهم، وجعلنَ يَتْبَعْنَ الرجالَ على أقدامهنَّ، فجعلنَ يسقطْنَ في الطريق، ولقد رأيتُ هند ابنة عتبة، وكانت امرأة ثقيلة، ولها خلق قاعدة حاشية من الخيل[2]، ما بها مشي، ومعها امرأة أخرى، حتى كثر القوم علينا، فأصابوا منا ما أصابوا.

وأُتِيَ عمر بن الخطاب بمروط، فكان فيها مرطٌ جيدٌ واسعٌ فقال بعضُهم: إن هذا المرط لثمن كذا وكذا، فلو أرسلتَ[3] به إلى زوجة عبد الله بن عمر (صفية بنت أبي عبيدة)؛ وقال أحدهم: ابعث به إلى من هو أحق به منها، أم عمارة نسيبة بنت كعب، فقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول يوم أحد: ما التفتُّ يميناً ولا شمالاً إلا وأنا أراها تُقاتلُ دوني.

---

(١) في الأصل (ونجُوا) بضم الجيم. والصواب فتحها لأن الفعل معتل الآخر بالألف. المحقق.

(٢) (ولها خلق قاعدة حاشية من الخيل) هذه العبارة غير مفهومة. فيبحث عن مرجعها. المحقق.

(٣) في الأصل (أرسلتُ) بضم التاء والصواب فتحها لأنها تاء المخاطب. المحقق.

وقد شهدتْ أم عمارة نسيبة، بيعةَ الرضوان، ثم شهدتْ قتالَ مسيلمة الكذاب باليمامة، وذلك لما تهيأ بعثُ خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى اليمامة؛ جاءت إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فاستأذنتهُ للخروج، فقال لها: قد عرفنا جزاءكِ في الحرب، فاخرجي على اسم الله وأوصَى خالدَ بن الوليد بها، وكان مستوصياً بها، وقد جاهدت باليمامة أجلَّ جهادٍ، وجرحت أحد عشر جرحاً[1]، وقطعت يدُها وقُتل ولدُها ولمَّا انقطعت الحرب، وصارت أم عمارة بمنزلها، جاءها خالد بن الوليد إلى منزلها، يطلب من العرب مداواتها بالزيت المغلي، فكان أشدَّ عليها من القطع، وكان خالد كثير التعاهد بها حسن الصحبة، يعرفُ حقَّها، ويحفظ فيها وصية النبي ﷺ؛ ولما قدمت المدينة المنورة وبها الجراحة رثى أبو بكر الصديق في عيادتها، وكان الصدّيقُ رضي الله عنه يأتيها ويسأل عنها وهو يومئذٍ خليفة.

وروى عنها المحدثون: عباد بن تميم، والحارث بن عبد الله بن كعب، وعكرمة مولى ابن عباس وغيرهم.

وروى الترمذي والنسائي وابن ماجه لها.

فقد روى عكرمة عن أم عمارة رضي الله عنها أنها أتتِ الرسول ﷺ فقالت: ما أرى كل شيء إلاّ[2] للرجال، وما أرى النساء يُذكرنَ؟ فنزل قول الله تبارك وتعالى: ﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات﴾[3] الآية بحقها وبحق أمثالها.

رضي الله عن نسيبة بنت كعب وأرضاها وجعل الجنة مأواها.

١٢٨ ــ ترجمة النقيب أبو الهيثم بن التيهان رضي الله عنه

إن أبا الهيثم بن التيهان لم أعثر له على ترجمة بعد الاستطلاع، غير أني عثرت

---

(١) أنظر طبقات بن سعد، والاستيعاب لابن حجر، وكتاب المناقب للمقدسي.

(٢) في الأصل (ما أرى كل شيء للرجال) بدون كلمة (إلا). والتصحيح من سنن الترمذي جـ ٥ ص ٣٥٤ تفسير سورة الأحزاب. المحقق.

(٣) جزء من الآية رقم (٣٥) من سورة الأحزاب. المحقق.

على نسبه، فهو النقيب الذي عده الرسول ﷺ من النقباء في البيعة الكبرى الأثني [1] عشر.

واسمه مالك بن مالك بن عتيك بن عمرو بن عبد الأعلى بن عامر بن زعور بن جُشم بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس رضي الله عنه.

١٢٩ ــ خلاصة القول في البيعات وتراجم بعض الشخصيات

عرفنا فيما قدمناه، من أن البيعات التي ذكرت عند بدء إسلام بعض أهل المدينة، وإعطائهم العهد على حماية الرسول ﷺ، ذكرت للسادة القراء بعد ذلك تراجم بعض هؤلاء المبايعين، وممن اتخذ منهم النقباء عن عشائرهم وقبائلهم، كما شرحت عن المبايعين لرسول الله ﷺ من تراجم شعرائهم.

وكانت البيعات التي حصلت لرسول الله ومصطفاه ﷺ ثلاثاً:

الأولى: بيعة العقبة بمنى على بيعة النساء.

والثانية: على منعه وحمايته مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم.

والثالثة: كانت بيعة الرضوان تحت الشجرة المذكورة في القرآن في الحديبية: على أن لا يفروا من الموت في معارك الجهاد في سبيل الله وكانت في سنة ست من الهجرة، وسيأتي ذكرها في حينها.

أما الآن فأعود لمواصلة أعمال رسول الله ﷺ بعد البيعة للنقباء، وما حصل بعد ذلك.

وإنما ذكرت تراجم بعض النقباء استجابة لبعض إخواني الأعزاء، للتعرف على هذه الشخصيات، ولم آل جهداً في الكشف عن كل شخصية عثرت على بعض المشروحات عنها، لتكون مرآة صافية لكل مقتدٍ بهؤلاء الرجال، وسأذكر في كل مناسبة من مناسبات خُطا النبي ﷺ، تراجم أصحابه ليكون كتابنا كاملاً بإذن الله تعالى. على قدر الإمكان، وتوفيق الله تبارك وتعالى.

---

(١) لو قال (من النقباء الإثني عشر في البيعة الكبرى) لكان أوضح. المحقق.

في هذا الكتاب

أمنية المؤمن في سيرة محبوبه.
وقيثارة الشاعر المبدع في قصيده.
وهدف العالم العامل من مطلوبه.
وغاية المؤرخ العادل في هوايته.
ورغبة كل مسلم في تحقيق رغبته.
تلك هي سيرة سيد الخلق على الإطلاق.

مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ

من يوم ولادته، إلى التحاقه بالرفيق الأعلَى
وما تخلل ذلك من أقوالٍ وأعمالٍ وتشريعات
وهداية للبشرية، نوَّرتْ سبيل الإنسانية،
وحقَّقتْ للعالم السلام العادل، كما قضتْ
على الوثنية والجاهلية، كل ذلك مؤكَّدٌ،
بأصح روايةٍ، وأسهل عبارة، وأصدق حديثٍ،
وأقوى دليلٍ؛ فهي الخلاصة الوافية، لكل
طالبٍ وراغبٍ إن شاء الله تعالى.

المؤلف

فهرس الجزء الأول

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٣
حقيقة في خدمة المسلم	٤
تقديم مدير ادارة إحياء التراث الاسلامي ــ دولة قطر	٥
١ – المقدمة	٧
٢ – نسب النبي ﷺ	١١
٣ – عبد المطلب وأعماله	١٣
٤ – زواج عبد الله بن عبد المطلب بآمنة	٢٤
٥ – مولد حبيب الله ومصطفاه ﷺ	٢٥
٦ – رضاعه ﷺ	٢٨
٧ – قصة شق الصدر الهامة	٢٩
٨ – الحضُّ على قتله ﷺ صغيراً	٣١
٩ – كفالة عبد المطلب لحفيده محمد ﷺ	٣٢
١٠ – وفاة آمنة بالأبواء	٣٣
١١ – وفاة عبد المطلب	٣٣
١٢ – كفالة أبي طالب لابن أخيه محمد بن عبد الله ﷺ	٣٤
١٣ – رحلة محمد ﷺ الأولى إلى الشام مع عمه أبي طالب	٣٥
١٤ – من هو بحيرا الراهب؟	٣٧
١٥ – رعية ﷺ الغنم بمكة	٣٨
١٦ – نشأة محمد وكمال عقله ﷺ	٣٩

الموضوع	الصفحة
١٧ – حسنُ صورته وكمال خلقته ﷺ	٤٠
١٨ – كمال منطقه ﷺ	٤١
١٩ – كمال عقله ﷺ	٤٢
٢٠ – نجدته وشجاعته ﷺ	٤٢
٢١ – عود إلى بدء	٤٣
٢٢ – حرب الفجّار التي وقعت سنة (٥٨٠-٥٩٠) م	٤٣
٢٣ – حلف الفضول	٤٥
٢٤ – ابتعاد محمد رسول الله ﷺ عن عادات الجاهلية	٤٦
٢٥ – الرحلة الثانية للرسول ﷺ إلى الشام كانت سنة (٨٩٥)م	٤٨
٢٦ – سيدنا محمد ﷺ في تجارة خديجة	٤٩
٢٧ – زواج سيدنا محمد ﷺ بخديجة	٥٠
٢٨ – خديجة بنت خويلد رضي الله عنها	٥٢
٢٩ – الرسول الكريم ﷺ في منزل خديجة	٥٣
٣٠ – تجديد بناء الكعبة سنة (٦٠٥) م	٥٤
٣١ – ردُّ شبهة في تسميته الأمين ﷺ	٥٧
٣٢ – معيشة النبي ﷺ قبل البعثة	٥٨
٣٣ – سيرته ﷺ قبل البعثة في قومه	٦٠
٣٤ – ما أكرمه الله تعالى به قبل النبوة	٦١
٣٥ – احترام سيدنا محمد ﷺ نفسه	٦٣
٣٦ – فضائل محمد ﷺ الاجتماعية ــ جوده وسخاؤه	٦٤
٣٧ – شهادات عالمية في رسول الله ومجتباه ﷺ	٦٧
٣٨ – الباحثون عن دين إبراهيم خليل الله عليه السلام	٧٠
٣٩ – رد شبهة واهية عن حبيب الله ومصطفاه ﷺ في عالمية الإسلام	٧٣
٤٠ – عبادة الأصنام والأوثان	٧٥

الموضوع	الصفحة
٤١ - الكتب السماوية تبشر بمبعث سيدنا محمد ﷺ	٨٠
٤٢ - حركة الأفكار قبل بعثة سيدنا محمد ﷺ	٨٦
٤٣ - الاسباب الاجتماعية والاقتصادية التي اقتضت بعثة محمد ﷺ	
أولاً: حال الفرس	٨٧
٤٤ - ثانياً: حال الرومان	٨٨
٤٥ - ثالثاً: الحالة في الهند يومذاك	٩٠
٤٦ - رابعاً: حالة البلاد العربية	٩٠
٤٧ - خامساً: حالة مكة قبل البعثة المحمدية	٩١
٤٨ - سنة الله في خلقه	٩٦
٤٩ - تعبُّده الله والخلوة في غار حراء	٩٧
٥٠ - موعد التكليف وبدء الوحي الإلهي	٩٩
٥١ - ابتداء الرسالة والوحي	٩٩
٥٢ - عادة الله في خلقه	١٠١
٥٣ - فترة الوحي وانقطاعه عن رسول الله ﷺ	١٠٢
٥٤ - الدعوة إلى الله تعالى سراً	١٠٣
٥٥ - فتح باب الدعوة إلى الله تعالى	١٠٤
٥٦ - ترجمة السيدة خديجة رضي الله عنها	١٠٥
٥٧ - ترجمة أبي بكر الصديق رضي الله عنه	١٠٩
٥٨ - ترجمة بلال بن رباح الحبشي رضي الله عنه	١١٤
٥٩ - ترجمة سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه	١٢٠
٦٠ - ترجمة زيد بن حارثة رضي الله عنه	١٢٣
٦١ - الدعوة إلى الإسلام خفية	١٢٦
٦٢ - ترجمة عثمان بن عفان رضي الله عنه	١٢٧
٦٣ - ترجمة عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه	١٢٨
٦٤ - ترجمة الزبير بن العوام رضي الله عنه	١٣٠

الموضوع	الصفحة
٦٥ - ترجمة طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه	١٣٣
٦٦ - ترجمة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه	١٣٦
٦٧ - انتشار أمر محمد ﷺ بمكة ودخول الناس في الاسلام	١٤٠
٦٨ - ترجمة عامر بن فهير رضي الله عنه	١٤١
٦٩ - ترجمة أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح رضي الله عنه	١٤٢
٧٠ - ترجمة صهيب بن سنان الرومي رضي الله عنه	١٤٥
٧١ - ترجمة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه	١٤٨
٧٢ - ترجمة أبي ذر الغفاري رضي الله عنه	١٥٢
٧٣ - ترجمة عمار بن ياسر رضي الله عنه	١٥٧
٧٤ - ترجمة سعيد بن زيد رضي الله عنه	١٦٠
٧٥ - ترجمة خبّاب بن الأرت رضي الله عنه	١٦٤
٧٦ - ترجمة المقداد بن الأسود رضي الله عنه	١٦٥
٧٧ - ترجمة سلمان الفارسي ابن الاسلام وسبب إسلامه	١٦٧
٧٨ - تحقيق أمنية لا بد منها	١٧٠
٧٩ - الدعوة بين الإسرار والعلن	١٧١
٨٠ - الأمر الإلهي بالجهر والاعلان لدين الله تعالى	١٧١
٨١ - إيذاء المشركين لأبي بكر رضي الله عنه	١٧٣
٨٢ - ترجمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسبب إسلامه	١٧٦
٨٣ - ترجمة حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ	١٨٢
٨٤ - زعماء قريش وقادتها يطالبون محمداً ﷺ بالمعجزات	١٨٦
٨٥ - القرآن هو معجزة المعجزات يحير ألباب العرب ويتحداهم	١٨٨
٨٦ - طعن سيدنا محمد ﷺ على الأصنام	١٩١
٨٧ - قريش تفاوض أبا طالب في أمر محمد ﷺ	١٩١

الموضوع	الصفحة
٨٨ - المفاوضات الثانية بين قريش وأبي طالب	١٩٢
٨٩ - المفاوضات الثالثة بين قريش وأبي طالب	١٩٣
٩٠ - تعذيب المسلمين بيد المشركين بعد المفاوضات	١٩٤
٩١ - مقاطعة قريش لمحمد ﷺ وأصحابه وعشيرته	١٩٦
٩٢ - إسلام الطفيل بن عمرو شاعر يحكم عقله ويسلم	١٩٩
٩٣ - ذلٌّ عدوّ الله ورسوله أبي جهل	٢٠٢
٩٤ - الهجرة الأولى إلى الحبشة سنة (٦١٥)م	٢٠٣
٩٥ - الهجرة الثانية إلى الحبشة	٢٠٥
٩٦ - وفد حبشي يقابل الرسول ﷺ بمكة وقريش تعترضه	٢٠٥
٩٧ - آثار الهجرتين للحبشة وما تولد منها	٢٠٦
٩٨ - عتبة بن ربيعة يفاوض محمداً ﷺ بجانب الكعبة	٢١١
٩٩ - طلب قريش الصلح يوم مرض أبي طالب	٢١١
١٠٠ - وفاة أبي طالب في سنة (٦٢٠)م	٢١٣
١٠١ - وفاة سيدة النساء خديجة عام (٦٢٠)م	٢١٤
١٠٢ - سفر الرسول ﷺ إلى بلدة الطائف	٢١٥
١٠٣ - عرض رسول الله ﷺ نفسه على القبائل	٢١٨
١٠٤ - الإسراء والمعراج لحبيب الله ومصطفاه ﷺ في سنة (٦٢١)م	٢٢٠
١٠٥ - تأثير خبر الإسراء في قريش	٢٢٥
١٠٦ - المعراج وما حدث فيه	٢٢٧
١٠٧ - هل رأى رسول الله ﷺ ربه ليلة الاسراء؟	٢٢٩
١٠٨ - عبرة الإسراء والمعراج	٢٣٢
١٠٩ - فريضة الصلاة المفروضة على محمد ﷺ وأمته	٢٣٥
١١٠ - ردُّ شبهة مفتراة على رسول الله ﷺ	٢٣٧
١١١ - عرض الرسول ﷺ نفسه على القبائل القادمين إلى مكة في موسم الحج	٢٣٩

الموضوع	الصفحة
١١٢ - بدء إسلام الأنصار ــ بيعة العقبة	٢٤٠
١١٣ - بيعة العقبة الثانية للأنصار	٢٤١
١١٤ - ترجمة النقيب سعد بن عبادة، سيد الخزرج رضي الله عنه	٢٤٣
١١٥ - ترجمة سعد بن معاذ ــ سيد الأوس رضي الله عنه	٢٤٦
١١٦ - ترجمة النقيب سعد بن مالك رضي الله عنه	٢٤٨
١١٧ - ترجمة النقيب أسيد بن حضير رضي الله عنه	٢٤٩
١١٨ - أول سفير لرسول الله ﷺ لأهل المدينة ــ مصعب بن عمير رضي الله عنه	٢٤٩
١١٩ - ترجمة جابر بن عبد الله الانصاري رضي الله عنه	٢٥١
١٢٠ - ترجمة العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه	٢٥٢
١٢١ - ترجمة النقيب الشاعر عبد الله بن رواحة رضي الله عنه . . .	٢٥٤
١٢٢ - ترجمة الشاب المبايع للرسول ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه	٢٥٧
١٢٣ - ترجمة النقيب عبادة بن الصامت رضي الله عنه	٢٦٠
١٢٤ - ترجمة النقيب البراء بن معروز رضي الله عنه	٢٦١
١٢٥ - ترجمة أبي بن كعب الأنصاري الخزرجي رضي الله عنه . . .	٢٦٢
١٢٦ - ترجمة الشاعر المبايع لرسول الله ﷺ كعب بن مالك رضي الله عنه	٢٦٤
١٢٧ - ترجمة نسيبة بنت كعب بن عمرو بن عوف أم عمارة الأنصارية رضي الله عنها	٢٦٧
١٢٨ - ترجمة النقيب أبو الهيثم بن التيهان رضي الله عنه	٢٧٠
١٢٩ - خلاصة القول في البيعات وتراجم بعض الشخصيات . . .	٢٧١
في هذا الكتاب	٢٧٣
فهرس الموضوعات	٢٧٣